

ليتنى لم أرك

رواية

د / أسامة الفضل

دار روعة للطباعة والنشر 2014

"ليتي لم أرك"

رواية

أسامة الفضل

غلاف / إيمان صلاح

الطبعة الأولى 2014

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

30 ش حسن عاصم

من ش البرازيل - الزمالك

01140178144

darrowaa@yahoo.com

مدير عام / هبة الشرقاوي

رقم الإيداع // 2014-10598

الترقيم الدولي //

978-977-6411-49-5

المقدمة

تدور أحداث هذه الرواية في جزر "دراكازان" عام 1980.

و"دراكازان" مجموعة من الجزر الواقعة في منتصف المحيط، والتي يبلغ عددها مائة وإحدى جزيرة تختلف عن بعضها البعض اختلافاً بيناً في الحجم والشكل والمناخ.

وعلى أرض هذا الأرخبيل تتعايش العديد من الديانات في سلام بينها، وإن كانت الديانة الرسمية للبلاد، والتي يدين بها قرابة نصف سكان الجزيرة، هي عبادة مظاهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم ورياح.

وتعد الجزر مقصداً سياحياً هاماً، حيث يقصدها السياح من أرجاء العالم ليشاهدوا آثارها الضاربة في أعماق التاريخ، ويتمتعوا بجوها الرائع، ويبلغ عدد زائريها قرابة الستة ملايين سنوياً، وهو ما يبلغ ضعف عدد سكانها.

وحاكم الجزيرة هو أفضل مثال للمستبد المستنير، فالرجل قد نهض بالبلاد منذ آل إليه الحكم قبل عشرين عاماً نهضة شاملة، وإن أتى ذلك على حساب الحرية والديمقراطية.

وأسماء سكان هذه الجزر هي صفات أكثر منها أسماء، فلا يهم بأي لغة هي وإنما الأهم هو دورهم في القصص.

دعونا نبحر معاً نحو جزيرة "السلفاة" التي دارت فيها الأحداث هذه المرة.

-تسرفت جزيرة"السلفاة"

مَثَّلَ وصول الدكتور "مراد الشريف" إلى جزيرة "السلفاة" حدثاً هاماً في تاريخ تلك الجزيرة الخالي من الأحداث؛ فمنذ تخصيص هذه الجزيرة لتكون مشفى نفسي، أي قبل قرابة عشرة أعوام، لم يفد للعمل بها رجلٌ ذائع الصيت مثل هذا الطبيب النابغة، صحيح أن المستشفى قد توافد عليه العديد من أصحاب الكفاءات العلمية والمهارات الطبية إلا أن أياً منهم لم يحظ بمثل الشهرة التي حظي بها هذا الطبيب في طول البلاد وعرضها.

ولم تدو شهرة هذا الطبيب إلا منذ شهر واحد فقط، حين أعلنت أسماء الحاصلين على أوسمة "الدولفين" العشرة لهذا العام، والتي تُعد أرفع جائزة بالدولة، حتى أن رئيس البلاد يتولى تسليمها للفائزين بنفسه في احتفال مشهود.

وما أن أعلن عن فوزه بهذا الوسام عن فرع العلوم الطبية حتى أصابت الدهشة المحافل العلمية، ذاك أن عمر هذا الطبيب لم يتجاوز الثلاثين عاماً، وهو يُعدُّ بهذا أصغر طبيب حصل علي هذه الجائزة الرفيعة طيلة تاريخها؛ فأصغر طبيب سبقه للحصول عليها كان على مشارف الأربعين وقت فوزه بها، بل إنه يعد أصغر حاصل على هذه الجائزة في جميع الفروع العلمية؛ إذ لم يسبقه أحد للحصول عليها قبل بلوغه الثلاثين عاماً.

ومنذئذ لم يعد للأوساط العلمية - لا سيما الطبية منها - حديثٌ إلا عن ذلك الطبيب النابغة ودراسته المثيرة للجدل والتي تقدم بها توطئة لحصوله على درجة الدكتوراة.

وما كادت وسائل الإعلام تتلقف الخبر إلا وصار "مراد الشريف" صيفها شبه الدائم على مدى شهر بأكمله، فضلاً عن أفراد الصحف له صفحاتٍ بأكملها للحديث عنه وعن بحثه العلمي الفذ.

ومنذ علم أبناء المستشفى نبأ حضوره للعمل معهم باتوا ينتظرون مقدمه، وإن لم يزل بعضهم غير مصدق أنه سيحضر إليهم بهذه السرعة متجاوزاً قائمة الانتظار الطويلة التي توضعُ بها أسماء راغبي العمل بهذا المستشفى وهو ما يؤدي إلى انتظارهم فترات طويلة قبل الموافقة على طلبهم.

وما كادت قدماه تطنان أرض الجزيرة، بعد أن ترك الجسر الذي يربط بينها وبين جزيرة “النسرين” المجاورة، إلا وقوبل بصنوف الترحيب والتحايا ممن يلقونه، بل إن بعضهم رحب به وكأنه صديقه الحميم.

توجه نحو مبنى إدارة المستشفى الذي يعرفه جيداً؛ فكم تجول بالمكان من قبل أثناء حضوره المؤتمرات العلمية بهذا المستشفى، وهو ما أعطاه فكرة جيدة عن المكان، وإن كانت فكرة عامة تقتقر إلى التفصيلات.

ووجد مدير المستشفى في انتظاره، وبعد الترحيب الحار به أخبره أن طلبه بتخصيص غرفة له بسكن الأطباء - وهو ما أبلغته به الدكتورة “هالة” زميلته القديمة ومديرة المستشفى الجامعي الذي أتى منه “مراد” - جاري تنفيذه على قدم وساق، لكن يبدو أن العمل لن ينتهي قبل ساعتين، وبإمكانه قضاء هذا الوقت في تفقد أرجاء المستشفى والتعرف على أقسامه المتعددة.

أخبر “مراد” مديره الجديد برغبته بدء العمل فوراً؛ فالمدة الممنوحة له للعمل بهذا المستشفى لا تزيد عن ستة أشهر، وهو لا يريد إضاعة أي يوم منها، فأخبره الرجل أن نظام العمل بهذا المستشفى يقضي بخضوع القادم الجديد لفترة تدريبية يتمكن خلالها من تفهم نظام العمل به، والذي يختلف كثيراً عن غيره من المستشفيات، إلى أن يثبت إلمامه بكافة أمور العمل، وحينئذ يُسند إليه العمل منفرداً، لكن نظراً لأن المستشفى يعاني نقصاً حاداً في عدد الاختصاصيين هذه الأيام، بعد تغيب الكثيرين منهم لانشغالهم بالامتحانات، وأيضاً بسبب كفاءته المشهودة فسيتم التعااضي عن ذلك بالنسبة له وسيُسند إليه العمل بدءاً من الغد، وأعطاه مديره جدول عمل المجموعة التي سَيَلْحَق بها، وأدرك حينئذ أن الموافقة على مقدمه السريع لم تكن لفوزه بالجائزة فقط، وإنما لحاجة العمل بالمستشفى أيضاً.

وغادر مكتب مديره الجديد، لا ليتعرف على أرجاء المستشفى كما أوصاه مديره، وإنما متوجهاً إلى أحب الأماكن إلى قلبه.

2- الرفيق الجديد القديم

حين وصل مكتبة المستشفى وجدها مكتظة بالرواد والكتب، ورأى أعلى بابها لافتة كبيرة كُتِبَ عليها "منارة الهدى للحائرين".

ولم يتفاجأ كثيراً حين رأى الكثير من المرضى جلوساً بمكتبة المستشفى؛ فمستشفى رائد مثل هذا لا بد وأنه يدعم طريقة العلاج بالقراءة.

وفور أن خطا داخلها نهضت أمينتها - وقد عرف ذلك من بطاقة التعريف المعلقة على صدرها - وحيته قائلة:- أهلاً بك يا سيدي.. إذاً فحضورك إلينا لم يكن مجرد شائعات.

أجابها وابتسامته العريضة المميزة تملأ وجهه:- كلا، ليست شائعات؛ فقد وصلت لتوي.

وقبل أن تجيبه سمع صوتاً خلفه يقول:- وصلت لتوك! ثم تبدأ أول ما تبدأ بزيارة المكتبة.. ألم تُغيرك الأيام؟

وبحركة لا إرادية التفت نحو مصدر الصوت المؤلف لأذنه وقلبه، وحين رآه لم يكذب صدق عينيه.. أحقاً ما يراه أم تخدعه عيناه؟ ما أعجب هذه الدنيا التي لا هم لها سوى تفريق الأحبة ثم إعادة جمعهم بعد التفرق!

احتَضَنَ كل منهما صاحبه ليطفئاً شوق السنين التي افترقا فيها وهتف
“مراد” :- “رفيق”

تباعد “رفيق” عن صاحبه قليلاً مُنِعْماً النظر إليه فرآه كما هو منذ تركه،
ضحك المحيا.. باسم السن.. تلوح في عينيه بوادر الحماسة والنشاط
الزائدين.. سأل صاحبه :- متى وصلت؟

نظر “مراد” إلى ساعة المكتبة ثم قال : منذ ثلاث وثلاثين دقيقة.

ضحك “رفيق” فأطال الضحك، فلا زال صديقه على دقته المتناهية في
التعامل مع الوقت.

اصطحب “رفيق” صاحبه القديم إلى مقهى المستشفى؛ فلا أقل من تقديم
واجب الضيافة لهذا الزائر العزيز، ولم ينقطع سيل التحايا للضيف الجديد
طوال الطريق إلى هناك، وقد داخل “رفيق” شعور بالفخر لأنه صديق هذا
الرجل الذي صار حديث الناس.

كان كل منهما مندهشاً من رؤية أخيه في هذا المكان. أما “رفيق” فهو
على الرغم من متابعته لأخبار صديقه بشأن نيل القلادة الرفيعة - وهو ما
لم يستبعدهُ على صديقه الذي كثيراً ما تنبأ له أساتذتهما بالمستقبل الباهر -
إلا أنه كان يسائل نفسه :- ألم تلهه الحياة ومشاغلها بعد عن طلب العلم؟
أمر آخر سبب دهشته حين سمع أخبار قدوم صديقه إلى هذا المستشفى؛
فقد تشكك في موافقة أهله على فراقه لهذه المسافة البعيدة وهم الذين رفضوا
فراقه أيام الدراسة الجامعية فأبوا إلا أن يغدو إلى الجامعة كل يوم ويروح
رغم بعد المسافة وطول السفر.

أما سبب اندهاش "مراد" فلأن آخر معلومات وصلته عن صديقه بعد افتراقهما أنه انتقل للعمل بالعاصمة طبيباً للأطفال، ذاك التخصص الذي هواه منذ بدء دراستهما، وقد مر على ذلك أربع سنوات منذ تخرجهما معاً من كلية الطب، وحين سأل صديقه عن ذلك أجابه قائلاً:- لقد تخصصت في طب الأطفال حقاً، لكنني اخترت العمل بطب نفس الأطفال كتخصص دقيق، ولذا انتدبت للعمل هنا حتى حصولي على درجة الماجستير، وبعدها أعود مجدداً للعاصمة.

سأله "مراد" غير مصدق:- ألم تحصل على درجة الماجستير بعد؟!

ابتسم "رفيق" وقال:- أظننت الجميع في مثل تفوئك؟ لقد تقدمت للامتحان ثلاث مرات، وللأسف الشديد لم أوفق في أي منها.

شرد ذهن "مراد" مستعيداً ذكريات الماضي، فصديقه هذا كان أكثر طلاب الفرقة إضاعة للوقت فيما لا يعود عليه بالنفع، ثم إذا به يخالف توقعات المتنبئين بفشله ليدرك في النهاية ما لا يُظن أنه مدركه.

وأعاده صوت صديقه للحاضر حين قال له:- دع الحجب تتكشف عما تخفي في الألوان المناسب؛ فليس هذا بوقت الشرح والتفسير.

ولم يمنحه مهلة للرد إذ واصل قائلاً:- دعك مني الآن وأخبرني: كيف حال أمي وإخوتي؟

وقبل أن يجيبه، تحلق حولهما جمع من المتواجدين بالمقهى ليرحبوا به، وبعد انتهاء الترحيب سأله "رفيق":- ألا تحتاج للنوم بعد سفرك الطويل المرهق هذا؟ إن الإرهاق بادٍ على وجهك وإن حاولت إخفاءه، هيا نصعد إلى غرفتي لتمنح جسدك بعضاً من الراحة التي يحتاجها.

تيقن “مراد” أن صديقه - رغم فُرقة السنين الطوال - لا زال قادراً على كشف ما به.. لكنه رفض فكرة الإستجابة للنوم، وقرر انتهاز فرصة وجود “رفيق” معه الآن؛ فهو أفضل من يطلعه على مستشفى الجديد.

3- جولة في أرجاء “السلفاة”

كان “مراد” قد جمع الكثير من المعلومات عن جزيرة “السلفاة” قبل مقدمه إليها، كعادته دوماً قبل الشروع في جديد، مما جعله يعلم الكثير عنها وكأنه عاش فيها دهرًا.

وقد علم أن سبب تسمية هذه الجزيرة بهذا الاسم هو شكلها؛ فللجزيرة خمسة نتوءات في المحيط، وهي أشد انخفاضاً عن سطح الجزيرة، مما يجعلها تختفي حين يزداد الماء وكأنها رأس السلفاة وأطرافها الأربعة والتي تختفي في حالة الخطر.

لكنه كان يرى - بعيداً عن ذلك - أن هذه أفضل تسمية لجزيرة خُصِّصَتْ لتكون مشفى نفسي؛ فالمرض النفسي في أغلب أحواله يسير بطيئاً كسير السلفاة، كما يصدق هذا على علاجه أيضاً.

وبدأ “رفيق” الشرح لصديقه قائلاً:- يبلغ عدد مباني المستشفى تسعة مبان، المبنى الإداري ويقع في قلب الجزيرة، وثمانية على أطراف الجزيرة يقع كل منها على مسافة متساوية من بعضها البعض، والمباني في مجموعها لا تشغل أكثر من عشرة بالمائة من مسطح الأرض بينما

تُشغَل النسبة الباقية بالمسطحات الخضراء والأشجار الظليلة فضلاً عن الساحات المخصصة لمختلف الألعاب، وقد صُمِّمَ كل مبنى بشكل يختلف عن الآخر لكنها تشترك جميعاً في كونها مستوحاة من تاريخ “دراكازان” وتراثها الخالد.

وتقوم سياسة المستشفى على ترك المرضى يتجولون في أنحاء الجزيرة كما يشاءون، باستثناء الحالات التي يمثل فيها المريض خطراً على نفسه أو على الآخرين؛ فعندئذ يُحتَجَز المريض في مكان معد لذلك حتي زوال الخطورة، والمرضى لا يستطيعون مغادرة الجزيرة إلا من البوابة الرئيسية التي أُنشِئت منها؛ لأنها مُحاطة بالمياه العميقة من جميع جهاتها كما أنها مُزوَّدة بأبراج المراقبة الممتدة على طول الساحل.

وسأبدأ من المبنى الذي غادرناه لتونا وهو المبنى الإداري للمستشفى، فهو يقع - كما ترى - في قلب الجزيرة تماماً، وبه جميع المستلزمات الإدارية للمستشفى إضافة إلى ما يلزم لإعاشة المرضى بالجزيرة منذ مقدمهم إليها من مأكّل وملبس وعلاج.

أما المبنى الذي نقترّب منه الآن، والواقع في شمال الجزيرة فهو قسم المرضى الرجال، ويشغل سكن الأطباء طابقه الأخير والعيادات الخارجية طابقه الأرضي، ويقابله من الجهة الأخرى قسم المريضات وبه تُحتَجَزُ المريضات إضافة إلى الأطفال المرضى بصحبة أمهاتهم، وقد خُصِّصَ لكل من الطبيبات والممرضات طابق منفصل به بينما خُصِّصَ الطابق الأرضي لاستقبال الحالات الطارئة.

وكانا يدوران على حدود الجزيرة في عكس اتجاه عقارب الساعة وحين اقتربا من المبنى التالي قال “رفيق” مشيراً إليه:- هذا مبنى علاج الإدمان ويقابله في الطرف الآخر المبنى المخصص للطب النفسي الشرعي حيث

تُحْتَجَز به حالات المجرمين الذين يشتبه في كونهم مرضى نفسيين؛ لذا ترى رجال الشرطة جالسين أمامه على الدوام، وهؤلاء النزلاء أيضاً لا يُسَمَحُ لهم بالتجول بالمستشفى.

وحين وصلا المبنى الغربي قال "رفيق":- هذا هو مبنى العلاج بالفن وتُوجَد به قاعات للفنون الصالحة للعلاج النفسي من رسم وموسيقى وغناء وتمثيل، ويتم إلحاق المريض بأي منها كُلُّ حسب استعداده وميوله.

ويقابله من الجهة الأخرى مبنى العلاج بالعمل، وبه ورش للعديد من الحرف، ويلحَقُ كل مريض بأي منها أيضاً حسبما يروق له، حيث يقضي المرضى وقتهم في عمل مفيد يعود عليهم بالنفع ويتماشى في نفس الوقت مع برنامج العلاج بالعمل الذي وضعتَه المستشفى والذي تحولت بفضلَه إلى خلية إنتاجية نافعة.

وللأطباء هنا حرية إختيار العمل بأي مبنى يشاءون، وذلك بالاتفاق مع إدارة المستشفى بالطبع.

توقف "مراد" حين تنأهى إلى مسامعه صوت عزف على البيانو لإحدى سيمفونيات "بيتهوفن"، كان يعرف المعزوفة جيداً لكثرة ما سمع أخواته يعزفنها بالمنزل.. نظر من خلال النافذة فرأى شابة رائعة الجمال تجلس أمام بيانو من النوع العتيق، فأخذ ينصت للعزف، ورأى "رفيق" يقترب من الباب فتبعه في صمت.

4- المعالجة الموسيقية

فتح “رفيق” الباب بهدوء شديد لئلا يزعج الموجودين، وهو ما مكن “مراد” من رؤية المكان بصورة أوضح، رأى الشابة تعزف على البيانو وأمامها مجموعة من الشبان والشابات كل منهم يعزف على آله.

أعاده هذا المشهد إلى ذكريات طفولته الأولى، فهو قد تلقى التعليم الموسيقي في كافة مراحل الدراسة ككل طلاب “دراكازان”، ولأنه أبدى مهارة فائقة في عزف البيانو فقد ألحقته المدرسة بفرقة المعبد التي مارس من خلالها العزف والإنشاد الدينيين، وظل بها حتى التحق بالمدرسة الثانوية حين انقطع عن الفرقة بعدما صار غير مؤمن بالآلهة كثيراً، وإن لم يعلن عن ذلك قط.. وقد تعلل بأن دراسته لا تترك له وقتاً للذهاب إلى المعبد، أما في الإجازة الصيفية فقد كفته الرحلات الشبابية مؤونة ذلك.

لم يُعده إلى الحاضر إلا إحساسه بيد “رفيق” تدفعه للدخول، وحينئذ تنبه إلى توقف الموجودين بالقاعة عن العزف، ثم رأى الفتاة تغادر مقعدها أمام البيانو متجهة نحوهما، لتقول له:- مرحباً بك في مستشفىك الجديد.

تدخل “رفيق” قائلاً:- الدكتورة “ناهد صفوت” مسئولة العلاج بالموسيقى بالمستشفى، وهي مثال المعالج الموسيقي الجيد؛ ففضلاً عن كونها طبيبة نفسية ماهرة فهي موسيقية بارعة حتى أنها على وشك الحصول على درجة الدكتوراة في الموسيقى.

خاطبها “مراد” بأدبٍ جَمَّ قائلاً:- نعتذر لك إن كنا عطلناك عن عملك.

- إطلاقاً؛ فقد كنا على وشك أخذ راحة من العزف الآن؛ فنحن نعمل منذ ثلاث ساعات بشكل متواصل؛ ففرقة المستشفى ستشارك في المؤتمر القادم بمعزوفتي الافتتاح والختام، وهؤلاء هم أعضاء الفرقة المكونة من العاملين بالمستشفى ونزلائها.

وتعمدت ألا تقول “ومرضاه” احتراماً لمشاعر الجالسين المتابعين للمشهد باهتمام، والذين بدأوا التحرك فور أن أذنت لهم بنصف ساعة من الراحة يعود الجميع بعدها لاستئناف العمل.

سألها “مراد” بعد مغادرتهم:- هل لك علاقة بتلك الموسيقى التي تنبعث عبر أرجاء المستشفى؟

- أجل؛ لا شك أنك تعلم أن إذاعة الموسيقى عبر النداء الداخلي للمستشفى سُنَّة متبعة بالعديد من المستشفيات حول العالم لا سيما النفسية منها بعدما ثبت التأثير الإيجابي لها على المرضى ومشاركتها في الاستجابة السريعة للعلاج وبالتالي تقصير مدة بقائهم بالمستشفى ناهيك عن تأثيرها على الأصحاء من العاملين والزائرين؛ فالموسيقى ليست مجرد فن وإنما هي أيضاً علم وعلاج، ما أشد تأثيرها على الإنسان نفساً وجسداً.

- ما أشبه النفس الإنسانية بالمقطوعة الموسيقية التي تتميز ألحانها عن أية مقطوعة أخرى؛ لذا فالمشتغل بهذا العلم لا بد أن يكون عاشقاً له نفس عشق الموسيقار تأليف الموسيقى.. إن التاريخ نفسه لم يحفظ من أسماء العاملين به إلا عاشقيه وطوى في زوايا النسيان أولئك الذين عملوا به عن غير هوى.

وتوجه نحو البيانو وأخذ يتأمل به بشغف، وعاوده حنينه القديم إلى استكمال تعليمه الموسيقي.. جلس إليه وأخذت أصابعه تداعب البيانو لتخرج لحناً لا

زالت بعض بقاياها عالقة بذاكرته، قربت “ناهد” مقعداً آخر لتجلس بجواره وسألته:- أتحب البيانو؟

- كانت بيننا صداقة طويلة، حتى منعتني الدراسة الحفاظ عليها.

- لا بأس.. يمكنك استعادة صداقتكما الآن.

- حقاً؟!

- أجل، فبإمكاني تعليمك إن أردت؛ فأنا أفعل ذلك مع جميع راغبي تعلم الموسيقى هنا.

ولاحت له الفرصة سانحة لاستعادة مهاراته في العزف، أما هي فرأتها فرصة للاقتراب من هذا النجم الذي ملأ الأسماع والأبصار في الآونة الأخيرة.

واتفقا على تخصيص ساعتين أسبوعياً بعد انتهاء وقت العمل تعلمه فيهما، وقد أبدى تقدماً مذهلاً في دروسه جعلها على يقينٍ من أن كل ما قيل عن نبوغه وتفوقه لم يكن تزييداً ولا مبالغة.

5- لا تخبرني من هي

وغادرا مبنى العلاج بالفن متوجهين إلى المبنى التالي، واستطرد “رفيق” شارحاً:- هذا المبنى مخصص لعلاج كبار السن والمرضى المزمنين الذين لم يُستَدَلَّ على أهل يحيون معهم.

هم “مراد” بالدخول لاكتشاف المكان لكنه توقف حين لاحظ تردد صديقه، وسرعان ما فُتِحَ الباب ليخرج منه رجل أشيب الشعر، مُقَطَّبَ الوجه كأن الابتسام لم يزر وجهه منذ عقود.. نظر الرجل إليه وللحظة شعر “مراد” أن الرجل قد عرفه، لكنه فوجئ به يسأل “رفيق” باشمئزاز لم يكلف نفسه إخفائه:- من هذا؟

- إنه زميلي “مراد الشريف”.

- وهل يُعوِزُ المستشفى الأطباء المقيمون ليحضروا إليه المزيد منهم؟

- إنه ليس طبيباً مقيماً.. إنه اختصاصي.

- ألم تقل توأ أنه زميلك؟

- هو حقاً زميل دراستي لكنه لتفوقه حصل على درجة الاختصاصي سريعاً وبقيت أنا طبيباً مقيماً.

هز الرجل رأسه دلالة على الفهم ثم سارع بمغادرة المكان.

سأل “مراد” صديقه بعد ذهاب الرجل: من هذا؟

أجابه “رفيق” بضجر:- “عباس مشهور”.. استشاري الطب النفسي ورئيس قسمي علاج المسنين والمريضات.

- ولم يعاملك بهذا الأسلوب الفظ؟

- إنها طريقته مع الجميع.

- ألهذا كنت متردداً في الدخول إلى المبنى؟

ولم ينقذ "رفيق" من المزيد من أسئلته سوى دوي صوت جرس في أرجاء الجزيرة فقال لصديقه بسرعة:- هذا جرس الغداء، هيا، علينا الذهاب الآن إلى مطعم المستشفى وإلا ضاع علينا الطعام.

وشرح لصديقه أمر هذا الجرس، فهو يذق في مواعيد الطعام لتنبيه الجميع للذهاب إلى المطعم، كل في قاعته، كما أن هناك جرس آخر خاص ببداية مواعيد العمل وانتهائها.

ورأى "مراد" أثناء ذلك المتواجدين بالمستشفى يتجهون للمبنى الإداري، كما رأى بعض طاقم المستشفى يصطحبون عدداً من المرضى إلى هناك.

وفي قاعة موظفي المستشفى جلسا والعيون لا زالت تتطلع إلى "مراد"، كان كلاهما يشعر بالجوع الشديد إلا أن مظاهر الجوع بدت أوضح على "رفيق" الذي سارع بالتهام طعامه، بينما جلس "مراد" ساكناً ينظر إلى صديقه، وهو ما جعله يتوقف عن تناول الطعام ليسأله:- لم لا تأكل؟

- إن شهيتي للسماع تغلب شهيتي للطعام.

ضحك "رفيق" ضحكة لفنت أنظار الحاضرين إليه.. ولا عجب؛ فقد أعادته جملة صديقه الأخيرة إلى أيامهما الأولى حين كان "مراد" يُضَيِّع عليهما وجبة الغداء بمطعم الجامعة ليحضرا محاضرة مملة كان كلاهما واثقاً من عدم جدوى حضورها.

وتوقف عن الضحك حين لاحظ تركيز الأعين عليه ثم همس لصديقه:- لقد سألتك أول لقائنا عن حال أمي وإخوتي فلم تجبني.

- لم يتغير الحال كثيراً منذ تركتنا سوى أن أمك أصابها بعض المرض المزمن وتزوجت أختك الصغرى العام الماضي ثم انتقلت لتعيش مع

زوجها بجزيرة “النسرين” المجاورة، فكانت الوحيدة التي لم تحضر عرسها.

- ألا زالوا يتذكرونني؟

- إنهم لم ينسوك يا “رفيق” حتى يتذكروك، كانوا دائمي السؤال عنك حتى جرتُ بم أجيبهم بعد انقطاع أخبارك عني فجأة وبلا مقدمات، إنني لم أتخيل يوماً أنك ستفارقنا تماماً فلا تفكر في زيارتنا ولا حتى مهاافتنا لتنبئنا بما فعلت بك الأيام بعدنا.

- كنت أتابع أخبارك من خلال زملائنا، فلم أشأ أن أشغلك عن دراستك بعدما علمت أنك منذ تعيينك بالجامعة صرت في أشد الانشغال.. أنا أيضاً لم أنس تلك الأيام السعيدة التي قضيتها بينكم فرداً منكم، فيا ليتها تعود، ولا أظنها ستعود.

- بل ستعود يا “رفيق”، سأصطحبك في أول عودة لي إلى هناك، إنهم سيُسَرُّون كثيراً برؤيتك، لا سيما أمك التي كثيراً ما سألتني عنك.

كان “مراد” موقناً أن ما قاله “رفيق” ليس السبب الحقيقي لابتعاده المفاجئ، بل إنه أراد الفرار من أولئك الذين ظنهم طوقوا بجميلهم عنقه، ولم يعلم أنهم ما فعلوا معه ما فعلوا إلا لأنهم لمسوا فيه الإخلاص الذي افتقدوه في أقرب ذويهم، وهو ما جعله يحوز في قلوبهم مكانة لا تقل بحال عن منزلة أي من أفراد الأسرة.

تنبه “مراد” إلى أن صديقه نجح في تغيير دفة الحديث مرةً أخرى فقال له في إصرار هذه المرة:- أَلن تخبرني عن سر تعثرك في امتحاناتك لثلاث مرات متتالية؟

مال "رفيق" نحو صديقه وقال بهمس كأنه يفشي سراً خطيراً يخشى إطلاع الآخرين عليه:- إِنَّهُ الْحُب.

وحين رأى صديقه ينظر إليه مستفهماً هز رأسه مؤكداً واستطرد قائلاً:- لقد وقعت أسيراً للحب طوال العام السابق وهو ما شغلني عن الامتحانات والعلم والدنيا بأسرها.

نح "مراد" في كتم ضحكته.. فهو وإن كانت الابتسامة نادراً ما تفارق وجهه، إلا أنه كان جاداً متزنأً، فما كان ليضحك بصوت عالٍ في مثل هذا المكان الذي يعج بالناس كما فعل صاحبه منذ قليل، ورغم ذلك لم يستطع منع نفسه من الابتسام حين أدرك أنه ليس وحده من لم تغيره الأيام؛ فلا زال صديقه أيضاً على مغامراته النسائية كعهده به.. كم كان يلهث خلف الفتيات مُقسِماً أنه وقع في الحب، وبعد وصوله لما يريد يتراجع قائلاً أنه لم يكن حُباً، وإنما مجرد وهم، وهو ما جعل مغامراته هذه حديث الجميع.

لكن الابتسامة سرعان ما ذابت على شفثيه حين تنبه إلى طول قصة صديقه هذه المرة، فقد قال أنه مرتبط بمغامراته الحالية منذ عام، ما أطولها من فترة حين تُقارن بمغامراته السابقة التي لم يَدُم أطولها شهرين.. سأل صديقه مستوضحاً:- أهى جميلة هكذا؟

أجابه "رفيق" بحماسة شديدة:- إنها أجمل نساء الأرض.. منذ التقيت بها أول عملي هنا سكن حبها قلبي فلم يبرحه.

هتف "مراد" وكأنما توصل لحل مسألة معقدة أعياه البحث عن حلها أسبوعاً: إذاً فهي تعمل هنا!

- أجل، إنها تعمل هنا.. وقد التقيتُها اليوم وحادتتها.. إنها..

قاطعته “مراد” بسرعة: كلا.. لا تخبرني من هي؛ فكلي شوقٌ لاكتشاف تلك الفاتنة التي فعلت بك كل هذا.. وأعدك أن أتوصل إليها قبل مرور ثلاثة أيام.

كان واثقاً من سرعة اكتشافه لها ثقةً منه في ذوق صديقه الساعي دوماً إلى القمة، فهو وبكل بساطة سيبحث عن أروع فتيات المستشفى وحنماً ستكون هي.. لكنه أراد إعطاء نفسه مهلة تحسباً للظروف، كما هي عادته دوماً.

قال له رفيقه:- لن تحتاج كل هذا الوقت.

6 - النوم ليس مضیعة للعمر

وبعد إجهازهما على طعام الغداء، اصطحبه “رفيق” إلى الاستراحة حيث وجدا لافتة عليها اسمه قد عُلِّقَت على غرفة كانت من قبل مغلقة، وحين دخلا الغرفة وجداها على أتم إعداد وبها حقائبه التي تركها لدى مساعدة المدير، فقال “رفيق”:- هيا سأتركك لتسلم جسدك للنوم، وستجدني في غرفة الطوارئ إن أردتني.

- لن أنام الآن، فلدي مهام أريد إنجازها قبل النوم.

ظلت قضية النوم مسألة خلافية بينهما؛ فلطالما قال “مراد” أن الوقت أثمن من أن يُضَيَّع طلباً للنوم، بل إنه ظل يعد النوم عدوه اللدود الذي دارت بينهما المعارك سجالاً، حتى أنه كان يحرم نفسه النوم لثلاث ليال

متتاليات حتى ينجز أعماله، ولا يستسلم له في النهاية إلا مَقهوراً، وعندئذٍ يمكن أن يُرى نائماً في أي مكان وبأي وضعية، جالساً على مكتبه، أو في فراشه ممسكاً بإحدى كتبه مرتدياً نظاراته، أما إن تمكن من الذهاب إلى فراشه قبل غلبة النوم له فكان يحاول الاستفادة من ساعات نومه بأفضل ما يمكنه، مثل أن يشغل الراديو بجوار فراشه لينام على صوت موسيقى هادئة.

وكان "رفيق" على النقيض منه تماماً، فهو يؤمن بأن النوم غريزة لا تختلف عن أي غريزة أخرى من غرائز البشر كالطعام والشراب وممارسة الجنس، والتي يُعدُّ أفضل وقت للاستمتاع بها هو وقت الرغبة فيها، وهو ما جعله يسأل "مراد:-" ألا زلت تستهين بالنوم يا طبيب النفس؟ كيف يفعل ذلك رَجُلٌ مثلك وقد علم أننا نقضي قرابة ثلث أعمارنا نائمين؟! أي أن رجلاً مثلك قضي حتى الآن قرابة العشرة أعوام نائماً.. أتعلم أن أبحاثي لنيل درجة الماجستير تدور حول النوم، إذ أحاول أن أثبت فيها أن النوم ليس بمضيعة للعمر كما يعتقد البعض - ولم يشأ أن يقول له: "وأنت أولهم" - وإثبات أن الأطفال الذين يتمتعون بنوم طبيعي ينمون بطريقة أفضل من أولئك الذين يعانون اضطرابات أثناء نومهم، بل إنني اكتشفت أثناء الدراسة وجود علاقة تبادلية بين اضطرابات النوم والأمراض العضوية، حيث يؤثر كل منهما على الآخر، كما أثبت أن أفضل وقت للذهاب للنوم هو وقت الرغبة فيه؛ فمجرد إعلان الجسد عن رغبته في النوم - بالتثاؤب مثلاً - فهذا يعني أنه ما عاد قادراً على المواصله أكثر من ذلك، إذ تبدأ القدرات العقلية في التناقص تدريجياً ولا يستطيع الذهن استعادتها إلا بعد الحصول على مقدار كافٍ من النوم.

وبالطبع لم يدفع كل ذلك "مراد" لتعديل وجهة نظره، إذ أنه فور مغادرة رفيقه لغرفته بَدَلَ ملابسه وجلس يقرأ، وظل غارقاً في القراءة حتى غرق في النوم.

7 - الوسواس القهري

لم يكن "مراد" ينتمي لتلك الفئة من الناس التي يمكن القول عنها أن بإمكان المرء ضبط الساعة عليها؛ فقد اعتاد على الذهاب إلى المكان المقصود قبل الموعد بوقتٍ كافٍ تحسباً لأي طارئ، لذا فقد تواجد بمبنى العيادات الخارجية قبل أن ينهي عمال النظافة عملهم.

وبعد قليل تبعته الدكتورة "ناهد"، وحين رأته أصرت على دعوته للعمل بعيادتها، كما تركت له مقعدها متعللة برغبتها في الاستفادة من خبرته وعلمه.

وبعد قليل دخل عليهما شابٌ وسيماً ممتلئ الجسم، بدا أنه في منتصف العقد الثالث من عمره، وبعد تبادل التحية دقق النظر في "مراد" ثم قال له:- إنه أنت حقاً.. الدكتور "مراد الشريف"، لكن شتان ما بين صورة التلفاز والحقيقة.

قدمته "ناهد" إلى "مراد" قائلة:- الدكتور "بهاء السيد".. أحد أكفأ وأنشط أطباء التدريب الذين رأيتهم منذ بداية عملي.

ثم سألت "بهاء":- لم تأخرت اليوم؟ إنك لم تعودنا على ذلك!

- لقد وصلت لتوي من البلدة، وبحثت عن عامل الاستراحة، فقد أعطيته معطفي لينظفه، فعلمت أنه غائب اليوم، فقررت الحضور للعمل بدون معطف، فلا شك أن العمل أهم من التقيد بالشكليات.

ودعاه "مراد" لمشاركتها العمل لما رأى من اهتمامه به.

كان أول مريض يحضر للعيادة طالباً في العام النهائي من دراسته الجامعية، وقد أخبر "مراد" بعد كثير من التردد أنه يعاني أفكاراً غريبة تسيطر على تفكيره لساعات طويلة حتى لا يستطيع منها خلاصاً، ورغم علمه بتفاهة تلك الأفكار بل وسخافتها فهو لا يقدر على مقاومة التفكير فيها.

سأله "مراد" عن طبيعة تلك الأفكار، فرفض الشاب التصريح بها قائلاً أنهم سيضحكون إن سمعوها، وبعد طول مقاومة منه وجهد من "مراد" بدأ الشاب في التصريح لهم بها؛ فهو يظل ساعات متفكراً في أن رائحة يده اليمنى ليست طيبة، أو أن إحدى ساقيه أطول من الأخرى.

طمأنه "مراد" إلى أن أفكاره ليست بالمُضحكة ولا المثيرة للسخرية؛ فهي حقائق مسطورة في كتب الطب النفسي، فاندفع الشاب مفضياً بالمزيد من معاناته، فهو يكرر غسل يديه مراراً، كما يعيد التأكد من إغلاق الباب بعد إتمام إغلاقه، وحين يحاول الامتناع عن هذه الأفعال ينتابه القلق الشديد وهو ما يجبره على تنفيذها ليسترخ.

تختلف ردود أفعال المرضى حين يصارحهم الطبيب بطبيعة مرضهم، فبعضهم ينهار، وقد يسارعون لالقاء عشرات الأسئلة عن المرض والاطلاع على أدق التفاصيل عنه، بينما يشعر البعض الآخر بالراحة، بعد

توصلهم أخيراً إلى أن ما يعانونه هو مرض.. مجرد مرض، ويزداد شعورهم بالراحة حين يخبرهم طبيبهم أن هناك أملاً للشفاء منه.

واستخدم “مراد” طريقته الهادئة التدريجية في إخبار الشاب أنه يعاني اضطراباً نفسياً يُدعى “الوسواس القهري” وانتظر رد فعل الشاب الذي بدا منزعاً وقال له في حدة:- إن كنت تعني أنني قد جُنُنْتُ فأنا لست مجنوناً.

اتسعت ابتسامة “مراد” وقال:- أي مأفون ذاك الذي زعم لك أن المرض النفسي لا يعني إلا الجنون؟ ما المرض النفسي إلا نوع من الأمراض التي تُصيب الإنسان والتي لا تختلف بحالٍ عن أي من الأمراض الأخرى الموجبة للعلاج.

أطرق الشاب نحو الأرض وقال بلهجة زالت حدتها:- لقد شعرت أنني مريض لكنني لم أعلم طبيعة مرضي.

وبعدما أجابه على تساؤلاته عن مرضه وإمكانية شفاؤه طلب منه إحضار أحد من يعيشون معه بالمنزل في زيارته القادمة، وعاد الشاب إلى مقاومة الاقتراح الجديد لكن “مراد” أخبره أنه يريد منه مجرد المحاولة وأنه سيبدأ العلاج معه بدءاً من الأسبوع القادم على أي حال.

وبعد خروج المريض سألته “ناهد” عن سر إصراره على إحضار المريض أحداً من أهله، فسياسة المستشفى تقضي بأن تُعالج هذه الحالة دون اشتراط حضور أحد من الأهل، فوضّح لها أن هذا يحمل العديد من الفوائد، فهو يريد التأكد أن الأمر ليس أكثر من وسواس قهري، كما أن أهله سيتابعون تأثير العلاج وإن كان يأتي بثمرته المرجوة أم لا، وأخيراً فإن فرصة التحسن تزداد كلما زادت درجة التوافق الشخصي والاجتماعي.

- ولكن ألا يُعَدُّ هذا انتهاكاً لسرية المريض؟

- كلا، لأنه هو من سيخبر أهله، كما أنني لم أجبره على ذلك وإنما طلبت منه مجرد المحاولة.

- أنا لا أتوقع عودته، فأظنه لا يريد لأحد أن يعلم أنه مريض نفسي، كما أن أصحاب هذا المرض من أكثر المرضى مقاومة للعلاج سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

- بل سيعود بصحبة أحد من أهله؛ فالمريض المستبصر بمرضه النفسي الساعي الى العلاج النفسي لدى المختصين هو أفضل المرضى وأكثرهم استجابة واستفادة منه لان لديه دافعاً للسعي الى العلاج وبدئه والاستمرار فيه والتعاون حتى يتم الشفاء والتمتع بالصحة النفسية.

وتدخل "بهاء" في الحديث قائلاً:- لكن شكواه هذه قد تُصيب أيّاً منا في فترة من فترات حياته.

التفت "مراد" نحوه وقال:- أجل؛ فكلنا ينتابه بعض هذه الأفكار أو ربما كلها أحياناً؛ فما منا إلا وأصابه بعض الشك فعاود التأكد من بعض أفعاله، لكن ذلك لا يدوم إلا لفترة قصيرة ولا يُعيقنا عن أعمالنا، وفيصل اعتبار الفكر وسواسياً والسلوك قهرياً تكرار وقوعه وظهور القلق والتوتر عند مقاومته، وإعاقة الفرد عن تأدية عمله اليومي وتأثيره على كفاءته وتوافقه الاجتماعي والمهني.

8 - البوال الليلي الإرادي

كان المريض التالي طفلاً في العاشرة من عمره أتى بصحبة والدته التي أفادت بأن ابنها عاوده البوال الليلي بعد انقطاع دام ست سنوات، وقد قصدت المستشفى النفسي أخيراً بعدما عرضته على العديد من الأطباء الذين أجمعوا على خلو ابنها من أي سبب عضوي يفسر ذلك وضرورة عرضه على طبيب نفسي.

وقد علم "مراد" منها أنها انجبت طفلاً آخر منذ ثلاثة أشهر وأن القادم الجديد قد استحوذ على اهتمامها مهملةً أخاه الأكبر.

نصحها "مراد" بمعاودة الاهتمام بابنها الأكبر فاعترضت متعلقة بضرورة منح الطفل الأصغر قدراً أكبر من رعاية الأم.

استأذن "مراد" الطفل في البقاء بالخارج قليلاً وبعد خروجه قال لأمه في هدوء:- اهتمامك بالصغير لا يعني أن تتحولي تماماً عن الابن الأكبر تاركة إياه كمّاً مهملاً ومنح كل حنانك لابنك الأصغر.

سألته غير مُصدّقة: أهذا سبب ما به؟

- وهل تريه هيناً على نفس الطفل - يا سيدتي - أن يرى أمه تتحول عنه تماماً بعدما كان مستأثراً باهتمامها وحده؟!

صمتت المرأة فواصل قائلاً:- أقدر أنك لا تستطيعين معاودة الاهتمام به كسابق عهذك، ولكن بإمكانك على الأقل أن تشعره بأن أخاه الأصغر أتى من أجله هو، ليشاركه حياته ولهوه، لا ليستلب ملكه على عرش قلبك.

ثم استدعى الطفل للاتفاق على بقية خطوات العلاج المتمثلة في عدم تناول السوائل المُدرة للبول كالشاي والقهوة مساءً وعدم تناول الماء بكثرة قبل النوم وزيارة الحمام قبل دخول الفراش فضلاً عن تنظيفه لسريره بنفسه في الصباح إذا ما تكرر ذلك.

وبعد قليل دخل الدكتور "عباس" فأجال بصره في الحضور وكأنه يبحث عن شيء تاه منه حتى استقر بصره على "بهاء" فقال له في حدة:- "بهاء.. اسبقني إلى مكتبي."

9- وجدتة ضالتي

حين صعد "مراد" إلى الاستراحة رأى "بهاء" جالساً في البهو أمام التلفاز، وتذكر في تلك اللحظة أنه لم يعد للعمل بالعيادة حتى نهاية اليوم كما أنه لم يره أثناء تناول الغداء.

لاحظ "مراد" أن "بهاء" لا يولي اهتماماً لمشاهدة التلفاز، وحين اقترب منه رآه شارد الذهن حتى أنه لم يشعر به إلا حينما جلس بجواره على الأريكة.

سأله بلطف عن سبب عدم عودته للعيادة رغم إخباره برغبته في العمل، فأخبره أن الدكتور "عباس" منعه عن العمل بدون ارتداء معطفه.

قال "مراد" وقد أدرك سر حزنه:- كان عليك إخباره بالسبب.

أجابه والمرارة تفيض من كلماته:- إنه لم يعطني الفرصة لذلك.

صمت برهة ثم واصل قائلاً:- إنني حين سعييت للحضور إلى هذا المكان كنت أُمَنِّي نفسي بفرصة عظيمة لتعلم الطب النفسي نظراً لسمعته الحسنة في هذا المجال، لكنني اصطدمت به من أول لحظة؛ فهو رئيس وحدتنا كما تعلم، وجدته شخصاً جافاً غليظ القلب، أشعر كأنه يتعقبني وكأنه لا يرى في الدنيا مخطئاً سواي، حتى أوشك أن يجعلني أعزف عما أتيتُ من أجله، بل إنني بدأتُ أشعر بالندم على مجيئي.

قرر “مراد” استخدام إحدى أنجح الأعييه النفسية لإخراج محدّته من الحزن، حيلة تشتيت الانتباه، فسأله:- هل أنت مُقيم هنا بشكل دائم؟

بدا أن الحيلة بدأت تنجح كما يحدث غالباً، فقد أجابه “بهاء” بعد لحظة تفكير:- لقد حرصتُ منذ بدء عام تدريبي على البحث عن أفضل مكان أتدرب فيه على كل فرع من فروع الطب مع ملازمة مستشفاه لأحصل على أكبر قدر من الخبرة تطاله يداي.

واصل “مراد” حين رأى حيلته تؤتي ثمارها:- لكن ألا تؤثر الطب النفسي بشكل خاص؟

أجابه “بهاء” الذي بدا أنه ابتلع الطعم كاملاً:- الحقيقة أنني أجد منذ صغري ميلاً خاصاً نحو كل ما يتعلق بعلوم النفس الإنسانية، وهو ما دفعني لمطالعة الكتب الضخمة التي تتحدث عن النفس وأسرارها.

- إن كنت حقاً تريد تعلم مهارات الطب النفسي فما عليك إلا مرافقتي قدر استطاعتك، وأعدك أنني سأعلمك كل ما يُناسب من هم في مثل مرحلتك.

قال “بهاء” وقد عاد إلى سابق عهده تماماً:- يبدو أنني وجدت ضالتي، سأرافقك كظلك.. إلّا.. إلّا إن كان هذا يُضايقك.

- لا يُضايقني طبعاً، لكن عليك أن تعلم أنك انتقلت من مرحلة الحفظ والتلقين إلى مرحلة البحث العلمي اعتماداً على ذاتك وانقياداً لميولك، فإن كنت تهوى الطب النفسي حقاً فعليك بدء الإطلاع من الآن غير مُقتَصِرٍ على الوجهة العملية وحدها، فالطب يسير على ساقين: العلم والخبرة، وأي قصور في أي منهما سيعيق سيره، وفترتك هذه هي الفترة الذهبية للاطلاع قبل أن تشغلك الحياة بـمهمومها ومتاعبها.

وبينما هما يتحاوران دخل البهو رجلٌ في أواخر العقد الرابع من عمره، وحين رآهما سأل “بهاء” ممازحاً: - أهو زميلك الجديد؟

فأجابه الأخير بلهجة لا تخلو من حدة: - بل هو زميلك الجديد.

10 - رجل غريب الأطوار

سأله الرجل: ماذا تعني؟

فأجابه “بهاء” بنفس الدرجة من الحدة: - ألا تُشاهد التلفاز؟ ألا تُطالع الصُحف والمجلات؟ إنه الدكتور “مراد الشريف” الحاصل على وسام “الدولفين” لهذا العام.

رفع الرجل كتفيه استهانة وقال: - وما علاقة هذا بمستشفانا؟

فأجابه “بهاء” وهو يكاد يتميز غيظاً: - لقد حضر للعمل هنا منذ الأمس.

ثم تذكر أنه لم يُقدّم الرجل إلى "مراد" بعد، فاستدار نحوه وقال:- إنه الدكتور "سرحان" اختصاصي الطب النفسي بالمستشفى.

وحين عاود النظر نحو "سرحان" كان قد اختفى، وبعد قليلٍ رأياه يخرج من غرفته مغلقاً بابها ليقترّب نحوهما سائلاً "مراد":- ما رأيك أن تصحبني في جولة بجزيرة "النسرين" المُجاورة؟ فهي ملأى بالمناظر الطبيعية الخلابة، كما أنها فرصة جيدة لتتعرّف على بعضنا البعض.

تدخل "بهاء" سائلاً:- أليس اليوم يوم دواّمك بالمستشفى؟

أجاب "سرحان" بلا مبالاة:- وما عساي أفعل ومشاغلي الكثيرة وأعمالي لا تترك لي فرصة للتنزه إلا اليوم؟ كما أن بالمستشفى طبيب مقيم مناب.

أجابه "مراد" هذه المرة:- لكن هناك قرارات لا يمكن للطبيب المقيم اتخاذها دون الرجوع لك، وأنت تعلم أن المرضى لا يقطع فيضهم عن المستشفى، ناهيك عن مرضى الأقسام الداخلية.

- وما عساه يحدث في هاتين الساعتين اللتين سأخرج للتنزه فيهما؟

- قد يحدث الكثير، على أي حال، يمكنك الذهاب كما تشاء، أما أنا فلدي الكثير من الأعمال التي أريد إنهاؤها.

أجابه "سرحان" وهو يسارع بمغادرة المكان:- كما تشاء.

وبعد خروجه سأل "مراد" "بهاء" عن سر الحدة التي كست حديثه مع "سرحان"، فأدرك "بهاء" أن هذا الرجل لا يُفوّت ملاحظةً فأجابه:- لقد حَيَّرَني أمره، إنه إنسان غريب الأطوار؛ فتارة أشعر أنه ودود لطيف

وتارة أخرى أجده حاد الطباع مُتَجَهِّماً، يُحَادِثُنِي وكأنه لا يعرفني دونما سبب واضح.

11- أمر متناقض

توجه "مراد" إلى غرفته لاستكمال استعداداته لامتحانات الدكتوراة، وبعد قليل سمع النداء الداخلي يطلب من "سرحان" التوجه لمبنى المريضات، وحين تكرر النداء بعد قليل أدرك أن الرجل غادر المستشفى فعلاً.

وحين ناقش "بهاء" في الأمر أخبره ألا أحد من الاختصاصيين يقيم بالمستشفى سواه، وشعر "مراد" أن الأمر خطير، فلو كان بسيطاً لاكتُفِيَ بأستدعاء الطبيب المقيم المناوب، ولذا قرر الذهاب بصحبة "بهاء" لاستكشاف الأمر.

وأمام باب العنبر رأى إحدى فتيات التمريض والتي بدت وكأنها تنتظر "سرحان" .. سألهما "بهاء": هل هناك مشكلة يا "فيروز" ؟

فأجابته بامتعاض:- لقد طلبنا الدكتور "سرحان".

أشار "بهاء" إلى "مراد" قائلاً:- لقد حضر الدكتور "مراد الشريف" من استراحته بعد سماعه طلبكم للدكتور "سرحان"، فيبدو أنه ليس موجوداً بالمستشفى.

لم تُبال الفتاة كثيراً بأمر هذا الدخيل الجديد، حتى أنها لم تهتم بالنظر إليه، فقال "مراد": هيا يا "بهاء"، فيبدو أنها تريده في أمر شخصي.

التفتت نحوه وقالت في حدة:- ماذا تقول؟ ليس بيني وبين أي شخص هنا أمور شخصية، لكنه أمر بالألا يَطْلَع على زوجته طبيب سواه.

سألها "مراد" وقد ارتسمت على وجهه علامات التعجب:- وما علاقة زوجته بالأمر؟

أجابه "بهاء":- إنها نزيلة بالمستشفى.

سأله "مراد" وقد تضاعف اندهاشه: ماذا تعني؟

أجابه "بهاء" وقد بدا عليه بعض التردد:- إنها مريضة.. ومحجوزة هنا بعنبر المريضات.

- وما سبب حجزها؟

- لا أعلم.. ولا أظن أحداً سواه يعلم، فهو لم يُخبر أحداً عنها بشيء.. بل كما علمت من "فيروز" الآن، طلب من إدارة المستشفى ألا يباشر علاجها طبيب سواه.

عاد "مراد" يسأل الفتاة:- أهى تريده شخصياً أم تريده أنه لطارئ طبي؟

قالت "فيروز" أنها لم تتناول طعامها منذ البارحة وتمتنع الآن عن أخذ علاجها.

- إذاً فهيا بنا إليها.

- ولكن!

- لا مجال لـ "لكن" .. هيا بنا ومن فضلك أحضري لي ملفها الطبي.

وحين اطلع على ملفها وجد أن زوجها شَخَصَ مرضها على أنه "اكتئاب شديد مع أعراض ذهانية"، كما دَوّنَ أنها حاولت الانتحار مرتين من قبل، لكنه تَدَخَّلَ في المرتين لمنعها، ولذا قرر احتجازها بالمبنى وعدم تركها تتجول بالجزيرة كباقي المريضات.

توجه ثلاثتهم نحوها ليسألها في رقة شديدة:- أأنت حقاً زوجة زميلنا "سرحان"؟

نظرت نحوه في صمت ولم تُجِبْ، فواصل قائلاً: لم ترفضين الطعام والعلاج؟

ظلت على صمتها لكنه لم ييأس، فمن أكثر ما اشتهرَ به "مراد" قدرته على التواصل مع المرضى الذين يصعبُ على الآخرين التواصلُ معهم، فهو لا يجد غضاضة في قضاء ساعة أو ساعتين محاولاً التحدث إلى مريضٍ رافضٍ للإجابة عليه حتى يلين له ويجيبه، صمت قليلاً ثم قال لها:- لقد اطلعتُ على ملفك الطبي فعلمت منه أن لديك أعراض اكتئابية، لكني لا ألاحظ هذا عليك.

نظرت إليه مُجدداً وهمت أن تتكلم لكنها بدلاً من أن تجيبه صرخت فزعة وتعلقت عيناها بباب العنبر، نظر إلى حيث شخص بصرها فرأى "سرحان" و "فيروز" يدخلان من باب العنبر متجهين نحوه.

سأله "سرحان" والشرر يتطاير من عينيه:- ألم يخبروك أنني أعطيت أوامري ألا يطلع عليها طبيب سواي؟

أجابه مشيراً إلى "فيروز": بل أخبرتني، لكني رأيت أن حالتها تستدعي تدخلاً فورياً مني، كما أن أبسط حقوق زمالتنا أن أراعي عملك حتى تعود لئلا يُلاحظ تغيبك عن المستشفى.

لم يبال "سرحان" بمغزى كلماته واستمر على صلفه قائلاً: - لكنه ليس يوم عملك.

- أمام حاجة مرضانا لا بد أن تسقط اللوائح، فلست بمن يرى إنساناً يُعاني فيقف مكتوف الأيدي رغم قدرته على مد يد العون، على أية حال، لم شخّصتها بالاكْتئاب؟ إنى لا أجد.....

قاطعهُ "سرحان" بلهجته المستفزة: - دعك من حديث المثاليات الفارغة هذا، ولا تدس أنفك في شئون الآخرين، لا سيما إن كانوا لا يرغبون في ذلك، ولا تنس أنني اختصاصي مثلك ولست أحد من يعملون تحت إمرتك. قال وهو يجذب "بهاء" من يده لمغادرة المكان: - كنا فقط نريد مد يد العون.

واصل "سرحان": - ابقى يد عونك لنفسك فربما كنت أحوَج إليها.

ما كان لمثل هذا الرجل الذي قد يؤنبه ضميره لثلاثة أيام ونصف اليوم إن شك أنه لم يُقدّم وافر الشكر لشخص قدّم له أنفقه الخدمات، ما كان لرجل هذا حاله أن يستوعب سر غضب هذا الرجل مما فعل بدلاً من شكره إياه.

وحين أمعن التفكير في الأمر بدا له غريباً ومتناقضاً في كافة أنحاءه، ورأى الغموض يكتنفه كله، فلو مرضت زوجتي بمرض نفسي - هكذا بدأ يقول لنفسه - وأنا الطبيب النفسي الماهر، لبذلت قصارى جهدي لأعالجها

في المنزل متجنباً إيداعها مشفى نفسي، فإن كنت لابد فاعلاً فما كنت لأحجزها بالمشفى الذي أعمل به، فأنا بهذا كأني أقول للجميع: أيها الناس، إن زوجتي مريضة فاشهدوا.

الأمر الآخر الذي لفت انتباهه هو مظهر “سرحان” الذي لا يتناسب مطلقاً مع مظهر طبيب لا يجد وقت فراغٍ لكثرة أعماله كما زعم، بل إنه لا يتناسب مع مظهر طبيب على الإطلاق.

ولم يخرج من أفكاره سوى سماعه “بهاء” يقول له:- لم أظن أن كلماته ستثيرك هكذا.

شرح “مراد” الأمر لصديقه الصغير ثم قال له مُعَقِّباً:- إما أن هذا الأمر يحمل سرّاً أو أن هذا الرجل لديه سلوكٌ مضطرب.

سأله “بهاء” وقد تشوّقَ لسماع أول درس في الطب النفسي:- وماذا تعني باضطراب السلوك؟

- اضطراب السلوك يعني أن تصدر عن الشخص الأفعال التي لا يُتَوَقَّعُ صدورها منه؛ فزيارة صديقك لك في المساء مثلاً سلوكٌ طبيعي، أما زيارته لك في منتصف الليل أو في الصباح الباكر فهي سلوكٌ مضطرب إن لم يكن لها ما يبررها.

دخل “سرحان” البهو وأثار الغضب لا زالت بادية على وجهه، فقرّر “مراد” ألا يُضَيِّعَ الفرصة التي بدت مواتية وقال له:- وددت لو علمت سبب غضبك مني.. أكل ذنبي أنني أردت أداء واجب نحو زميل تُعَيَّبَ فحاولت إنجاز عمله، وحين وصلت المكان الذي طُلِبَ منه التوجه إليه وجدت مريضة تعاني فقررت مساعدتها، وتضاعفت رغبتني في المساعدة

حين علمت أنها زوجة هذا الزميل نفسه.. أما كان الأولى بك أن تقابل صنيعي هذا بالشكر بدلاً من التعنيف؟

لانت ملامح "سرحان" قليلاً ثم قال له:- سأسامحك.. لكن لي شرط واحد.

- ما هو؟

- ألا تعود لمثلها.

- اتفقنا.

وتحرك "سرحان" نحو غرفته فاستوقفه "مراد" قائلاً:- لكن ضميري لن يستريح حتى أعوضك عن الرحلة التي أضعتها عليك.

- لكني لن أخرج مرة أخرى.

- من تحدث عن الخروج؟! هل تُجيدُ لعب الشطرنج؟

بُغِتَ "سرحان" للسؤال غير المتوقع، ثم هز رأسه إيجاباً ولم ينطق، فسأله "مراد": إذاً فما رأيك أن نلعب دورين من الشطرنج نُضِيع بهما وقتنا في هذا اليوم الطويل الممل؟

ولم ينتظر رد "سرحان" إذ دخل غرفته على عجلٍ ليحضر رقعة الشطرنج التي يحتفظ بها دوماً في حقيبته، أما الذي كان يُشاهد الموقف غير مُصدّق فهو "بهاء" الذي سائل نفسه:- أحقاً يجد مثل هذا الرجل وقتاً يلعب فيه الشطرنج؟ ألم يكن منذ قليل منكباً على كتبه وأبحاثه؟ وهل يلعبها لمجرد إضاعة الوقت كما قال أم أن له غرضاً آخر من ورائها؟ أمثله يتعمد إضاعة الوقت؟

ولأنه لم يهتد لجواب عن أي من أسئلته الحائرة تركهما يلعبان ودخل غرفته ليستكمل مطالعته لكتب الطب النفسي عملاً بنصيحة “مراد”.

12 - لا بأس بالتجربة

فكرة واحدة سيطرت على عقل “مراد” منذ استيقظ صبيحة اليوم التالي.. أنه حتى الآن لم يتوصل لاكتشاف الفاتنة التي سلبت لب صديقه، ولكن كيف يتوصل إليها والمستشفى مليء بالغيد الحسان اللائي تصلح أي منهن لاختارها؟ ها هو اليوم الثاني يوشك على الانتهاء ولمّا يتوصل إلى معرفتها.

وبعدما تهيأ لممارسة عمله سمع النداء الداخلي يُطالبه بالتوجه لمكتب مديره الذي أبدى اهتمامه بمعرفة رأيه عن الاستراحة ودرجة مناسبتها له.. لم يجد “مراد” ما يجيبه به؛ لأنه لم يكن يولي تلك الأمور الروتينية من طعام وملبس ومسكن الكثير من اهتمامه لا زهداً فيها ولا انصرافاً عنها، بل لأنه يراها تدخل ضمن نطاق التوافه التي لا يسمح لها أن تشغل حيزاً من تفكيره وإن قل؛ فالعقل في رأيه وعاء محدود لا يمكن شغل جزء منه إلا بإزاحة جزء آخر، وهو لم يرتض أن يملأه إلا علماً.

وحين أدرك المدير ذلك بفطنته قال مغيراً الموضوع:- تعلم أن اليوم بدء عملك كاختصاصي مناوب بالمستشفى، وهو ما يعني أنك ستتحمل مسؤولية المستشفى كلها.

وشرح له في عَجالة أهم مسؤولياته والواجبات المَنوطة به فتفهمها
“مراد” سريعاً.

وبعد فراغه من الشرح قال له:- لاتحسَبَنَّ معرفتي بك بدأت مع قدومك
لمستشفانا؛ فقد التقيتكَ عدة مرات دون أن نتقابل، لكم رأيَتكَ في ندواتِ
ومؤتمرات علمية كنت فيها حاضراً نشيطاً وحريصاً على الحضور
المبكر نفس حرصك على إلقاء الأسئلة التي لا تُصدر إلا عن مُطَلِّعٍ مُتابعٍ
لأحدث ما يَجِدُ في هذا العلم.

قال “مراد” الذي احمرَّ وجهه خجلاً:- إن المؤتمرات العلمية عشقي
وهوأي يا سيدي؛ فهي فرصة عظيمة للالتقاء بالعلماء والسماع منهم
والاستفادة من خبراتهم.

- حسناً، بما أنك تعشق المؤتمرات هكذا، فلا شك أنك تعلم أن المؤتمر
السنوي للجمعية الوطنية للطب النفسي سَيُعقد مطلع الأسبوع القادم
بمستشفانا، وقد عَودتُ أبنائي - أطباء المستشفى - أن يحوزوا دوماً
نصيب الأسد في حضور هذا التَجَمُّع العلمي الذي يقصده أطباء النفس من
أرجاء الجُزر، بل ومن البلدان المُجاورة أيضاً، لذا أراه فرصة طيبة
لتعريفنا ببحثك العلمي وأسباب حصولك على قلادة “الدولفين”.. إن لم يكن
هذا يشغلك عن امتحاناتك القادمة بالطبع.

صمت “مراد” متفكراً؛ فهو لم يَتهَيأ لإلقاء كلمة في مثل هذا المؤتمر
الهام، إلا أن مُديره لم يدع له فرصة للتفكير، إذ واصل الرجل قائلاً:- كما
أن هناك مسابقة ستقام على هامش المؤتمر، وأتمنى أن تحصد لنا إحدى
جوائزها، فهي تعد مكسباً أدبياً كبيراً، ولكن اطمئن، فإن لم تفعل فلن
يلومك أحد، أعلم جيداً أن الوقت قد لا يُسَعِّفك للإجابة على أسئلتها التي

تحتاج لمعاودة الإطلاع بينما لم يتبق إلا يومان على الموعد النهائي لتسليم أجوبتها.

وسّلمه نسخة من المسابقة فأدرك أن المدير قد حسم أمره.

وبعد استئذانه للانصراف توقف فجأة وعاد يسأل:- هل اشترك “بهاء” في هذا المؤتمر؟

أكد هذا السؤال للمدير صحة المعلومات التي وصلته عن الصداقة القوية التي ربطت بين هذين الطبيبين، فأجابه قائلاً:- لَعَلَّكَ تعني “بهاء السيد” طبيب التدريب.. لقد أتاني طالباً ذلك فرددته بلطف.. لا أظنه سيجني كبير فائدة من حضوره؛ فليست لديه القاعدة العلمية التي تؤهله لفهم المناقشات العلمية المتخصصة التي ستدور بالمؤتمر، إن حضوره لن يكون إلا مضيعة لوقته وجهده دون أدنى فائدة تعود عليه.

- فلتأذن لي - يا سيدي - أن أخالفك الرأي، أعتقد أنه سيستفيد كثيراً من حضوره؛ فهو شاب نشيط محب للعلم ساع وراءه قدر جهده.

هز المدير رأسه نفيًا وقال:- الحماسة وحدها لا تكفي.

وبعد برهة صمت واصل قائلاً:- أتعلم أن لهذا الطبيب الصغير شأنًا عجيبيًا؟! كان أول حضوره موفور النشاط، بادي الحماسة، كنت كلما تفقدت مكاناً بالمستشفى وجدته فيه، وإذا به فجأة يفقد اهتمامه بالعمل وكأنه اكتفى بما تعلم.

لم يجد “مراد” فائدة لإطلاع مديره على سبب تغير “بهاء” المفاجئ واكتفى بأن يقول له:- إنني استأذنك في إشراكه بالمؤتمر والمسابقة كليهما، وسأتحمل نفقات اشتراكه كاملة.

افتتر ثغر “رأفت” عن ابتسامة واسعة وقال:- أأخبرك أني رفضت إشراكه بالمؤتمر فتطلب مني إشراكه بالمسابقة؟ كيف سيُجيبُ هذا الطبيب المُبتدئ على أسئلة حيرني - أنا شخصياً - بعضها؟

- إن “بهاء” - يا سيدي - قوة مُهَدَّرة يَجِبُ استغلالها لا أن تُهْمَلَ فَتُضَيَّعُ، أنه كنبع الماء الذي يغور بتركه، ويزداد بالأخذ منه.

- لا تعقد عليه الآمال الجسام، فلا زال في فترة تدريبه، لم يعلم من الطب النفسي إلا تلك القشور التي لُقِّنها أثناء دراسته والتي لا تكفي لخوض مثل هذه المسابقة.

- فهل بلوته؟

- أرى أنك تبالغ بشأنه كثيراً!

- بل إنني أراه قوة كامنة لم تُحْتَبَر ولم يُعرف بعد مداها، فلندعه يَخْضُ التجربة، فإن لم يَنْجُز شيئاً فلن يخسر شيئاً، أما إن حقق أُملي فيه فسيمثل فوزه هذا نقطة انطلاق له ودافعاً للمزيد من التقدم والإنجاز، ولا أظنه سيخيب أُملي فيه.

وأخيراً وافق “رأفت” على وضع اسم “بهاء” بقائمة المشاركين بالمؤتمر، لا لشيء إلا ليثبت لهذا المتحمس أيهما على حق.

وأثناء خروجه من مكتب مديره رأى “سرحان” بمكتب مساعدة المدير على غير توقع منه، إذ كان من المُفْتَرَض أن يلتقيا بالعنبر ليسلمه العمل، فهو كان الاختصاصي المناوب بالأمس، لكنه فُوجئ به يخبره أنه سلم العمل إلى “ناهد” التي كانت بالعنبر حينئذ.

وأخفى "مراد" شعوره بالغضب؛ فما فعله "سرحان" لا يتماشى مع قواعد العمل المتعارف عليها، إذ جرى العرفُ على تسليم كل طبيب العمل لنظيره، لكنه قرر تجاهل الأمر، وتساءل بينه وبين نفسه هل لوجود "سرحان" بمكتب المدير الآن علاقة بتركه العمل أمس؟.. ولم يفقه أن يسأله:- هل ستُشارك في مؤتمر الطب النفسي القادم؟

- لكني لم أعد أية مُحاضرةٍ لإلقائها به.

- وهل بالضرورة أن تُشارك محاضراً؟ ألا يكفيك الاشتراك مستمعاً؟

رفع "سرحان" كتفيه استهانةً وقال:- وماذا قد يُقالُ فيه أكثر مما أعلم؟ إن أياً من المحاضرين لا يزيد عني مهارة ولا علماً، بل إنني لا أَقُلُّ عن أولئك الذين يلتقون بهم في أحاديث التلفاز صباح مساء.

13- لقد راكنت عليك

استقبلته "ناهد" بلهفة فور أن وصل عنبر المريضات قائلة:- لقد حان وقت المرور وبحثت عنك فلم أجذك.

نظر إليها إحدى نظراته الثاقبة التي تميز بها، والتي كانت تُشعر مَنْ أمامه أنه اخترق أعماقه وفصح ما بداخله، ثم سأله:- فهل أعددت له؟

أجابته بلهجةٍ تحمل نكهة أنثوية:- إنني أنتظر هذا المرور منذ أمس.

لكن حياءها لم يستطع مقاومة نظراته أكثر من ذلك، فأشارت إلى الملفات الطبية المتكدسة على المكتب ولم تنطق، فسمعه يقول لها:- ما هذه؟

- ملفات عنبر المريضات.

- بل أود تفقد جميع أقسام المستشفى.

فغرت فاما دهشة ثم قالت:- لكن هذا سيستغرق الكثير من الوقت والجهد ولازلنا في بداية اليوم.

أجابها بلهجة مغلقة ببعض الخشونة:- بإمكانك طلب الراحة فور شعورك بالتعب وليكمل معي أحد زملائك.

كان يريد انتهاز الفرصة ليتعرف على بقية أقسام المستشفى التي لم يزرها مع "رفيق"، والأهم من ذلك كان يريد اكتشاف محبوبة "رفيق"، قبل انقضاء المهلة التي منحها لنفسه.

وما كادا يشرعان في العمل حتى دخل "بهاء" ليشاركهما إياه، فأخبره بطرف مما دار بينه وبين المدير حول المؤتمر ثم أعطاه نسخة المسابقة ومفتاح غرفته وقال له:- "بهاء" .. أريد منك الصعود الآن إلى غرفتي.. ستجد بها العديد من الكتب والمراجع التي أريدك أن تتكَبَّ عليها لتستخلص منها أجوبة هذه المسابقة.. ولكن عليك التأنى كثيراً قبل الإجابة على أي سؤال؛ فربما بدت لك تلك الأسئلة سهلة أو يسيرة لكنها تحمل معاني أعمق بكثير مما تظن.

هم "بهاء" أن يسأله لكنه توقف فقال له "مراد" وقد فهم ما أحجم عن قوله:- أريدك أن تبذل قصارى جهدك.. إن حلاوة النجاح تُقاسُ بمقدار

الجهد الذي تبذله وصولاً إليه. إن النجاح السهل لا طعم له، افعل ما في وسعك وما استعصى عليك بعد ذلك فاطلعي عليه.

تحرك "بهاء" مغادراً المكان فاستوقفه "مراد" قائلاً:- "بهاء" .. لقد راهنتُ عليك، ولم أعتد أن أخسر رهاناً.

فأجابه وقد امتلأ حماسة:- يעדك حصان السبق أن يجري بأقصى طاقته.

14- العلاج بالعمل

كان مبنى "العلاج بالعمل" أهم مبنى أراد زيارته هذه المرة، وهناك التقى الدكتور "شهاب" رئيس هذا القسم.. ولم يكن "شهاب" يكبره إلا بأعوامٍ قلائل، لكن إدارة هذا المكان أُسِنِدَتْ إليه لأن أبحاثه لنيل درجة الدكتوراة دارت حول هذا المجال.

وسرعان ما تألف معه بعدما وجد بينهما الكثير من الصفات المشتركة.

قال له "مراد" ممازحاً:- لقد قيل أن المستشفى تحول إلى طاقة إنتاجية كبرى بفضل برنامج العلاج بالعمل الذي يتبناه.

أجابه "شهاب" جاداً:- هذه مجرد شائعات.

وشرح له سياسة العمل بهذا القسم موضحاً أن الغرض الحقيقي من وراء العلاج بالعمل هو شغل وقت المريض والمساعدة في عملية التشخيص والعلاج والتأهيل، وليس تحقيق منفعة مادية؛ فالإنتاج الحقيقي

هو تغيير سلوك المرضى والربح الحقيقي هو تحقيق الشفاء وذلك عن طريق إبعاد الملل والسأم أثناء فترة العلاج والذين قد يزيدها من تدهور الحالة، فهو علاج بكل معنى الكلمة، إذ تُحدد ساعته ونوعه ويلاحظُ المريضُ أثناء القيام به، كما يُعتبر نوعاً من التعبير والتنفيس المريح، لكن نوعه يتوقف على شخصية المريض وعمره وصحته العامة ونوع مرضه والطور الذي يمر به، فيتم تقسيم المرضى إلى ثلاثة أقسام، المرضى المهمتين والأقل اهتماماً والمتبلدين، ويسندُ إلى كل فريق ما يمكنه القيام به، وعادة ما يحظى القسم الأخير - الذي يُعدُّ أكثرها صعوبة - بجهد مضاعف، ولذا يستخدم مع مرضاه كل أنواع الإثارة والتبسيط ووضوح التعليمات والعمل، ويعدُّ أي تقدم معهم مكسباً مهماً كان بسيطاً.

كما أخبره أنه منذ بدء برنامج العلاج بالعمل بالمستشفى وهو يلقي استحساناً كبيراً من المرضى، حتى أن الكثيرين منهم يترددون عليه بعد خروجهم وهو ما يضمن متابعتهم ويزيد من الثقة في مواظبتهم على تناول العلاج خارج المستشفى، كما أن البرنامج ينظم العديد من الرحلات الخارجية، بل وزيارات للمصانع فضلاً عن الحفلات الترفيهية التي تُوزع أثناءها الهدايا والجوائز.

وحين توجه إلى مبنى علاج الأطفال وجده مغلقاً، وأخبرته "ناهد" أن الأطفال المرضى يتلقون علاجهم في فترة الصباح فقط، فإن كان ثمة ضرورة لبقائهم بالمستشفى فيتم حجزهم بعنبر المرضى أو عنبر المريضات حسب المرافق المقيم مع الطفل.

وحين التقى "شهاب" في استراحة الأطباء لم يفته أن يلاعبه الشطرنج، وقد اكتشف أن أهم ما يميز لعبه إجادته لاستغلال أخطاء خصمه.

15- ماسر المكتبة؟

وبعد انتهاء جولتهما عادا معاً إلى المكتب الذي خُصَّصَ لـ “مراد” والواقع في الردهة المؤدية إلى عنبر المريضات، وهناك وجدا “رفيق” بانتظارهما.

اعتذر “رفيق” عن تأخره متعللاً بانشغاله في المكتبة قليلاً، وهو ما حَيَّرَ “مراد”؛ فأول لقاء جمعهما كان بالمكتبة والآن يخبره أنه تأخر بسبب انشغاله بها.. ألم تكن المكتبة أبغض مكان لقلب صديقه أيام الجامعة؟ ما سر هذا الانقلاب الذي حدث له ؟

وحين راودته فكرة أن رفيقه ربما كان جالساً إلى محبوبته هناك، قرر عدم نقاشه في هذا الأمر؛ ربما كانت هذه أفضل طريقة لاكتشافها.

وبعد قليل دخلت إحدى فتيات التمريض تطلب رأي “رفيق” في بعض الأمور المتعلقة بالمريضات وبدأ أنها لم تنتبه لوجود “مراد” فسألها “رفيق”:- ألا ترحبين بزميلنا الجديد يا “مشيرة” ؟

التفتت “مشيرة” نحو “مراد”، وقالت له بعدما دققت النظر فيه:- لا بد أنك الدكتور “مراد الشريف”؛ فقد سمعت اسمك يتردد عبر نداء المستشفى، كما أنني رأيتك عدة مرات في برامج التلفاز.

قدمها “رفيق” إلى صديقه قائلاً:- “مشيرة” إحدى أكفأ وأمهر ممرضات المستشفى.

عادت "مشيرة" تذكر "رفيق" بما أتت من أجله فأعلن "مراد" عن رغبته في اصطحابهما، وهو ما جعل "ناهد" على وشك أن تُصعق.. كيف يتأتى لهذا الرجل مثل هذا النشاط وهو الذي أنهى لتوه المرور على المستشفى بأكمله؟! إنها تشعر بما يشبه الانهيار الجسدي، وتكاد - لولا الحياء - أن تصرخ من شدة الألم. لم تكن قد علمت بعد أنه رجل لا يعرف كلاً ولا ملأ، لكنها في النهاية قررت التحامل على نفسها والحضور معهم وهي التي لم تكن مضطرة إلى ذلك.

وبعد الفراغ من مناظرة المريضات سألته "مشيرة" عن سر ابتسامته التي لا تكاد تفارق وجهه فأجابها بشعاره الدائم:- وهل يوجد في الدنيا ما يستحق الحزن من أجله؟

تدخل "رفيق" في الحوار منبهأ:- ها قد تآلفت سريعاً معها وستضيع علينا موعد العشاء.

فسأله "مراد": ألا ترى لهذه الألفة سبباً واضحاً؟

عاود "رفيق" النظر إليها وكأنه يريد استكشاف شيء غامض بها ثم قال بعدما أعياه التفكير:- أحسبت أننا جميعاً نمتلك نفس قدرتك على الملاحظة الدقيقة؟!

- ألا تشبه أختك الصغرى إلى حد بعيد؟!

- ضرب "رفيق" رأسه براحة يده وقال:- أتعلم أن هذا الشبه أدهشني حقاً أول حضوري؟! لكن يبدو أن طول ألفتنا للشئ يفقدنا القدرة على ملاحظته.

سألت "مشيرة" "رفيق":- أما أخبرتنا أنك وحيد؟!

- ليس لي إخوة من صلب أبي ولا رحم أمي، لكن أهله ظلوا لفترة طويلة أهلي، أمه أمي وأخواته أخواتي.

نظرت “مشيرة” إلى ساعة يدها ثم قالت:- استأذنكم؛ فأنا أنتظر مكالمة هاتفية من خطيبي.

فأذن لها “مراد” بالذهاب، وقبل أن يغادر المكان بصحبة “رفيق” لتناول العشاء لاحظ أن ممرضة أخرى دخلت العنبر لتمسح المكان بعينيها، ثم رآها تميل على زميلة لها تتاجيها، ولم تصل إلى أذنه سوى كلمة واحدة من حوارهما القصير.. (بهاء)، ثم رأى الممرضة الأخرى تبتسم وتهز رأسها نفيًا.

ومن خلال هاتف العنبر طلب من عامل النداء الداخلي النداء على “بهاء” ليتوجه لعنبر المريضات، وما هي إلا دقائق حتى صار “بهاء” بين يديه.

سأله “مراد” عما أنجزه فقال:- لقد أنجزت الكثير وبقي الأكثر، فطلب منه الانضمام إليهما في تناول العشاء ثم العودة لإكمال عمله.

لم يفهم “بهاء” لِمَ طلبه “مراد” عبر النداء الداخلي؛ فهو يعلم أنه موجود بغرفته وكان بإمكانه مهاتفته مباشرة بدلاً من ذلك، لم يعلم أن “مراد” ما فعل ذلك إلا ليرى رد فعل الفتاة حين يأتي “بهاء”.. وكان له ما أراد؛ فملاحظته الدقيقة لم تخذله هذه المرة أيضاً، فقد رأى وجهها يتهلل فور رؤية “بهاء” ثم ينقبض وهو يغادر المكان.

16 - في غرفة الطوارئ

وأثناء توجه ثلاثتهم إلى المطعم لتناول العشاء سمعوا النداء الداخلي يطلب من "رفيق" التوجه لغرفة الطوارئ فعدّلوا مسارهم إليها.

بالرغم من كون "رفيق" طبيب أطفال إلا أنه كان يُكَلَّف بالعمل في الطوارئ ككل الأطباء المقيمين، وذلك بعد تلقيه التدريب اللازم أول حضوره، لكنه - ككل الأطباء المقيمين أيضاً - لم يكن يُسَمَح له بحجز أي مريض إلا بعد إبلاغ الاختصاصي المناوب، وهو ما جعل "مراد" يصطحبه لمناظرة المريض وإنهاء إجراءات حجزه بالمستشفى إن لزم الأمر، وذلك حتى يُدركوا العشاء قبل انتهاء مواعده.

وفي غرفة الطوارئ وجدوا رجلاً يرْسُف في الأغلال، وبجواره عدد من رجال الشرطة، وأخبر قائد الشرطة "مراد" أنهم وجدوا هذا الرجل في حالة مُزرية بالطريق وأنه كان يُهدّد المارة ويُلقِي عليهم القمامة ولم يجدوا معه أي إثباتٍ لشخصيته وليس لديهم المزيد من المعلومات عنه، ولذا أحضروه إلى هنا لفحص قواه العقلية.

قرر "مراد" حجز الرجل بالمستشفى وإجراء كافة الفحوصات اللازمة له ووضعه تحت الملاحظة على ألا تُفك قيوده إلا إن قرر ذلك "مراد" بنفسه.

وسرعان ما أنهى "رفيق" الجائع إجراءات دخول المريض، وأثناء جلوسهم إلى العشاء سأل "بهاء" "مراد" -: لم قررت عدم فك الأغلال عن المريض؟

- إننا نمتلك واحدة من أهم السُّلطاتِ يا “بهاء”.. سلطة حبس إنسان لحرية إنسان آخر، لذا فنحن ما بين نارين، ما بين حبسنا لحرية المريض من جهة وحمايتنا له وللآخرين من أذاه من الجهة الأخرى؛ لذا يجب أن نزن الأمر بميزان دقيق، ولأننا حتى الآن لا نعلم إن كان هذا الرجل مريضاً أم لا، فلا يسعنا سوى حمايته وحماية الآخرين في الوقت ذاته مما قد يفعله إن تركناه حراً.. وعلى كلٍ ستعرف المزيد من التفاصيل عن هذا الأمر حين تستمع إلى المحاضرة التي سألقاها بالمؤتمر القادم.

وبعد تناولهم العشاء عاد “بهاء” لاستكمال عمله، بينما طلب “مراد” من “رفيق” الصعود إلى غرفته لينام بعدما رآه يُغالب النوم بصعوبة، بينما سيبقى هو بمكتبه لحل أسئلة المسابقة وسيلبي النداء بدلاً عنه.

كان باله لا يزال منشغلاً بحل اللغز الذي حَيَّرَه؛ فقد دأب على مراقبة صديقه طوال تحركهما معاً ليعلم مَنْ تلك التي سيؤثرها بمعاملة خاصة أو تلك التي سيغمرها بنظراته فلم يَهْتَدِ لشيء، وقد راودته نفسه أن يسأل أياً من أصدقائه الجدد عنها، لكنه أبى إلا أن يكتشفها بنفسه، فقد أعاده “رفيق” إلى أيامهما الخوالي حين كانا يتبادلان الأحاجي والألغاز، لكن ماذا يفعل والمهلة قد أوشكت على الانتهاء؟

17 - منارة الحائرين

وبعد تسليمه العمل إلى “شهاب” صباح اليوم التالي توجه لغرفته كي يعطي جسده قسطاً من الراحة بعد ذلك اليوم الحافل بالعلم والعمل والأصدقاء.

وهناك رأى “بهاء” يجلس منكباً على الكتب فقال له مُداعباً:- ما كل هذا النشاط! هل استيقظت مبكراً هكذا لتحل المسابقة؟!

قال “بهاء” وهو يمسح وجهه بيديه:- بل لم أنم منذ الأمس.

قال “مراد” وقد شعر بالإشفاق عليه:- لكنني لم أطلب منك أن تُجهَدَ نفسك كل هذا الجهد؛ فلا زال لدينا مُتَسَعٌ من الوقت.

- لا يريد حصان السبق أن يُخَيَّبَ ظن فارسه فيه.

ازداد “مراد” إعجاباً بحماسته، وحين اطلع على ما أنجز من عمل رأى أنه لم يترك من أسئلة المسابقة سوى عشرة فقط.. كان خمس منها نفس الأسئلة التي أَجَلَ هو الإجابة عليها لما بعد مُراجعة موضوعاتها بالمراجع الطبية بالمكتبة، وبعد تشاور بينهما قررا ألا يستريحا حتى ينهيا هذا الأمر؛ فغداً هو الموعد النهائي لتسليم أجوبة المسابقة.

سأله “بهاء” أثناء توجيههما للمكتبة:- ألا زِلْتَ تريد البحث بين الكتب لاستخراج الأجوبة؟ إن أقصى أمانِي أن أصير مثلك لأودع الكتب.

- ستنظّل عالماً ما دُمْتَ متعلماً؛ فإن ظننت أنك حزت العلم فأنت الجاهل.

وانتحيا ركناً قصياً بالمكتبة بعدما أحضرا المراجع اللازمة وبدءا العمل فوراً.

وأثناء انهماكهما في عملهما رأى “مراد” صديقه يدخل المكتبة ليجلس إلى أمنيته فيطيل الجلوس.. وكان قادراً على رؤية “رفيق” من بين أرفف الكتب بينما لم يكن ممكناً للأخير رؤيته، ابتسم وقال محادثاً نفسه:- لا زال

“رفيق” يُحِبُّ أن يقطف من كل بستانٍ زهرة.. ماذا لو أتت محبوبته الآن فرأته جالساً إلى هذه الفتاة؟

رد عليه “بهاء” بعفوية:- وكيف تأتي إليه وهو جالس معها؟

سأله وقد تلاشت ابتسامته:- ماذا تعني؟

تردد “بهاء” قليلاً ثم قال:- ألسنت تعني السيدة “فاتن” أمينة المكتبة، مخطوبة الدكتور “رفيق”؟!

عاد يسأل وقد زادته إجابة “بهاء” اندهاشاً بدلاً من أن تُخَلِّصَه من حيرته:- السيدة “فاتن”؟!

قال “بهاء” وقد فارقه تردده:- أجل، السيدة “فاتن” أمينة المكتبة؛ فلا حديث للمستشفى إلا عن قصة حبهما الملتهبة والتي بدأت أول حضوره إلى هنا، فقد خطبها قبل مضي عام على وفاة زوجها السابق.

أَيَعْلُ أن يكون هذا صحيحاً؟! سائل نفسه.. هل يمكن أن تكون هذه محبوبة رفيقه؟ وبدأت الخيوط تتجمع في ذهنه.. ولم لا؟ ورننت في أذنه كلمة “رفيق”:- “لقد رأيته اليوم وحادتتها”، وكانت هي إحدى من حادثهن ذاك اليوم، بل إن هذا أنسب تفسير لتغير موقف “رفيق” تجاه المكتبة، ورويداً رويداً بدأ يُصَدِّق الحقيقة.. لكن ما أوسع الفارق بينها وبين تلك التي ظنها سلبت لب صديقه.

وأدرك حينئذٍ صدق المقولة المعلقة أعلى باب المكتبة (منارة الهدى للحائرين)؛ فما هي المكتبة تجيب على كل أسئلته المُحيرة بوضوح.

وَتَعَمَّدَ ألا يُغادر المكتبة قبل أن يُغادرها صديقه.

18- العلاج باللعب

وتتبع رفيقه بعد خروجه من المكتبة مع حرصه على أن يظل متباعداً عنه بمسافة كبيرة حتى لا يلحظه، فقد قَرَّرَ مواجهته بما علم، لكنه أراد تخير المكان المناسب، إذ كان يشعر أن حواراً ساخناً - على غرار تلك الأحاديث التي كثيراً ما دارت بينهما - على وشك البدء.

رأه يتجه لمبنى علاج الأطفال ويغيب داخله.. انتظر خروجه فلم يفعل، اقترب من المبنى في خطواتٍ حثيثة، وفتح الباب بهدوء فرآه جالساً مع مجموعة من الأطفال على الأرض وسط مجموعة كبيرة ومتنوعة من الألعاب، ولم يُمَيِّزْه من بينهم إلا بحجمه، فهو قد استبدل بملابسه الرسمية ملابس قريبة جداً من ملابس الأطفال، وأدرك حينئذ أن جلسة للعلاج باللعب قد بدأت.

ظل واقفاً يتابع الموقف ولم يشأ أن يُقاطع الجلسة، رأى "رفيق" يتناول مواد اللعب والأطفال يتحلّقون من حوله، وكان حريصاً على أن يظل محايداً طوال الوقت وأن يكون لهم بالضبط كما يريدون له أن يكون، كان يُشعر كلاً منهم أنه فرد له كيانه، يتمتع بكافة الحقوق، يقول أي شيء يريده ويفعل ما يحلو له، فكلّ منهم مقبولٌ تماماً، لم يقم أبداً بدور الواعظ أو المرشد مكتفياً بتشجيعهم بطريقة غير مباشرة حتى يبدأوا هم في تناول مواد اللعب، وكلما ظهر نشاط منحرف من أحدهم حاول تعديله، كما كان يُسارع بتشجيع نواحي النشاط الموجب فور أدائها من أي منهم.

وبعد انتهاء الجلسة لمح "مراد" واقفاً بالباب فدعا مجموعة اللعب لتناول الطعام معاً واستأذن منهم ليرى صديقه.

قال له "مراد":- لا زال الطفل يحيا بداخلك.

- أجل؛ فقد رفضت أن أقتله.

ونظر نحو الأطفال الذين بدأوا يناقشون بعضهم البعض وازداد التعاون والتفاعل فيما بينهم ثم أكمل قائلاً:- إنه علاجٌ فعالٌ جداً مع الأطفال المحتاجين لخبراتٍ جماعية بَنَاءة، ومع أولئك الذين يعانون الرفض في أي من الأسرة أو المدرسة أو المُجتمَع؛ فالنشاط هنا يَحُل مَحَل الكلام ولكل طفلٍ نوعٌ مُعَيَّن من اللعب يُوجَّه إليه حسب حالته.

وحين لاحظ انتباه "مراد" الشديد إليه واصل وقد شعر أنه لأول مرة في حياته يتفوق على صديقه في شيء:- ولأني عاشق لكل ما يتعلق بالأطفال كما تعلم، فقد تلقيت تدريباً على العلاج الأسري أيضاً، بعدما أدركت بنفسي صدق الفرضية القائلة أن الطفل المريض نفسياً هو غالباً مرآة تعكس مرض الأسرة أو أحد أفرادها، ولقد ساعدني العمل بهذا النوع من العلاج على اكتشاف الكثير، فالأسرة عادة ما تدفع بأحد أفرادها على أنه هو المريض، لكني بعد المزيد من الفحص والتدقيق أجد أن معظم أفراد الأسرة التي دفعت بمثل هذا الشخص يعانون من اضطرابات مُختلفة متفاوتة في درجتها.

وعادة ما أبدأ هذا النوع من العلاج فور تأكدي من عدم وجود موانع له كالإجرام أو حالات الخيانة الزوجية.

والأسر أثناء جلسات العلاج أما أن تقف وراء واجهة مُصطنعة أو تبدو سافرة الاضطراب، بل إن بعضها يكون على حافة الإنهيار، وكثيراً ما أجد نفسي - حين أحاول دراسة تاريخ الأسرة وصولاً إلى تشخيص صحيح - أمام سلسلة من الدفاع والهجوم واللوم والإنكار والتبرير،

فأحاول بلورة هذه الجوانب لأضعها في إطارها الصحيح لأسير متعاوناً مع الأسرة نحو التوصل لحلولٍ صحيحة للمشكلات مُركّزاً على ملاحظة العلاقات الأسرية قبل دخولهم إلى حجرة الاجتماع، مَنْ يجلس بجوار مَنْ، مَنْ ينظر بعيداً عن مَنْ، مَنْ يتكلم ومن يسمع، مَنْ يبتسم ومَنْ يظلُّ مُتَجَهِّماً، وأتاحتشّى طَرَقَ الأسرار والأمور الخاصة كالمشكلات الجنسية في حضور أعضاء الأسرة مُجتمعين.

أما أطرف ما في هذه الجلسات أن ما يُخفيه أحد الوالدين قد يكشفه الآخر، وما قد يُخفيه الوالدان قد يفضحه أحد الأطفال، وحين يصف أحد الأطراف خبرته مع الأطراف الأخرى بطريقة خاطئة أو مُبالغ فيها يُصحّح الآخرون له ذلك.

وصمت بُرهة ليرى رد فعل صديقه، فسأله "مراد" الذي بدا وكأن ذهنه قد توقف عند بدايات الحديث.. وبالتحديد عند كلمة "الخيانة الزوجية":-
أيمكن حقاً لامرأة أن تخون زوجها؟

ضحك "رفيق" ضحكة طفولية ثم قال له:- لو كنت تُطالع الصُّحف لعلمت كم الجرائم التي تُرتكب بسبب ذلك.

- هل يمكن لامرأة مُتَزَوِّجة من رجلٍ أن تُلقي بنفسها في أحضان رجل آخر؟ لِمَ؟ ما الذي يدفعها لذلك؟

أجابه "رفيق" وقد تحولت تبرة صوته إلى الجدية الشديدة:- هناك العديد من الأسباب، لكنني أرى أن من الأزواج أزواجاً يستحقون الخيانة.

19 - وإلى الحب نحن في حاجة

انتظر "مراد" حتى فرغ "رفيق" من عمله وخلا المكان من زواره ليقول لصديقه:- لقد توصلت لحل اللغز.

- حقاً؟! وما رأيك فيها؟ سأل "رفيق" الذي بدا كأنه يعلم السبب الحقيقي لزيارة صديقه له.

تبسم "مراد" سُخرية وقال:- لا هي بالتي أخبرتني ولا بالتي توقعت.

- أتعني أنها ليست جميلة؟

- ألم تقل أنها أجمل نساء الأرض قاطبة؟!

- هكذا أراها، ولا يلزم أن تراها كذلك.

- أأجهد نفسي بحثاً عن أروع طبيبات المستشفى ثم تفاجئني أنك تحب هذه؟

- لم أقل أنها طبيبة!

- إذأ فلا بد أنها تنتمي إلى إحدى العائلات العريقة؛ فأنا أعلم مدى طموحك.

- ولا حتى هذه؛ فهي ابنة أسرة بالكاد يكتفيها دخل عائلها قوت يومها.

- فلم كنت واثقاً من سرعة اكتشافي لها إذأ؟

- لأنني أقضي أغلب أوقات فراغي جالساً معها بالمكتبة، وأنت بطبعك دائم الزيارة للمكتبة؛ فلم يكن بُد من أن ترانا، وهو ما حدث فعلاً.

أدرك "مراد" أن صديقه كان يعلم بوجوده بالمكتبة، واستنتج أنه إما أن رآه وتجاهله متعمداً، أو أن خطيبته قد أخبرته.

عاد يسأله ولهجته تزداد حدة:- وهل حق ما علمت من أمرها؟

سأله "رفيق" بنفاد صبر:- وما ذاك الذي علمت من أمرها؟

قال "مراد" الذي بدا وكأنه على وشك الانفجار:- أهى حقاً أرملة؟!

أجابه "رفيق" ببراءة الأطفال:- أجل؛ فقد تُوفي زوجها قبل التقائنا إثر حادثٍ أليم.

- وكيف ارتضيت ذلك؟

- عجباً، ما الذي ارتضيته؟

- أي خطب دهاك يا "رفيق"؟ كيف طاق قلبك أن تهوى امرأة امتلكها رجلٌ قبلك؟

- بل أي خطبٍ دهاك أنت؟ إنها كانت متزوجة.. متزوجة.. لم تكن رفيقة رجلٍ ولا عشيقته!

- إنك لا تعلم حتى إن كانت نسيته أم لا.

- بفرض صحة هذا، ألا يُعدّ دليلاً على وفائها؟ كيف يسهل عليها نسيان رجل لم يُسء إليها يوماً واحداً على مدى عامين عاشتهما معه؟

وفقد "مراد" صوابه تماماً فصاح بأعلى صوته:- ماذا أصابك؟ ما الذي عَيَّبَ عقلك حتى تتنازل طوعاً عن عرشك على قلوب النساء لتهوى امرأة مثل هذه.. متوسطة الجمال.. متوسطة التعليم وفوق كل ذلك أرملة؟!!

قال "رفيق" الذي لم يَنخَلْ عن هدوئه بعد:- مُدَّ رَأْها قلبي توجَّهًا مليكة على عرشه فلم يعبأ بصوت عقلي الذي قال مثلما تقول، لقد أنستني كُلٌّ من عرفتُ قبلها حتى أدركتُ أنني ما ذقت طعم الحب قبل أن أراها.

وأخيراً عاد إلى "مراد" بعض من هدوئه، وقال لصديقه بحنان:- لهذا لا أحب الحب يا "رفيق"، أرأيت ما فعل بك؟ أرأيت كيف دَمَّرَكَ؟ ها هو ينزل بك من عليائك حين كنت قمة لا ترضى إلا بالقمة.. فَحَبَّبَ إليك القاع وساكنيه، وها هو يضيِّع عليك امتحاناتك لثلاثِ مراتٍ متتاليات.

- أجمل بتدمير الحُب.. يا له من تدمير.. وددت لو دَمَّرَنِي ألفَ مرةً مثلما فعل.

- أما كان الأجدرُّ به أن يدفعك لمجاهدة نفسك حتى ترتبط بها؟

- إني لم أدخر جهداً في ذلك؟

- ثم تتفق ما جمعت من مال على الخروج للتنزه معها وإحضار أروع الهدايا في كل مناسبة لتبرهن لها على قوة حبك وصدق إخلاصك، أما كان الأفضل أن تولي اهتمامك لدرجتك العلمية وبعدها كان المال الوفير سيواتيك فيمكنك من الارتباط بها؟

- وما أدراك أنني لم أفعل؟ لكنني كنت كلما فتحت صفحة من كتاب برزت لي صورتها، وكلما حاولت ترديد ما حفظتُ وجدنتي أردد كلماتها، فلم

أجد بدأً من اتخاذ قرار وإلا ضاعت علي فرصة الارتباط بها، لا سيما بعد تقدم العديد من الشبان لخطبتها.

عاد الزمام يفلت من “مراد” مُجدداً ليصيح في وجه صديقه:- وهل عقت أرحام الأمهات يا “رفيق”؟ حينئذ كنت ستجد الآلاف ممن يفقنها جمالاً ومكانة وكنت ستختار من تشاء منهن لتحيا معها الحياة الرغدة الهائلة؟

أجابه “رفيق” مُجاهداً الحفاظ على وتيرته الهادئة:- وما جدوى كل أموال الدنيا إن لم تحي مع التي اختارها قلبك؟ أي لذة ستجنيها إن لم يسعد قلبك بقرب من عشقها حتى أسرتة ومنعك النوم طول انشغالك بها، فإذا ما غلبك النوم غزا طيفها أحلامك لتحيا معها في الحلم ما لم تستطع إليه في الواقع سبيلاً؟ لكن لا عجب؛ فلا زالت آراؤك نظرية لا صقلتها تجربة ولا كستها خبرة.

- الخبرة.. يا للأسم المُهذَّب الذي نُطلقه على أخطائنا.

- إن كان حبها خطأ فأتمنى لك أن تقع في خطأ مثله.

- احتفظ بأمانيك هذه لنفسك، فأنا إن ارتضيتُ فتاة فلا أقل من أن تكون رائعة الجمال.. واسعة الثقافة.. عالية التعليم.. ذات أصلٍ كريم، أما الذي لا أقبل فيه جداً فهو ألا يكون قد خطر على قلبها رجل قبلي.

- وماذا عن الحب؟ ألا تؤد الارتباط بفتاة يربط قلبيكما الحبُّ برباطه؟

- أنا؟ أنخدع بهذه الأوهام؟

ابتسم “رفيق” ساخراً وسأله:- ألا تلاحظ أنك لم تجدها بعد؟

قال “مراد” وقد انخفض صوته قليلاً:- كل من رأيتهن لم تنطبق عليهن جميعُ شروطي.

- أبشرك أنك لن تجدها ولو طففت الأرض من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عنها؛ فأميرة حسنك هذه لا تحيا إلا في مخيلتك.

ازداد “رفيق” ثقة من أن الزمن لم يغير صديقه؛ فها هو لا يزال باحثاً عن المثال في كل شيء، أجهد نفسه بحثاً عنه في علمه وفي صداقاته، وها هو يجهدُها بحثاً عنه بين النساء، أما هو فكان مُوقناً أن الناس لا يمكنهم أن يكونوا جميعاً مثاليين، بل إن الحياة نفسها لن تستقيم لو صارت مثالية، إذ كيف كانت الحياة ستبدو لو اختفى من الناس ما هم عليه من طمع وأناية وحب للذات والملذات؟ كيف ستوجد أعمال البر لولا الثروات الطائلة؟ ومن سيبني القصور إن اختفى من القلوب حب الحياة؟ لكن جزءاً من عقله كان يلتمس العذر لصديقه؛ فهو يعلم أنه لم يخض معترك الحياة ليزوق مع الناس آلامهم وآمالهم مكتفياً بمشاهدتهم عن بعد، وهو ما جعله يقول له بحنو شديد:- إنك إن ظللت تبحث عن أميرة أحلامك هذه فسينقضي عمرك قبل أن تجدها، أما إن ارتضيت التنازل عن شرط أو شرطين من شروطك المجحفة هذه فستجد في هذا المكان حتماً بغيتك.

لم يكن “مراد” ليأبه بمثل هذه الكلمات، فهو لا زال على إيمانه بأن التنازل البسيط تتبعه حتماً تنازلات جسيمة، كما أنه لا يُصنف شروطه إلى شروطٍ قابلة للتنازل وأخرى لا يمكن التنازل عنها.

سأل صديقه ساخراً:- ولم لم تختَر إحداهن أن كنت تراهن حقاً كذلك؟

- لأنني لستُ باحثاً عن المثالِ مثلك.. لقد أجبتُ نداء قلبي.

خَيَّمَ الصمتُ عليهما بُرْهةً حتى عاد “رفيق” يقول بهدوء:- أتَعلم؟ إن المرأةَ إنْ صارت مثاليةً لم تعد امرأةً، فمن أهم أسرار المرأةِ وجزء لا يتجزأ من جمالها جنونها وطيشها واندفاعها وتهورها وغلبة عواطفها على عقلها.. إن المرأةَ تفكر بقلبها فإنْ أشركت عقلها في التفكير ضاع نصف جمالها أما إنْ أفردت عقلها به ضاع جمالها كله.

أجابه “مراد” الذي نجح في استعادة هويته مُجَدِّداً:- دعك من جدالنا العقيم هذا؛ فكلانا يعلم مُسَبِّقاً أن أياً منا لن ينحاز إلى رأي الآخر كعادتنا دوماً.. فقط أريدك أن تُخبرني.. هل تستطيع تعريف الحب؟

صمت “رفيق” مُحاولاً استجماع شتات أفكاره وأخيراً قال:- لا أستطيع إعطائك تعريفاً مُحدداً للحب وإلا ظلمته؛ فهو شيء أكبر من أن يُصاغ في كلمات.. إنه.. إنه أشبه شيء بالماء.. أجل.. الماء.. شيء لا لون له ولا طعم ولا رائحة.. ورغم ذلك فإنك إن ظمأت يوماً فلن يروي ظمأك أو يطفئ غلتك إلاه.

قال “مراد” مُتهكماً:- بل إن حديثك هو الذي لا يروي ظمأ ولا يُطفئ غُلةً.

- تلزمك التجربة لتؤمن بالحب، فهكذا هو.. إن لم تغرق فيه لأذنيك فلن تؤمن به.. إن هذه التي تلومني على حبها قد عشتُ معها عاما من الحب ما كنت لأرضى باستبداله بقرن من العمل للصحة وزيراً.

- تباً لهذا الحب الذي يحولُ بين المرء وطموحه.

20- مريضة الحب

كان اليوم التالي نوبة عمل "ناهد" وكان "بهاء" يشاركها العمل استجابةً لنصيحة "مراد" بضرورة بقائه بغرفة الطوارئ ليتعلم كيفية تقييم الحالات ونوعية الأسئلة التي تُوجّه للمريض والأهل.

وفي المساء أتت إليهما شابة مُراهقة بصحبة أخيها ووالدها وأختها، واستدعت "ناهد" على الفور "مراد" لمناظرة الحالة.

وخلال دقائق من استدعائه أتى إليها لتخبره بالقصة في عُجالة، فهذه الفتاة أخبرت أختها أنها ابتلعت العديد من الأقراص المُنومة، فأخذها أهلها على الفور إلى مركز علاج السموم حيث أجري لها غسيل للمعدة، ولحسن الحظ لم يكن بمعدتها أكثر من ثلاثة أقراص، وبعد التيقن من زوال الخطر نصحهم الطبيب بالحضور إلى هنا.

طلب "مراد" من أقاربها الانتظار بالخارج مُستبقياً أختها، ولم تُجب المريضة على أسئلته بغير البكاء.. وأثناء فحصه لها - ليتيقن من خلوها من أي مرض عضوي - لفت انتباهه أحد حروف الأبجدية مرسوماً على يدها.

صارحته أختها بحقيقة الأمر؛ فقد حزنت لهجر فتاها لها دون سابق إنذار أو حتى تفسير لهجره إياها، وكانا يُحبان بعضهما البعض حباً جُنونياً، أما عن الحرف المرسوم على يدها فقد أخبرته أنه أول حرف من اسمه، إذ رسم كُلُّ منهما أول حرف من اسم الآخر على يده بعدما تعاهدا ألا يفرقهما سوى الموت.

عاد يحدث المريضة قائلاً:- دعك من حديث الخرافة هذا يا فتاتي؛
فليس في الدنيا إنسان جديرٌ بأن يقتل المرء نفسه حزناً على فراقه.

ووصف لها بعض الأدوية طالباً من أختها الإشراف على إعطائها لها
في مواعيدها بانتظام مع إحكام المراقبة عليها طوال اليوم لئلا تكرر ما
فعلت، مع إبعاد جميع الأدوية عن متناول يدها، على أن تزور العيادات
الخارجية باكراً.

سأله “بهاء” بعد خلو غرفة الطوارئ:- ألم يكن الأفضل حجزها
بالمستشفى؟

- لا أرى داعياً لهذا؛ فعلاجها يمكن أن يتم بالمنزل شريطة توافر
الإشراف التام.

- لا أظن علاجها سيُجدي نفعاً ما لم نبعدها عن الأماكن التي تُذكرها به.

- لو أنك حجزت كل فتاة تعاني آثار صدمة عاطفية لما كفتك عشر
مستشفيات مثل مستشفاك هذا.

- وماذا عن محاولة الانتحار؟

- إنها ليست محاولة حقيقية؛ فقد أخبرت أختها بعد تناولها الحبوب، كما
أنه لم يُوجد في معدتها أكثر من ثلاثة أقراص.

- وما كان سبب إخراجك أهلها جميعاً عدا أختها؟!!

- إن إبعاد أهل المريض عنه أثناء فحصه يحمل العديد من الفوائد؛ فربما
كان هؤلاء الذين يتظاهرون بالقلق عليه سبب اضطرابه الحقيقي، كما أن
المريض قد يتظاهر أمامهم بالمرض إما جلباً لودهم أو دفعاً لأذاهم، ناهيك

عن أنهم قد يضللونك بإعطائك معلومات تخالف الحقيقة لذا أكتفي بأرجى من أراه اطلاعاً على الأمر كصديقٍ مقربٍ للمريض أو قريبٍ في مثل عمره.

حاول “بهاء” منع نفسه لكنه لم يستطع فسأله باندفاع:- ما رأيك في الحب يا صديقي؟

أثار السؤال انتباه “مراد” الذي أدرك الدافع وراءه فأجابه بهدوء:- الحب حاجة أساسية في مرحلة من مراحل النمو حتى يستمر نمو الشخصية في مسارها الطبيعي و.....

قاطععه “بهاء”:- لا أريد حديث الكتب الجاف ونظريات علم النفس.. إنما سألتك عن رأيك الشخصي.. ألا تؤمن بالحب؟

ابتسم له “مراد” وطلب إعفاءه من الإجابة على هذا السؤال فلم يقبل؛ فما كان له أن يُضَيِّعَ على نفسه هذه الفرصة أياً كان الثمن، فأجابه “مراد” حين رأى إصراره على معرفة رأيه:- أما وقد سألتني عن رأيي فأنا أؤمن أنه ليس أكثر من فكرة ابتكرها الشعراء والمطربون ليجنوا ثرواتهم الطائلة عن طريق استلاب أموال الشباب المُعَرِّر به اللاهث خلف خداع الكلمات وزيف المعاني.. ما أشبهه بالسراب الذي يتراءى للمسافر في الصحراء، فإذا ما صدقه وظل يطارده تاه في صحرائه فيمسي لا هو بالواصل إلى هدفه ولا هو بالعائد عن تلك الصحراء الموحشة إلى أهله.

سألته “ناهد” التي كانت تتابع الحديث باهتمام:- إذا فأنت تنكر وجوده!

- ربما كان هناك إعجاب.. ود.. ألفه.. أما الحب الذي يتغنى به الشعراء.. ذاك الذي يسهر الليالي ويصد عن الطعام والشراب فلا أؤمن بوجوده.

عاد “بهاء” يقول ودهشته لم تفارقه:- أتعني أنك لم تقع فيه للآن؟

- بل وقعت في الحب.. حب عملي الذي طالما حلمتُ به حتى عشته واقعاً، فما أجمل أن يصير حلم الأمس واقع اليوم، وسهرت الليالي متفكراً لا في الأحباب ولكن في نظريات علم النفس لحل تناقضاتها ومشكلاتها.

تحركت شفتنا “بهاء” لكنه سارع بالابتسام ليخفي آثار حركة شفثيه فأجابه “مراد” عما منعه الحياء من قوله:- كلا، لست ضحية تجربة عاطفية فاشلة.. كما أنني لا أعاني أية عقدة نفسية، فما صرفتُ همي منذ نشأتني إلا لتحصيل العلم.

صمت هنيهة ثم واصل قائلاً:- لقد كانت رسالتي للماجستير تحت عنوان “وهم اسمه الحب”.

قالت “ناهد” متضحكة:- هذا اسم يصلح لفيلم سينمائي أكثر منه لرسالة ماجستير.

أكمل متجاهلاً تعليقها:- لقد أثبتُ في دراستي هذه مدى سخافة ما يُسمَّى بالحب مستدلاً على ذلك بالعديد من الأمور والتي أهمها نسب الفشل الكبيرة للزواج المترتب عليه.

ثم قال بلهجة شديدة الجدية:- إن الحب لا يعني لي سوى الضعف، ولم أعتد أن أكون ضعيفاً ولا أَرْضَى أن أكون يوماً كذلك.

21- هل يستحق عطفك؟

وأثناء تواجد الأصدقاء الثلاثة الليلة التالية بغرفة الطوارئ دخل عليهم رجلٌ يطوق رأسه بذراعيه وكأنه يخشى انفجارها وقال لهم:- أرجوكم أن تساعدوني على التخلص مما أنا فيه.

وتعرفته ممرضة الطوارئ على الفور؛ فهو زائرٌ متكررٌ على غرفة الطوارئ، يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، وإن بدا أسوأ من ذلك بكثير، وهو مدمن للعديد من المواد المخدرة، وحُجِرَ بالمستشفى العديد من المرات للعلاج من الإدمان، لكنه سرعان ما يعود إلى ما يدمنه بعد خروجه بقليل.

أدرك "مراد" أن الرجل يعاني الآن إحدى أعراض سحب المورفين، وهي الأعراض التي يُصابُ بها المدمن حين يتوقف عن تعاطي مواد إدمانه، والتي تختلف حسب نوع المادة وكثافة ومدة التعاطي، وتيقن من ذلك حين أخبره الرجل أن آخر جرعة مورفين تلقاها كانت البارحة.

ورجاهم المريض أن يحجزوه بالمستشفى لمساعدته على عدم عودته للإدمان من جديد، وحين رأى "رفيق" أن "مراد" بدأ يعامل المريض بفتور، شرع في إجراءات حجز المريض وذلك بعد الاستئذان الشكلي من "مراد" بوصفه اختصاصي اليوم، وطلب من ممرضة الطوارئ اعطائه نوعين مختلفين من مسكنات الألم لكن "مراد" طلب منه الاكتفاء بنوع واحد فقط واعطاء النوع الثاني فقط إذا دعت الضرورة.

شعر “رفيق” أن صداماً جديداً على وشك الوقوع بينه وبين “مراد” فانتظر خلو غرفة الطوارئ ليقول له:- هذه أول مرة أراك فيها تعامل مريضك بقسوة هكذا.. أين عطفك الذي عودتنا عليه؟

- إنني لا أبذل عطفِي إلا لمن يستحقه.

- إنه أحق المرضى بالعطف والحنان.

- كلا يا “رفيق”، إنه ليس مريضاً، إنه يشغل سرير المستشفى ظلماً وعدواناً بينما هناك الكثير ممن هم أحق به منه، ولو كان الأمر بيدي لأودعته السجن بدل المستشفى.

- بل هو مريض.. مريض يعاني الاعتماد على مادة أحدثت له لذة مؤقتة جعلته يجري خلفها غير عابئ إلا بذلك الخدر الشديد الذي يدغدغ أعضائه كلما تناولها.

دقق “مراد” النظر فيه وكأنه يراه لأول مرة ثم قال:- ويحك يا “رفيق”.. إنك تتحدث حديث المُجرب.

أجابه وهو يشيح بوجهه بعيداً:- أجل، جربت ذلك أيام طيشي وتهوري، هناك من المواقف ما قد يُجبر المرء على فعل ما لا يرضاه، لقد انخرطتُ ذات مرة في إحدى تلك الجلسات، وكان عليّ إما أن أجاري الجمع أو أن أمتنع فأصير أضحوكة المجلس، فجربت حينئذٍ التأثير السحري لتلك المواد، ولولا تراجعِي بعدها مُقسِماً على عدم العودة لذلك مُجدداً لكنت الآن نزيل هذا المشفى أو ربما نزيل أحد السجون لو كنتُ صادفتُ متحمساً مثلك.

- أما لو كنت مكانك لقلبت المنضدة على رؤوس الجالسين ولغادرت الجلسة فوراً أياً كان ما سيقال عني.

كان "رفيق" يعلم أنه ما كان لصديقه الذي ظل مؤمناً أن الاعتياد أول طريق الإدمان أن يتبنى وجهة نظره؛ فالإحساس بمشاعر الآخرين يقتضي وضع المرء نفسه مكان الآخرين ليشعر بما يشعرون به، و"مراد" ظل حريصاً على ألا يسمح لشيء أن يحكم سيطرته عليه أو يتحكم فيه، فلا زال "رفيق" يذكر جيداً مقاطعة صديقه للمشروبات المنبهة أحوج ما كان إليها - أيام اختباراته - فور أن أدرك أن اعتماده عليها آخذ في التزايد، بل بلغ به الأمر أنه هجر نظارته الطبية فترة حين شعر أنه ما عاد قادراً على الاستغناء عنها، وهو ما جعل "رفيق" يقول بلهجة أقل تحدياً:- إننا جميعاً مدمنون يا "مراد".. بل أنت نفسك مدمن.. لا تنظر إليّ هكذا، أجل، أنت مدمن.. مدمنٌ للعمل الذي لم تعد قادراً على الاستغناء عنه، وللكتاب الذي لا يفارق يدك والمذياع الذي لا تنفك تسمعه ليل نهار، كل الفرق بينك وبينه أنك أدمنت نافعاً يعود عليك وعلى مجتمعك بالصالح أما هو فأدمن ما يضر جسده وعقله قبلما يضر بمجتمعه.

سأله "مراد" بتهكم:- وهل تعد اعتياد النافعات إدماناً؟

- بلا شك، فما من أحد يعتاد شيئاً إلا واعتقد في البدء أنه نافعٌ له، وإلا لما جربه.

ابتسم "مراد" سُخْريَّةً وقال:- أظننه بعد بذلك قصارى جهدك معه سيقلع عن إدمانه؟ كلا، سيعود إلى ذات الطريق مرات ومرات، بل ربما ذهب لشراء تلك السموم فور خروجه من هنا.. أتعلم كم مدمناً رأيت في حياتي سلك طريق الإدمان ثم تراجع عنه؟

لم يجبه “رفيق” فأجاب نفسه:- لا أحد.

22 - يوم المؤتمر

بدأ المشاركون بالمؤتمر يتوافدون منذ ساعات الصباح الأولى على الجزيرة التي بدت وكأنها تهيأت بصورة أكثر من ممتازة لهذا اليوم الحافل بالمحاضرات والنقاشات وورش العمل، وقد شارك جميع العاملين بالمستشفى في العمل كخلية نحل لا تهدأ.

وترأس الدكتور “مختار” المؤتمر الذي حضره نقيب الأطباء ووزير الصحة والعديد من الشخصيات العلمية والطبية البارزة، وبعد القاء كلمات الافتتاح بدأت الجلسات العلمية التي سارت متزامنة في ثلاث قاعات مع ترك الحرية للحضور لاختيار نوع الجلسات كل حسب اهتمامه وميوله.

وفور تركه المنصة توجه الدكتور “مختار” إلى زميلة دراسته الدكتورة “هالة المرشد” رئيسة قسم الطب النفسي بمستشفى “السنايل” الجامعي، المستشفى الذي أتى منه “مراد”، وبعد الترحيب الحار وتناول الإفطار معاً تطرق إلى الموضوع الذي أراد لقائها من أجله.. كان يريد معرفة المزيد عن الزائر الجديد، فرغم وصول جميع أخبار “مراد” إليه لحظة بلحظة منذ قدومه للمستشفى وحتى الآن إلا أنه أراد معرفة المزيد عنه من خلال شخص لصيق الصلة به، ولم يكن أفضل من “هالة” لتحقيق هذا الغرض، وقد أتى هذا المؤتمر في موعده المناسب تماماً ليمنحه هذه الفرصة.

كانت "هالة" قد قضت معه قرابة الساعة تحادثه على الهاتف عن "مراد" في الليلة السابقة لحضوره للمستشفى إلا أنه لم يعبأ بكثير مما قالت؛ فقد شعر أنها بالغت كثيراً - على عكس طبيعتها التي لا تميل للمبالغة - بشأن هذا القادم، فنعته بأوصاف كثيرة كعقري التحليل النفسي والمولود ليكون طبيباً نفسياً والغواص الماهر في أعماق النفس البشرية، دون مبرر واضح لذلك من وجهة نظر الدكتور "مختار" على الأقل.

أما الأمر الذي مثل له اهتماماً شخصياً فهو كيفية حصول "مراد" على وسام "الدولفين" ولما يبلغ الثلاثين عاماً بعد، فهو نفسه لم يحصل عليه إلا على مشارف الأربعين على ما عرف عنه من ذكاء ونبوغ.

وكان "مختار" قد حصل على وسام "الدولفين" قبل عشر سنوات على إثر اقتراحه بتخصيص إحدى الجزر لتكون مشفى نفسياً، وتقديمه بحثاً وافياً في هذا الأمر تضمن كل ما يتعلق بذلك، حتى أنه ذكر شروط الجزيرة الأكثر ملائمة لهذا الغرض من حيث خلوها من السكان واعتدال طقسها وخلوها من المرتفعات والوديان وبعدها عن الجزر الأخرى لتجنب هروب المرضى منها، بل إنه لم يفته تقدير الجدوى الاقتصادية لهذا الاقتراح، فأثبت في أبحاثه أن تكلفة تخصيص الجزيرة بكل منشآتها ومبانيها سيتوفر بعد عشرة أعوام من خضوع المرضى للعلاج المتكامل نتيجة توفير الهدر في الإنتاج الناتج عن إزمان المرضى وتعطيل الطاقة الإنتاجية.

وَوُجِّهَتْ فكرته بالعديد من الاعتراضات، كان أهمها أن الجزيرة بهذا الشكل خطر على المرضى لإمكان غرقهم إن هم حاولوا الهرب أو القضاء عليهم عن طريق تماسيح المحيط الذي يحيط بالجزيرة إحاطة السوار بالمعصم، فأثبت مُجدداً أن المخاطر التي سيتعرض لها المرضى

بالجزيرة لا تتعدى المخاطر التي يتعرض لها المرء بمنزله أو أثناء سيره بالطريق العام.

وكانت النتيجة أن منحه رئيس اليلاد وسام “الدولفين” في الطب نظراً لبحثه العلمي المتميز، كما عينه مديراً للمستشفى، وهو المنصب الذي لا زال يشغله للآن.

وسرت همسات تقول أن الفكرة أعجبت الرئيس لأنه رآها طريقة مناسبة للتخلص من خصومه السياسيين عن طريق حجزهم بالمستشفى - وذلك بالاتفاق مع مديرها بالطبع بعد ادعاء أي مرض نفسي لديهم - ثم إغراقهم بالمحيط أو قتلهم بالمستشفى بحيث يبدو الأمر مجرد حادث، ورغم مرور عشر سنوات على المستشفى منذ افتتاحه دون أن يشهد حجز سياسي واحد بها أو حتى إلصاق صفة المرض النفسي بأي منهم إلا أن هذه الهمسات لم تمت قط.

وحين صارح زميلته “هالة” بما يحيش ب صدره حول “مراد” سألتة:-
أتريد إقناعي أنك لم تلاحظ للآن نشاطه الجم بمستشفاك؟

وحين بدأ يقص عليها ما فعله “مراد” منذ حضوره عادت إلى حماستها في الحديث عنه، وهو ما جعله يحاول إغلاق باب النقاش في هدوء، فقالت له حين رأته غير مُصدِّقٍ لها:- سترى بنفسك.

23- حسبك كلمة

وفي قاعة المحاضرات الكبرى كان "مراد" و"بهاء" يُصغيان بانتباه إلى محاضر تميز بسلاسة الأسلوب والعرض الشيق للمعلومات مما جذب انتباه الجميع إليه طوال شرحة ثم تسبب في موجة من التصفيق الحاد فور إنهائه محاضرتة.

وحين بدأ المحاضر الثاني التحدث بدأ الحاضرون في التسرب من القاعة واحداً تلو الآخر إذ أتى أسلوبه مُناقضاً تماماً لإسلوب سابقه.. نظر "بهاء" إلى "مراد" ففهم أنه يقترح عليه الذهاب مثلهم فهمس له:- يكفيك أن تخرج من قراءة الكتاب بمعلومة واحدة ومن حضور المحاضرة بجملة واحدة.

وبعد انتهاء هذه المحاضرة توجه الجميع لتناول الغداء فانضم الصديقان إلى الدكتورين "مختار" و"هالة" على نفس مائدتهما وأخبرت "هالة" "مراد" أن مديره الجديد يشيد بجهوده بمستشفاه وبنشاطه الهائل خلال الفترة القليلة التي قضاها بها.

أجابها في خجل:- سيدتي.. إنني ما تجشمتُ عناء السفر وترك الأهل إلا من أجل هذا.

وبعد انتهاء الغداء وذهاب "مراد" و"بهاء" سألهما "مختار" عن سبب تعمدها أن تذكرَ أمام "مراد" أنه أثنى عليه فأجابته:- لأن أبغض الأشياء إلى قلبي تجاهله أو إنكار جهده.

أجابها وقد بدت عليه فرحة من وجد ما كان يبحث عنه بعد طول عناء:-
بل قلبي أنه يحب الثناء.

أجابته بحزم:- كلا، إنه يتفانى في إنكار ذاته ويعد الثناء نوعاً من النفاق،
لكنه لا يحب أن يشعر أن جهده غير مشكور.

ورأته يحدها بنظرة متشككة فاستطردت قائلة:- اعتبره عيبه إن أبيت
إلا اعتبار هذا عيباً.

سألها وهو يميل للأمام بطريقة بوليسية:- حسناً، وما هي عيوبه
الأخرى؟

- عيبه الخطير وسر مشكلاته الكبرى صراحته المطلقة، فهو برئ
كالطفل.. مشاعره لا تعرف تزيفاً ولا تزويراً.

ابتسم سخرية وسألها:- وهل تعدين الصراحة عيباً؟

أظنها تصبح كذلك حين لا يدرك صاحبها الحد الفاصل بين الشجاعة
والتهور، لقد اصطدم بي شخصياً حين طلبت منه التخفيف من قدر
صراحته ولو قليلاً.

سألها وهو لا زال يستجوبها بطريقته البوليسية :- وماذا أيضاً؟

- عيبه الأخير تشبته المستميت برأيه وسعيه لإثباته مهما كلفه الأمر.

انفجر ضاحكاً ثم قال:- إنما سألتك عن عيوبه لا عن مزاياه.

- ربما بدت لك كذلك في البداية كما بدت لي، لكنك ستدرك مدى خطورتها حين تبدأ في جر المشكلات عليه جالبة إليه العداوات من كل الجهات.

24- رسالة الدكتوراة

وفي ختام المؤتمر عاد الدكتور "مختار" إلى منصة الرئيس، واستأذن الحضور في منح عشرة دقائق للدكتور "مراد الشريف" يُعطي فيها نبذةً مُختصرة عن رسالته للدكتوراة والتي فاز بسببها بوسام "الدولفين"؛ إذ أن هذا لم يكن على جدول أعمال المؤتمر.

وألقي "مراد" كلمة موجزة أطلع فيها الحضور على موضوع الرسالة والتي دارت حول العلاقة بين الجريمة والمرض النفسي مثيرة العديد من النقاشات مثل: هل كل مجرم مريض نفسي بدرجة ما؟ وهل سيأتي يوم على العالم يلوم فيه من جازى مجرماً بالإعدام أو السجن عقاباً له على ما فعل؟ وهل سيأتي اليوم الذي يُودّع فيه المجرم المشفى النفسي بدلاً من وضعه في السجن ليقضي مدة عقوبته هناك؟ بل هل ستكون هناك عقوبة من الأصل؟ وتساءلت الدراسة من جهةٍ أخرى إلى أي مدى يحق لمن يزعمون أنهم أصحابٌ نفسياً استعمال سلطتهم في حبس حرية الآخرين بمجرد ادعائهم أن لديهم مرضاً نفسياً وحجزهم في أماكن ربما بدت أقرب للسجن منها إلى المشفى؟ ومن ذاك الذي يستطيع أن يُقسّم أن انساناً بعينه صحيح تماماً وأن غيره من الناس لديهم اختلال في الوظائف العقلية؟ ألم ير معظم الحاضرين الكثير من المجرمين نزلاء للمستشفيات النفسية وكذلك العديد من المرضى النفسيين نزلاء للسجون؟

وحين شعر بلهفة الحضور لمعرفة إجابة الدراسة على تلك الأسئلة قال:-
وفي حيثيات منح الجائزة قيل أنها لم تُمنح لأن الدراسة أعطت إجابات
شافية وافية على أسئلة مُعقّدة، فهي لم تفعل أكثر من فتح الباب واسعاً أمام
مزيد من البحث دون اعطاء إجابات نهائية أو قاطعة.. وإنما مُنحت
لإتساع نطاقها والعدد الهائل لمن شملتهم الدراسة وإنجازها في وقت
قياسي بالنسبة لنظائرها.

25- الازلة تكذبي؟

وبعد انتهاء كلمته وجّه الدكتور "مختار" الشكر لكل من ساهم في إنجاح
هذا المؤتمر من طاقم إعداد وحضور، ثم طلب من اللجنة المشرفة على
المسابقة إعلان النتائج.

وأخيراً حانت اللحظة التي طالما دق لها قلب "بهاء"، فكم تمنى أن يفوز
بإحدى الجوائز بعد المجهود الهائل الذي بذله للإجابة عنها، كما أنه يرى
فوزه بإحدى جوائز هذه المسابقة نصراً كبيراً له سيظل يفاخر به طيلة
حياته، لكن أنى له الفوز وسط هذا الحشد الهائل من الأطباء
المتخصصين؟

أما "مراد" الذي عاد للجلوس بجواره فلم يُعر الأمر اهتماماً، حتى أنه لم
يمنعه من مغادرة القاعة سوى المواضيع الإجتماعية؛ فليس هدف هذه
المسابقات - في رأيه - الفوز بجوائزها وإنما الهدف الأسمى دفع

المشاركين للقراءة وحثهم على تجديد معلوماتهم عن طريق الإطلاع الدؤوب.

خَيَّم الصمتُ على المكان لحظة إعلان أسماء الفائزين، وتحول الصمت إلى عاصفة مدوية من التصفيق فور إعلان اسم “مراد الشريف” كفائزً بالجائزة الأولى.. وحينئذ نظرت “هالة” إلى “مختار” نظرة مفادها: - ألا زلت تكذبني؟

وبعد هدوء التصفيق وتسلم “مراد” جائزته أكمل المتحدث قائلاً:- يبدو أن مستشفى “السلفاة” قد استحوذت على جوائز هذه المسابقة لهذا العام؛ فهي هو أحد أطباء تدريبها يفوز بالجائزة الثانية.. الدكتور “بهاء السيد”.

تعالَت همهمات الإعجاب ودارت الرؤوس باحثَةً عن ذلك الطبيب الذي تَفَوَّقَ على أخصائيي الطب النفسي وهو لا يزال في مرحلة تدريبه.

بدا “بهاء” غير مُصَدِّقٍ أول الأمر، فأقصى أمانيه كانت أن يفوز بالمركز العاشر، لكن أن يحصل على المركز الثاني فهذا ما فاق أحلامه.

وشعر بيد “مراد” تدفعه للوقوف، وبدأ في تلك اللحظة يعود للواقع فلاحظ الصمت المخيم على المكان، وفور أن انتصب واقفاً واجهته عاصفة جديدة من التصفيق.

وأدرك في تلك اللحظة السبب الحقيقي لامتناع “مراد” عن مُساعدته على حل المسابقة؛ فلو فعل لأتت إجاباته مُطابقةً تماماً لإجابات “مراد” ولحصل على نفس درجته، وحينئذ كان الأمر سيبدو جلياً أنه جَهِدُ “مراد” وليس جهده هو، ولما شعر بالفرحة الغامرة التي تهز كيانه الآن لحصوله على المركز الثاني؛ فلا شك أن فرحة المرء بقليل إنجازه خيرٌ من فرحته بكثير إنجاز الآخرين.. واضح أنه لا يكفي بتلقيه دروسَ الطب فقط

26- احتفالات التكریم

جرت العادة بمستشفى "السلفاة" منذ انشائها على إقامة مؤتمر أسبوعي يحفل بالنشاط العلمي وتبادل الخبرات، وقد أتى يوم المؤتمر الاسبوعي هذه المرة في اليوم التالي مباشرة لمؤتمر الجمعية الوطنية.

وأمام حشد الأطباء الذي تجمع بقاعة المؤتمرات الكبرى طلب الدكتور "مختار" الكلمة ليعتذر للجميع عن عدم إقامة مؤتمر المستشفى هذا الأسبوع نظراً لانشغال الجميع بالإعداد للمؤتمر.

وتطرق إلى الحديث عن "مراد" حيث تحدث باستفاضة عنه منذ أول لقاء لهما وحماسة مديرتة السابقة في الحديث عنه والإشادة به ثم عدد أوجه نشاطه منذ وصوله بدءاً من مروره على جميع أنحاء المستشفى مروراً بتبليته لأي نداء ولو كان لطبيب غيره فضلاً عن عمله بالطوارئ وهو غير مُلزم به، وصولاً لفوزه بالجائزة الأولى للمؤتمر - على ضيق الوقت المتاح له - وهي سابقة لم تحدث في تاريخ "السلفاة".

ثم تحدث عن "بهاء" وأوضح كيف دفعه تشككه في قدراته إلى منعه من الاشتراك في المؤتمر، وكيف أصر "مراد" على تركه يخوض التجربة وأنقاً من قدراته بل ومُراهناً عليه لتأتي النتيجة كما توقع "مراد" وعكس ما توقع هو شخصياً إذ تفوق على مَنْ عملوا لسنوات بهذا المجال.

ثم دعا الحضور لحفلٍ أقامه تكريماً للطبيين، ولم يفته تنبيه الجميع للتوجه لمواقع عملهم فور انتهاء الحفل.

كان أكثر ما أثار انتباه "مراد" في كلمة مديره إلمامه بتفاصيل ما حدث معه منذ حضوره، وأيقن أن الرجل لم يبق في منصبه طيلة هذه السنوات عبثاً، فأحدى أهم صفات الإداري الناجح أن يكون على دراية بكل ما يجري في أنحاء إدارته.

وأقبل الجميع على الطبيبين يهنئانها لكنهم توقفوا حين رأوا "ناهد" تطلب من الجميع الإصغاء لتعلن أنها تدعو الجميع إلى حفل غداء بنفس هذه القاعة احتفالاً بالزميلين الجديدين، وذلك بعد انتهاء وقت العمل.

ثم رأوها تتجه نحو "مراد" مهنته، فقال لها وهو يصافحها: - ما كان الأمر يستحق منك كل هذا.

لكنه فوجئ بها تتأوه ثم تسحب يدها بسرعة قائلة: - عفواً.. لم أجد إلا التصفيق وسيلة للتعبير عن إعجابي فألهبت كفى به.

وتناول يديها بين يديه فإذا بهما محمرتين كحمرتين.

تدخلت "ريم" صديقتها والتي كانت تتابع الموقف عن كثب، فاستأذنت منه لتنتحي بها ركناً قصياً وتلومها على ما فعلت، فقد رأتها تخرج عن حيائها المعتاد، نعم هي تشعر بما يعتمل بقلب صديقتها، لكن هذا لا يبيح لها أن تفعل ما فعلت أمام الجميع، وعلى أي حال فما الذي يُميزه عن العشرات الذين طلبوا ودها فرضتهم؟!!

أما هي فكانت تراه متميزاً جداً، وأهم ما يميزه - في رأيها - بساطته الشديدة.. بساطته في كل شيء.. في هندامه.. في حديثه.. في تعامله مع زملائه ومرضاه ومع الناس.. بساطته حتى في تناوله أعقد الحقائق العلمية.

27- من أنت؟

وأمام باب مكتبه رأى “مشيرة” تتحدث إلى مشرفة تمريض لم يرها من قبل، وكانت المشرفات يرتدين زياً مميزاً لهن، وفور أن رآته الأخيرة توقفت عن الحديث وأخذت تتفحصه بنظراتها وكأنها تريد التحقق من شيء ما، والتقت عيناه بعينيها فلم تتفارق العين إلا بعدما توقف أمامها مباشرة.

بدأت مرحلة ضحوكة، دارت من حوله في بهجة طفولية ثم قالت:- لم أصدق ان التلفاز يغير الشكل الى هذه الدرجة إلا الآن.. إنك تبدو أصغر بكثير مما كنت عليه في التلفاز.

سألها “بهاء”:- أيهما أحلى؟

تجاهلت السؤال وأكملت قائلة بلهجتها المرحّة:- لا زلت أذكر حين سألتك المذبة: هل يمكن ان تلخص لنا الطب النفسي في كلمة واحدة فقط؟

فتراجعت في مقعدك ثم تنهدت طويلاً وقلت:- إن هذا السؤال من أصعب الأسئلة لكن ان لم يكن من الإجابة بد فأسطيع القول انه يعني التوافق.. أجل إحداث توافق المريض مع نفسه وبيئته ومجمعه.

قال لها “مراد”:- تبدين أصغر بكثير من أن تكوني مشرفة.

تطوعت "مشيرة" بالإجابة قائلة:- إنها "جنة" زميلتي، لكن نظراً لتفوقها الدائم فقد عُيِّنت مشرفة علينا.

- لكنني لم أرها طيلة الأسبوع الماضي.

ردت "جنة" هذه المرة:- لأنني كنت في دورة تدريبية طيلة ذلك الأسبوع.

وصل "رفيق" إلى حيث يقف الجميع وسأل الفتاتين:- ألم تهنئانهما بعد؟
سألته "مشيرة":- علام؟

سأل "رفيق" صديقيه:- ألم تخبراهما؟

ثم قال موضحاً:- لقد فازا البارحة بالجائزتين الأولى والثانية بالمؤتمر لأول مرة في تاريخ مستشفىنا، وقد كرمهما المدير للتو.

قالت "جنة" متضحكة:- إذأ عليك أن تشاركنا احتفالك بالفوز.

حاول الكلام فلم يجد صوته فتنحى ثم قال:- إنني أدعوكم جميعاً لتناول ما تشتهون.

لكن "مشيرة" أصرت على تأجيل الدعوة إلى ما بعد انتهاء العمل.

وانضمت "جنة" إليهم أثناء المرور على المريضات، رغم أن هذا لم يكن ضمن مهام عملها، أما "رفيق" فقد حاول الاستئذان لكن "مراد" الذي كان يعلم وجهته جيداً وضح له أنه لا يمكنه المغادرة إلا بعد انتهاء العمل.

أثار انتباه "جنة" أسلوب "مراد" الفذ الجامع بين الحنان والاحترام لمرضاه فسألته فور أن استقر بمكتبه - بعد انتهاء المرور - عن سر ذلك

فأجابها قائلاً:- إن الإنسان حال مرضه يمسي في أمس الحاجة للعطف والحنان، يصدق هذا أخص ما يصدق على مرضانا.

- تعني لما يتمتع به المرض النفسي من سوء السمعة.

- تماماً فلا زال يُعدُّ في مجتمعنا - شأنه شأن العديد من المجتمعات - وصمة تدمغ صاحبها بالعار، وهذا بلا شك ظلم له؛ فهو أبسط بكثير من عدة داءات أخرى، فضلاً عن انخفاض تكلفة علاجه مقارنة بالكثير منها.. أتعلمين أنني لو كنت مُجبِراً على اختيار نوع من المرض ما اخترت إلا المرض النفسي؟!

- ربما تعود سمعته السيئة لكونه لا يتعلق بالمرضى وحده وإنما يتعداه إلى مجتمعه المحيط.

قال وقد أعجب بمستوى حديثها المرتفع:- وهل ينطبق هذا على المرض النفسي وحده؟ أليس للأوبئة والأمراض المعدية تأثيرٌ أسوأ؟

- لكنني شعرت حين كنت تحادث مرضاك كأنك تُحادث بعض أهلك.

- إن لم يكونوا أقاربي فهم شركائي في الإنسانية لا يُخرجهم عن ذلك كونهم مرضاي وأناي طبيبهم؛ فالطب ليس مجرد أدوية تُشرب أو حبوب تُبلع؛ وأفضل علاج يقدمه المُعالج لمرريضه هو شخصية المُعالج نفسه.

- لقد طفت خلال خمس سنوات عمل لي هنا على جميع أقسام المستشفى، فرأيت العديد من الأطباء وذهبت للدورات التدريبية فرأيت أكثر، لكنني لم أر طبيباً متخصصاً في هذا المجال يتحدث عنه بكل هذا الوله.. بل إنني شعرت كأن العديد منهم مُجبِرون على العمل به، وأنه لو أُتيحت لهم

الفرصة لاختيار سواه لما ترددوا، بل إن بعضهم صارحني بندمه على هذا الاختيار وتمنيه لو عاد به الزمان ليختار تخصصاً آخر.

ووجد نفسه يقص عليها كامل قصته مع طب النفس.. قال لها:- حين بدأت مطالعتي وجدت لدي انجذاباً خاصاً لعلم النفس؛ إذ رأيت فيه مجاًلاً واسعاً للحياة والبشر على اختلاف مذاهبهم ورؤاهم، كما رأيت فيه تفسيراً للكثير من سلوكيات البشر وتناقضاتهم، ثم بدأت أشعر أن هذا العلم هو المرادف لكلمة الحياة، وهو ما جعلني أبدأ مطالعتي بالقراءة لكبار كُتّابه.. ورغم أنني لم أفهم أغلب ما كنت أقرأ حينئذ، إلا أنني كنت أشعر بلذة عجيبة أثناء مُطالعتي له، تلك اللذة التي أنت نتيجة تعرفي على أنماط الشخصيات التي أحيا بينها وتفاعل معها وتوثر في، بل صرت بعد ذلك قادراً على تفسير أفعال الناس والدوافع الكامنة وراءها وهو ما أدى بي للتعلم في دراسة هذا المجال، فما التحقت بكلية الطب إلا عشقاً للطب النفسي ورغبة في التخصص فيه، وحين درسته ازداد إعجابي به، أولاً لأنه يتحاشى تقسيم الإنسان إلى أجزاء مُستقلة يتعامل مع كُلٍّ منها على حدة وإنما يتعامل مع الإنسان كياناً ووجوداً، وثانياً أنه يتعامل مع أغمض وأعقد ما في الإنسان.. نفسه، وحين اتخذت قراراً بالعمل طبيباً نفسياً واجهت مقاومة كبيرة من المحيطين بي والذين حاولوا تغيير وجهتي، لكنني ازددت تشبثاً به أثناء عام تدريبي حين رأيتُ أكثر المرضى لا يحتاجون طبيباً نفسياً قدر احتياجهم لمن يُصغي إليهم ويخفف عنهم الألام.

- يبدو أن "مشيرة" لم تبالغ في حديثها عنك.

- بم أخبرتك؟

- لم تُخبرني بأكثر مما رأيتُ بعيني.

وسيطر الشعور بالألفة الشديدة على كليهما وكأن كلاً منهما يعرف صاحبه من عشرات السنين.. قالت له:- عائلتي أنا أيضاً تسكن جزيرة بعيدة عن هنا.. كان والدي تاجراً جوالاً، وكان ثرياً، طاف بالبلاد من أقصاها إلى أقصاها فما استقر به المَقام إلا بالجزيرة المجاورة، جزيرة “النسرين”، رافضاً العودة إلى عائلتنا الكبيرة في مسقط رأسنا.

ابتسمت وأكملت:- رأييت لو كنت بقيت هناك لربما كنت الآن تزوجت وأنجبت!

- وهل تودين العودة لجزيرتك الأولى؟

- كلا؛ فقد رفضت خطبتي لابن عمي المقيم هناك لئلا أفارق الجزيرة التي نشأت بها وترعرعت.

وحانت منه التفاتة على الرغم منه إلى يديها ولم يعلم سر ذلك الارتياح الذي شعر به حين رأى يديها تخلوان من أي علامة تدل على خطبة أو زواج.

عادت تقول له:- لكنك لن تتحمل الإقامة بالسكن كثيراً؛ فهو لا يتناسب مطلقاً مع الرفاهية البادية عليك.

- يبدو أنك خُدِعتِ فيّ؛ فلم أكن يوماً مُرَفَّها، كل ما هنالك أنّ والدي لم يدخرا جهداً لإسعادنا.

واستمر الحوار فترة أخرى سكب كُلُّ منهما المزيد من نفسه أمام الآخر، وتعجب من قدرتها العجيبة على النفاذ إلى أعماقه.

ولم يقطع حديثهما سوى عودة "بهاء" الذي أخبره أن الزملاء ينتظرونهما على حفل الغداء فاستأذنته لتعود لعملها وأثناء هبوطه الدرج لمحها تتحدث مع أحد موظفي المستشفى وقبل أن يصل الطابق الأرضي تناهت إلى مسامعه ضحكة منها بدت له عالية.

وأثناء انشغاله بالقراءة مساءً دخلت مكتبه إحدى فتيات التمريض المسائي تُدعى "سميرة"، ولأول وهلة بدا وجهها مألوفاً له، بل إنه كان شبه متيقن من أنه رآها من قبل، وهو الأمر الذي نفتته الفتاة بشدة.

ودعته إلى حفل عشاءٍ أقامته الفتيات احتفالاً بفوزه هو و"بهاء" .. حاول الاعتذار لكنه أمام إصرارهن وإصرار "بهاء" على القبول لم يجد بداً من تلبية الدعوة.

وأثناء إعداد الفتيات مكتبه لتناول العشاء سمع صوت "فيروز" يتعالى وكأنها تنتساجر، فتوجه نحوها ليرى امرأة تبكي وهي تحتضن طفلها.

سألها عما حدث فأجابته دون أن تبدي كثير اهتمام:- إنها تُثير الكثير من الجلبة لأمر لا يستحق، لكم أخبرناها أن ابنها يتحسن ببطء لكنها تأبى الفهم.

أجابها مُحتدًا:- الأمر لا يستحق بالنسبة لك، فما هو إلا مريض ترين العشرات من أمثاله كل يوم، أما بالنسبة لها فهو صغيرها وكل حياتها.

تدخلت "سميرة" لثُهداً من روع الأم بينما انصرفت "فيروز" رافضة الانضمام لحفل العشاء.

وأثناء تناولهن الطعام معه بمكتبه قال لهن:- إن من وزع عليكن مجموعات العمل إما أن يكون شديد الغباء أو شديد الذكاء.

ضحكت الفتيات بينما سألته “سميرة”:- ولم؟

فأجابها:- إما أنه شديد الغباء حتى يجمع بين صنفين مختلفين تماماً من الشخصيات، صنف مثلك، يمتلك قلباً رحيماً يسع المستشفى بمن فيها، وصنف آخر ما أقساه على مرضاه، أو كان شديد الذكاء حين رأى أن يجمع بين هذين الصنفين ليعادل القسوة بالحنان فتتزن المجموعة.

سألته “سميرة”:- ألا يشبه هذا صداقتك أنت والدكتور “رفيق”؟

وأدرك أن أخباره صارت مُتداولة بالمستشفى.

وسرعان ما تناول طعامه ونهض فسألته الفتيات:- ألم يعجبك طعامنا؟

فأجابهن:- بل إنه طعام شهى، لكني تعودت على تناول طعامي بسرعة.

قالت “سميرة”:- إنه لا يُقَارَن بالطبع بالغداء الذي قدمته الدكتورة “ناهد”؛ فإمكانياتنا محدودة كما تعلم.

أجابها:- بل إنه أشهى وألذ بكثير من طعام الغداء.

سألته باندفاع:- أحقاً يمكن أن يكون الطعام الرخيص أشهى من الطعام الغالي؟

28- هدية عيد الميلاد

تواجهت "ناهد" بعيادتها في وقت مبكر جداً من الصباح التالي.. كانت تريد لقاء "مراد" قبل وصول الآخرين، وكان لها ما أرادت.. وحين رآته يدخل العيادة شعرت بقلبها يقفز فرحاً داخل صدرها فقفزت من مقعدها لتقدم إليه اللفافة الأنيقة التي كانت تمسكها باهتمام قائلة:- أسمح بقبول هديتي المتواضعة هذه؟

سألها وهو ينظرها متفحصاً:- ألا زالت أصدقاء فوزي في المؤتمر تشريك؟

قالت وابتسامتها تتلاشي من فوق وجهها الجميل:- ليس لهديتي هذه أدنى علاقة بالمؤتمر ولا بفوزك فيه.

- لكل هدية مناسبتها فبأي مناسبة تريدان اليوم مهاداتي؟

سألته غير مصدقة:- ألا يمثل لك اليوم شيئاً خاصاً؟

وبعد إمعان تفكير هز رأسه نافياً فاستطردت سائلة:- أحقاً نسيت أنك نُنم اليوم أعوامك الثلاثين؟!

ضحك حين رأى علامات الاندهاش قد ارتسمت على وجهها ثم قال لها:- حقاً.. إن اليوم يوم ميلادي.. ما أعجب أن يتلقى المرء أول هدية عيد ميلاد حين يكمل عامه الثلاثين!

بدت وكأنها صعقت لأنها عرفت عنه ذنباً لا يغتفر.. سألتها:- أتعني أنك لم تحتفل بعيد ميلادك أبداً؟

قال بنبرة أكثر جدية:- أنا لست من هواة إقامة الأحفال بأعياد الميلاد، فاعتقادي أن خير طريقة للاحتفال بعيد الميلاد ألا يكون العام قد انقضى دون إنجازٍ أو تقدم.

- لكن هذا يستلزم ضرورة الإنجاز الدائم.

- تماماً.. إن دوام التقدم يستلزم دوام التحرك للأمام؛ فمجرد ثبات المرء في موضعه بينما يتقدم الآخرون من حوله يعد تقهقراً له وتخلفاً.. ألا ترين أنا نَصِفُ الطالب بالسوب حين يبقى في فرقته في الوقت الذي يرتقى فيه زملاؤه إلى فرقة أعلى؟ فهو لم يهبط إلى فرقة أدنى.. مجرد ثباته في صفه بينما يتقدم الآخرون تقهقر له.

وللحظة تساءل عن كيفية معرفتها لعيد ميلاده إن كان هو نفسه لا يتذكره.. لكن منعه من توجيه السؤال لها قدوم أول مريض إلى العيادة.

وكان ذلك الشاب الذي يُعاني الوسواس القهري والذي رآه قبل أسبوع، عاد بصحبة أمه كما توقع “مراد”.

وطلب “مراد” من أم الشاب أن تصف له سلوك ابنها والتغيرات التي لاحظتها عليه فأخبرته أن أهم تغير رآته فيه هو أنه صار متشككاً إلى حد كبير، يعاود فعل الأشياء التي انتهى لتوه من فعلها كأن يتأكد من إغلاق التلفاز مرتين أو ثلاثاً، أو يغلق الباب مرات ومرات، أما أشد ما أثار انتباهها هو اهتمامه الزائد بالنظافة، إذ صار يغسل يديه مراراً وتكراراً كما صار يطيل مكوثه بالحمام منقفاً الساعات داخله وربما استحم مرتين أو ثلاثة يومياً.

كان بإمكان “مراد” إرسال الشاب إلى الأخصائي النفسي لإجراء العلاج النفسي الموازاة مع العلاج الطبي؛ فهذا ما يؤدي إلى تحقيق أفضل النتائج

العلاجية، لكنه - وهو الحاصل على العديد من الدورات التدريبية في العلاج النفسي - أثر أن يُجري العلاج النفسي لهذا المريض بنفسه، كما يفعل مع عينة ينتقيها من مرضاه حين يسمح له وقته بذلك.

وكان يدفعه إلى إجراء جلسات العلاج النفسي بنفسه تشجيع مدربيه له من قبل، فلکم أخبروه أن معظم صفات المعالج النفسي البارع تتمثل فيه؛ فهو مستمع جيد، وموجه بارع للنقاش، متفائل وبشوش دائماً، لا يتخذ موقف الناصح أو الواعظ أو المقوم للسلوك، كما أنه واسع الخبرة في علم النفس وفي العديد من مجالات الحياة، ولم يكن ينقصه سوى طاعة مدربيه حين أرشده إلى أن يكون بمثابة مرآة للمشاعر يُنمّي عن طريقها المريض مفهوم ذات أكثر واقعية وإدراكاً أفضل للواقع، فلما اتبع نصحتهم اكتملت لديه صفات المعالج الناجح.

اصطحب مريضه إلى إحدى الغرف الخالية لبدء جلسات علاجه النفسي فسأله الشاب في قلق:- هل علي أن أستلقي على الفراش وأخبرك بكل شيء؟

أجابه بلطف:- كلا فهذه الطريقة باتت قديمة، سنجلس وجهاً لوجه.

واستهل حديثه قائلاً:- مفتاح علاجك هو مواجهتك لنفسك بصراحة وتحديد مشكلتك ثم تفسيرها وضبطها لتحويلها من مشكلة تسيطر عليك إلى مشكلة تسيطر عليها.. فعليك أن تكشف لي عن ذاتك الخاصة وأن تدخلني إلى عالمك الخاص في صدق وشجاعة.. فليس من هو أعرف بك منك.. وأحسن طريقة لفهم سلوكك هي التعرف على وجهة نظرك أنت، ومن خلال تفسيرك أنت، أما إن كتمت سرك عن معالجك فقد خنت نفسك.

شَجَعَتْ هذه الكلمات الشاب على كشف أسرارهِ التي كان يراها مُخجلة، فصارحه بأنه أكثر من ممارسة العادة السرية خلال الفترة التي سبقت اضطرابه، فأخبره “مراد” أنه ربما كان لفكرة النظافة المتعلقة بهذا الأمر علاقة باضطرابه النفسي.

وفي النهاية وصف له الأدوية اللازمة لحالته كما أخبره عن الواجبات التي عليه أدائها طبقاً لبرنامج العلاج المعرفي السلوكي الذي سيتبعه معه، ثم قال له:- ستخطئ خطأ كبيراً إن ظننت أنني قادرٌ على أن أفعل لك كل شيء وأن أحل لك كل مشكلاتك، فأنا طبيب ولستُ ساحراً.. لا بد لك أن تفهم أن عليك مسؤولية كبيرة في العملية العلاجية، فجوهر اختلاف العلاج النفسي عن أنواع العلاج الأخرى أن الأخيرة يمكن أن يتم الشفاء فيها حتى إن كان المريض سلبياً تماماً وطبيبه يتولى فعل كل شيء، لكن هذا لا يصدق على علاجنا؛ فنحن شريكان في العلاج، أنا مسئول عن صحته وأنت مسئولٌ عن تنفيذه وترجمته إلى سلوك، كما عليك أن تعلم أن العلاج قد يستغرق وقتاً طويلاً، ولن تبدأ في الشعور بالتحسن قبل أسابيع من انتظامك على العلاج مع ترددك المنتظم علينا لمتابعة حالتك.

ثم استدعى أمه ليخبرها أن علاج ابنها سيتطلب الانتظام على بعض العلاجات لمدة طويلة نسبياً لكنه يتطلب في الوقت ذاته تفهم أفراد الأسرة لحالته وألا تكون طقوسه هذه مصدر ضجر ولا حتى نقاش بينهم، بل يجب عليهم أن يعينوه إن اقتضى الأمر، فإن حدث ذلك فالأمل في الشفاء كبير.

وكانت المريضة التالية شابة أتت بصحبة أمها.. أخبرته الأم أن ابنتها تعتقد أن أنفها يحتاج لجراحة تجميل، ورغم محاولاتهم الدائبة لإقناعها أن أنفها أجمل جزء في جسدها فقد أبت الاقتناع، فاضطروا أخيراً لمجاراتها

وعرضوها على أحد أشهر جراحي التجميل والذي أخبر الفتاة ان أنفها يعد قطعة فنية في حد ذاته ونصحهم بعرضها على طبيب نفسي.

وبعد مناقشة الفتاة والاستماع إلى التفاصيل إضافة إلى إجراء بعض الاختبارات النفسية لها أخبرهم "مراد" أنها تعاني اضطراباً نفسياً يُسمى "اضطراب شكل الجسد" وفيه تشعر المريضة - كما هو الحال معها - أن جسدها أو جزءاً منه - ليس كما ينبغي، بل وتسعى لإصلاحه، والعلاج في هذه الحالة سهلٌ وميسور بشرطِ إتباع التعليمات بدقة.

وبعدها دخلت العيادة امرأة وزوجها.. كانت شكوى الزوجة أن زوجها مريضٌ بالقلق.. فهو يقلق من أي شيء، ومن كل شيء، بل ومن لا شيء أحياناً.. إنه يقلق بسبب ودونما سبب.

وشخص "مراد" مرضه على أنه "اضطراب القلق العام" ونصحه بأن يواجه مخاوفه؛ فأكثر الأساليب فعاليةً للتغلب على المخاوف هي ببساطة مواجهتها وما إن بدأ يصف له العلاجات المناسبة لحالته حتى أخبره المريض أنه لن يتناول هذه المواد مطلقاً لأنه سمع أن كل الأدوية النفسية تسبب الإدمان لمتعاطيها فقال له:- إن أكثر ما يضر بالطب النفسي تلك الشائعات التي يطلقها الجاهلون به، وهذه الشائعة بالذات ليس لها أي نصيب من الصحة؛ فهذه الأدوية إن تم تناولها بجرعاتها الموصوفة وفي مواعيدها المنتظمة فلن تسبب إدماناً ولا حتى تعوداً.

وأخيراً نجح في إقناع المريض الذي وعده بالمواظبة على تناول العلاج ووعدت الزوجة بمعاونة زوجها.

ثم دخلت عليه إحدى ممرضات المستشفى تستشيريه في أمر رضيعها الذي كلما حاولت هي وزوجها ترك غرفته بكى وبدأ نوبة غضبٍ عنيفة

تُجبرهما على العودة، وقد علم منها أن الطفل قد مرض قبل ذلك مرضاً تطلب رعاية خاصة لمدة طويلة حتى تعود على وجود والديه في حجرة نومه دوماً فنصحها بترك حجرة نوم الطفل وعدم العودة إليها مهما فعل، وهذا كفيلاً بانطفاء نوبات الغضب مع الوقت.

وكان آخر مريض يراه ذاك اليوم شاباً جامعياً أحضره والده الذي أخبر “مراد” أن ابنه صار يجمع الأوراق من على الأرض غير مُبالٍ إن كانت نظيفة أم متسخة، ثم يقوم كل تلك الأوراق في غرفته حتى صارت أشبه بمقلب القمامة، وقد حاولت العائلة منعه مراراً إلا أنه يعود لنفس الفعل بإصرار غريب.

وحين سأل “مراد” الشاب عن سبب فعله ذلك أخبره أنه يجد صورة الشمس - إلهه المُقدَّس - مُلقاةً على الأرض تطأها الأقدام فلا يستطيع تحمل ذلك.. بل إن وزارة التعليم نفسها لا تُبالي بهذا الأمر؛ فهي تطبع صور الشمس في الكتب التي ستُلقى بعد انتهاء العام الدراسي، وهو منذ عرف ذلك أخذ يستكشف كل ورقة يراها ليعرف إن كانت بها صورة الشمس أم لا، فإذا رآها أخذ الورقة ليحتفظ بها في غرفته، لكن والديه لا يرضون عن هذا السلوك وهو لا يعرف لماذا.

وحين ناقشه “مراد” في الأمر مُخبراً إياه أن هناك عمالاً متخصصين في هذا الأمر وجده يكرر نفس الفكرة، كما علم من والده أن مستواه الدراسي تأخر في الفترة الأخيرة، وأجرى فحصاً سريعاً لقواه العقلية فوجده يُعاني بعض المشكلات المتعلقة بالذاكرة والتركيز.

وأخبر والد الشاب بضرورة حجز الشاب بالمستشفى لأنه لم يتوصل لتشخيص حالته بعد، ولذا سيضعه تحت الملاحظة مع إجراء بعض الفحوصات له للتوصل إلى تشخيص دقيق لحالته.

وحين أخبر الشاب بذلك لم يُبدِ اعتراضاً وابتسم ابتسامة لا معنى لها.

29- روح الدهشة

سأله “بهاء” بعد انتهاء العمل عن سبب إكثاره من الأسئلة التي يوجهها للمرضى ومرافقيهم، فأجابه قائلاً:- إنما أفعل ذلك مُحاولَةً للوصول لتشخيصٍ دقيق؛ فأصعب ما في علل النفس تشخيصها أما علاجها فأسهل ما فيها، ونحن لا نملك - كبقية فروع الطب الأخرى - وسيلة لتشخيص المرض إلا هذه؛ فما من فحص أو أشعة تستطيع إثبات وجود المرض النفسي أو غيابه، لأن التغير يكون في وظائف المخ وليس في تركيبه التشريحي.

- فمالي أراك تولي اهتمامك لأمرٍ بسيطة - بل ربما عادية - قد تحدث مع أي منا كل يوم؟

- وما أدراك أن هذه الأمور التي تصفها بالبساطة بسيطة حقاً؟ أو أن تلك الأفعال العادية عادية فعلاً؟ لا بد للمستكشف من التحلي بروح الدهشة.

- روح الدهشة؟!

- إن روح الدهشة - يا صديقي - هي تلك الروح القادرة على أن تكشف لك أسرار وخفايا الأشياء بوضوح وجلاء.. إنها تعني أن تتعامل مع كل شيء كأنك تراه لأول مرة.. أرأيت ما يفعل الطفل حين يرى شيئاً لأول مرة؟ إنه لا يترك وسيلة يتعرف بها عليه إلا وفعلها، فإن استطعت أن تصير مثله، فستنجلي لك حينئذ أسرار الأشياء، وستلاحظ أن ثمة أشياء

تنظر إليها كل يوم ولا تراها، وما ذاك إلا لمعرفة المسبقة بها وقبولك الفروض على علاتها، إياك أن تقبل في العلم مُسَلَّمات.. فكم من فكرة توارثتها الأجيال ثم أثبت تقدم العلم خطأها.. ناقش كل شيء؛ فكل شيء قابل للمناقشة بما في ذلك هذه الفكرة نفسها وكل شيء قابل للبحث بما في ذلك هذه المقولة ذاتها. إن الإنسان الذي يفقد اندهاشه يتحول إلى آلة.. دع روح الدهشة تتملكك وأنت تسير في طريقك اليومي، ولدى مطالعتك اللافتات المبنوثة على الطرقات، تعامل مع الحياة على أنها صحيفة يومية تصدر تحت نفس الاسم والأبواب الثابتة وعدد الصفحات وبنفس اللغة، أما محتواها فيختلف اختلافاً تاماً من يوم ليوم، إن روح الدهشة - يا صديقي - هي وحدها القادرة على فتح مزلاج عقلك الذي أحكمت غلقه برتاج الألفة والعادة، إنها وحدها القادرة على جلاء ما ران على عقلك من صدأ المُسَلَّمات والبدهيّات.. وحين تتملكك هذه الروح حقاً فستجعلك تُطالع الأشياء بلهفةً مُتجددة ورغبة في الاستطلاع دائمة.. بل ربما تجعلك تُدقق في النجوم لعلك تكتشف بعينيك المُجردتين ما لم يكتشفه الفلكيون بمناظيرهم.. لولا هذه الروح - يا عزيزي - لما انقلبت النظريات التي حسبناها طويلاً حقائق لا تحتاج برهاناً.

قال له “بهاء” وشعوره بالإنبهار به يزداد:- لم أر من يتحدث عن العلم بمثل هذه البساطة.

- لم أر خيراً من البساطة منهجاً لتحقيق العلم.

وخرج “بهاء” من المحادثة بجانب جديد تماماً اكتشفه في صديقه؛ لقد علم اليوم لأول مرة أن صديقه غير مؤمن بالآلهة.

30- العلاج الجماعي

وفي المساء بحث "رفيق" و"بهاء" عنه ليصحباه إلى جلسة العلاج الجماعي الأسبوعية، وأخيراً وجداه واقفاً ينظر إلى ساحة المستشفى من شرفة مكتبه، لم يُثر دخولهما انتباهه، وحين هم "بهاء" بتنبيهه لوجودهما أشار "رفيق" إليه إشارة مفادها أن الزم الصمت؛ إذ كان يعلم أن صديقه الآن في حالة تأمل عميق.

وحين رأى "بهاء" أن الوقت يمر دون أن ينتبه "مراد" إليهما أشار إلى ساعته، فخلّى "رفيق" بينهما، فاقترب منه في هدوء وسعل سعلة خفيفة فانتبه إليه "مراد" فسأله:- ألم يتعبك الوقوف طيلة هذا الوقت؟

قال "مراد" مبتسماً:- إنها هوايتي المفضلة.

- أية هواية؟

- مراقبة الناس، لقد قضيتُ وقتاً طويلاً من حياتي أفعل ذلك.

تدخل "رفيق" موضحاً:- لقد حان وقت جلسة العلاج الجماعي فأتينا لاصطحابك معنا.

وكان العلاج الجماعي قد بدأ بالمستشفى قبل ثلاث سنوات، حين لوحظ زيادة أعداد المرضى المترددين عليها بنسبة أكبر بكثير مما يتحملة الطاقم المعالج، وقد خُصّصَت له إحدى قاعات العلاج بالفن، على أن يجري مرة واحدة اسبوعياً.

ومن مزايا هذا النوع من العلاج أن المريض يستفيد من الموقف والوسط الاجتماعي في الجماعة العلاجية، كما أنه يُفيدُ رفاقه أعضاء الجماعة علاجياً في نفس الوقت، وهو يؤدي إلى تجنب العزلة الاجتماعية التي تُمَثِّل بمفردها سبباً كافياً لإحداث المرض النفسي أو لتدعيمه وتثبيتته بعد حدوثه.

ويختلف ما يحدث فيه من أنشطة حسب المدارس، فالبعض يكتفي بالجلسات الجماعية والبعض يستخدم السيكدوراما أو العلاج النفسي المسرحي، وهناك من يستخدم ما يشبه كرسي الإعراف وعلاج المائدة المستديرة.

وقد ازداد الإقبال على هذا النوع من العلاج بعدما نشرت إحدى المريضات مقالاً في صحيفة "أخبار دراكاران" تقص فيه قصتها مع المستشفى ذاكرة فيه أنها شعرت بعد طلاقها أنها لا تستحق الحياة بعد تحطم زواجها وفشلها في الزواج من جديد، ولم تُجدِ معها كل أنواع العلاج، لكنها حين خضعت للعلاج الجماعي وجدت في جماعة المواجهة كتفاً تبكي عليه، وساعدها ذلك على العثور على إبرة أمل في كومة يأسها إذ كانت تظن أنه لا يوجد رجلٌ واحد في العالم يُحبها، فأنت الجماعة العلاجية فأتاحت لها فرصة الشعور بالتقبل وزادت ثقتها بنفسها حتى أنها عادت لحياتها واستأنفت أنشطتها من جديد، بل ورفضت الزواج بعد ذلك حين تقدَّم إليها رجل رآته غير مناسبٍ لها.

31 - لقاء السحاب

وأثناء مروره على مريضاته في اليوم التالي بصحبة فريقه تعمد أن يتجاهل "وفية" حين أتى دورها قائلاً:- فلنتجاوز هذه المريضة؛ فزوجها يغضب حين يَطْلُعُ عليها طبيب غيره ولنتوجه للمريضة التالية.

- "إنها ليست مريضة". قالتها "جدة" بثقة.

التفت نحوها سائلاً:- لِمَ قُلْتَ ذلك؟

- لأنها ليست مريضة.. أقسم بالسنوات الطوال التي عملت بها في الطب النفسي أنها ليست مريضة، بل إن زوجها هو المريض، ولو كان أحدهما يستحق الحجز هنا فليس إلا هو، لكني أعلم أنك ستدافع عنه؛ فهو ابن مهنتك.

وما إن تحركت شفتا "ناهد" للرد عليها بأغلظ الكلمات حتى أشار إليها أن تلتزم الصمت، ثم عاد يسأل "جدة":- ماذا رأيتَ منها جعلك موقنة بعدم مرضها؟

- بل يجب أن تسألني السؤال العكسي: ماذا رأيتُ منها يجعلني أعتبرها مريضة؟! فلم يلاحظ أينا عليها أيّ دلالة على اضطراب نفسي، إنها تأكل وتشرب وتنام بصورة طبيعية جداً، وتعتني بنفسها دون طلب ذلك منها، كما أنها تُشارك في جميع أنواع النشاطات الموجودة من علاج بالعمل والفن، ولم نلاحظ عليها مُحادثة نفسها قط.. كل ما هنالك أنها تأتي التحدث إلينا كلما حاولنا، لكنه مرضكم المزمن وعييكم الخطير - معشر أطباء النفس، فما إن تسمعوا أي شكوى عادية تحدث مع أي منا - كما

تحدث مع أي منكم - إلا وسارعتم بالإصاق المرض النفسي بصاحبها، والذي ربما يكون أبعد شيء عن هذه النوعية من المرض.

ونحنى أمر المريضة جانباً مُتصدّياً لهذا النفّاش الرفيع قائلاً:- وما الذي يجعلك توقنين أن شخصاً بعينه مُعافى نفسياً؟ بل أينما يستطيع أن يُقسِمَ أنه خلو من الاضطراب النفسي أو العُقد المستنّرة؟ وإن كانت الأفعال التي تصفيتها بالطبيعية طبيعية حقاً فلم تحدث مع بعضنا دون البعض؟ ألا يمكن أن تختبئ وراء هذا الفعل الذي تصفيتها بالطبيعي أعتى الأمراض النفسية وأفساها؟

أجابته متجاهلة نظرات المُحيطين المندهشين:- وأينما - بل أيُّكم - لم يكتئب لفقدان عزيز أو لفشلٍ حياتي؟ أينما لم يُحدث نفسه حين يخلو بها؟ أينما لم يُعاود إغلاق باب منزله رغم يقينه بإغلاقه أو لم يُعدّ إلى مصدر المياه للتأكد من إغلاقه مرة أو مرتين؟

أجابها متعمداً تصعيداً مستوى حديثه ليرى على أي درجة من درجات الثقافة تقف:- وأينما يخلو من المشكلات أو حتى من الأعراض النفسية يا عزيزتي؟ لكن مشكلاتنا لا تَصِلُ بنا حد الاضطراب النفسي؛ فالنفس الإنسانية مزيج وسط بين المتناقضات، وهي تموج بكافة الطبّاع والغرائز؛ فكل نفسٍ حظها من الاكتئاب والهوس والوسواس القهري، وما المرض النفسي إلا شطط أو انحرافٌ عن تلك الوسطية، وبديهي أن الشطط لا يُصيب الشيء إلا إن كان موجوداً فيه من الأصل، فليس منا من لم يشعر في إحدى فترات حياته أنه مُراقب مثلاً، وليس منا من لم يصبه الشك فراجع الأفعال التي أداها لتوه، لكن ذلك يحدث لفترة عابرة تعود النفس السوية بعدها لسابق صحتها بعد عبورها أزماتها لتعود بصاحبها لممارسة حياته الطبيعية، أما إن طال وقوع النفس تحت طائلة ذلك الشطط كان

المرض النفسي الموجب للعلاج؛ فالمرض النفسي كامن في نفس كل منا لكن لا يعد المرء مصاباً به إلا إن ظهرت أعراضه بطريقة استحال السكوت عنها

أجابته وكأنها قرأت ما يدور بعقله، مجتهدة أن تأتي إجابتها وفق ما توقع:- حتى ذاك الحد الفاصل بين الصحة والمرض غير واضح لديكم، فهو خاضع في مجمله للاجتهاد والرأي، إني ما رأيت اثنين منكم - معشر أطباء النفس - قد اجتمعا على رأي، فلو تناقش اثنان منكم لخرجنا بثلاثة آراء، ولو اجتمع عشرة منكم لخرجنا بأحد عشر رأياً، وأكبر دليل على كلامي هذا مؤتمر هذا المستشفى الأسبوعي، فعلى مدى سنوات حضوري له، لم أر اثنين منكم اتفقا على تشخيص أو طريقة علاج أو حتى تعريف لمرض نفسي حتى أيقنت أن الاجتهاد والتخبط سمتا الطب النفسي.

لم تدر "جنة" أنها كانت تمنحه في تلك اللحظة أكبر سعاداته؛ فما كان لشيء أن يبهجه قدر التمازج مع شخص على قدر عالٍ من الثقافة والإطلاع.. قال لها والنشوة بادية عليه:- إنك حقاً لن تجدي خلافاً في تخصص طبي كتخصصنا؛ فهو لم يزل طفلاً يحبو في حين اشتد عود العلوم الأخرى أو يكاد، ذاك أن معظم فروع الطب الأخرى توشك قواعدها أن تستقر بعدما ابتنت لها أسسها المتينة، في الوقت الذي ظل فيه الطب النفسي علم الحدس والتخمين، ودليل ذلك أنك ترين كل يوم النظريات تتري في تفسير أحوال النفس البشرية التي لا زالت كهفاً مغلقاً وسرداباً مظلماً لم تُخض بعد دهاليزه وأرضاً بكرّاً لم تطأها قدم مُستكشف، مهما ادعى البعض قدرته على رصدّها أو كشف غموضها، فقد استكشف الإنسان من مجاهل الفضاء السحيق أكثر مما استكشف من مجاهل نفسه وسبر من أغوار المحيطات أكثر مما سبر من أغوارها، ولا أدل على ذلك من أن ردود أفعالنا تجاه ذات الموقف تختلف من شخص

لآخر، فحين نبكي على ميت مثلاً يبكي كل منا لسبب يخصه هو لا بكاءً على من مات، وحين تُضحكننا فكاهة أو مزحة يضحك كل منا لانفعالٍ داخلي يختلف تماماً عن الانفعال الذي حدث بنفس صاحبه، فنفسنا أحادي فرادى تختلف كل منها عن الأخرى اختلاف البصمة، بل الأدهى من ذلك أن تفاعل الشخص نفسه تجاه ذات الموقف يختلف من آن لآخر، وتلك في رأي ميزة الطب النفسي لا عيبه، فهو يمتاز عن غيره من بقية فروع الطب بأنه علم النظريات.. لن تجدي في أي من فروع الطب قابلية البحث واختلاف الرأي كما تجدين بطب النفس.

- حسناً.. أخبرني بصراحة.. بالنسبة لك أنت شخصياً.. هل وانتك الجراحة - ولو لمرة واحدة - أن تخبر مريضك أنه ليس مريضاً؟ أو أن أفعاله التي جاء يشكو إليك منها هي محض أفعالٍ عادية قد تحدث مع أي منا في فترة من فترات حياته؟

قال لها خاتماً الحوار بعدما أدرك أنه وصل بُغْيَتَهُ: - أوافقك الرأي في أننا نميل إلى وضع من يقصدنا تحت مسمى المرض النفسي، ولكن أليس لهذا سببه الواضح؟ فمريضنا لا يقصدنا إلا إن كان قد عانى دهرًا قبل مجيئه إلينا حتى نَعَصَتْ شكواه هذه عليه حياته إلى الحد الذي لم يعد معه قادراً على تحمله، ولو كان الأمر هينا لامتنع عن قصدنا عشرين مرة، ولَقدم رجلاً وآخر عشرين قبل حضوره إلينا، أما أولئك الذين يحضرهم إلينا ذووهم فلأن أولئك الأهل قد رأوا فيهم مُشْكِلَةً ما عادوا قادرين لا على التعامل معها ولا كتمانها.

32- اعتذار سريع

كان الشعور الطاعي على قلب كل منهم شعوراً مختلفاً، أما هو فأحس بالسعادة الغامرة لاستعادته تلك الأحاديث المرتفعة المستوى التي افتقدها منذ أمد بعيد، وأما “جنة” فحزنت لأنها لم تستطع إقناعه بخلو “وفية” من المرض، وأما “ناهد” فشعرت بالحنق الشديد عليه لأنه سمح لفتاة مثل هذه أن تحادثه بتلك اللهجة وهو من هو، وحاولت جاهدة السيطرة على شعورها هذا حتى انتهى المرور وعاد جمع الأطباء إلى مكتبه لتبادره سائلة:- كيف سمحت لها أن تُحادثك بتلك اللهجة؟

أجابها وحالة النشوة لا زالت مُسيطرَة عليه:- وكيف لا أسمح لها وقد تحدثت حديث العالم المتخصص الذي لا يرقى لدرجته كثير ممن قضوا في هذا العلم أعواماً؟! وعلى أي حال فقد اعتدت تقبل الرأي الآخر، فربما كان هو المُصيب وأنا المُخطئ.

صاحت فيه بغیظ:- لكنك “مراد الشريف” .. أما هي فليست إلا..

قاطعها في حدة:- أرجوك ألا تُعيدي على مسامعي كلماتك هذه؛ فأنا لا استنكف عن أخذ العلم من أحد ولو كان طفلاً يحبو، لكم نبهني إلى أشياء كنت أنظر إليها ولا أبصرها.

وكاد أن يُكمل قائلاً:- وأغلب ظني أنك ما وعيت كثيراً مما قالت ولا تكونت لديك آراء كآرائها. لكنه تمكن من منع نفسه في الوقت المناسب.

وفور انصرافها بغیظها دخلت “جنة” لتقول له بصوت خفيض:- أعتذر لك عن تلك اللهجة التي حادثتك بها، لكني ما فعلت ذلك إلا ليقيني بأنها

ليست مريضة.. لكم حادثتها من قبل فرأيتها شديدة الاتزان بلا أية دلالة على اضطراب نفسي كما ادعى عليها زوجها، ولاحظتُ في الوقت ذاته اضطراب سلوكه هو، لكن أياً من الأطباء هنا لم يُصغِ إليّ حين كنت أحاول مُناقشة الأمر معهم، ووجدت في صدرك الرحب مساحة واسعة لتحمل الخلاف في الرأي.

قال لها وهو يعاود تفحصها بنظراته الثاقبة:- إن مُستوى حديثك يفوق جميع من رأيت من ممرضات.

ابتسمت ابتسامة مريرة وكان كلماته لمست جُرحاً غائراً بقلبها، وبعد لحظة شرودٍ قالت له:- كنتُ فائقة في دراستي، لكن أبي ألحقني بمدرسة التمريض تحت إلحاح من زوجته لأصير مثلاً، حاولت في البداية إغرائني فأبيت لكنها في النهاية نجحت في اقناع والدي الذي أذعن لرغبتها.

- أُمك متوفاة؟

- نعم، أنا يتيمة منذ مولدي؛ فقد تُوفيت أُمي بعد ولادتي بقليل.

- أعتذر عن إثارة شجونك، لكنني فهمت من كلامك أن زوجة أبيك تعمل ممرضة أيضاً.

- كانت تعمل بالتمريض قبل زواجها من أبي، وتركت العمل لاشتراط أبي عليها ذلك لإتمام الزواج.

وأردفت بسرعة وكأنها تخشى أن يُوجّه إليها المزيد من الأسئلة:- لا أريد منك أكثر من إعطائها فرصة لتشخيصك الدقيق.. تجاهل كل ما كتب عنها زوجها وتعامل معها كأنك لم تعلم بعد شيئاً عنها.

قال وقد بدا عليه بعض التردد:- لا أخفيك أنني توصلت لرأي مُقاربٍ لرأيك هذا؛ فقد لاحظت اضطراب شخصيته هو، لكن الانطباع السيء لا يكفي للحكم على المرء أن لديه اضطراباً بشخصيته؛ فلا بد من وجود علامات تشخيصية موجبة تؤكد هذا التشخيص، أما هي فلم ألاحظ عليها أية علامة من علامات الاضطراب النفسي، لكنني حادثتها من قبل فلم تُجبني، وحين علم زوجها ثار ثورة شديدة فوعدته ألا أحداثها مرة أخرى.

- ألا تؤيد ثورة زوجها الشديدة هذه صدق رأيي؟ إنه ليس هنا اليوم، ولا أريد منك سوى أن تعاملها بالمهارة التي أبهرتنا جميعاً بها.

33 - فرصتك الأخيرة

وأخيراً حسم أمره ليتجها معاً إلى "وفية" .. حياها ببشاشة فأجابته بإيماءة من رأسها ولم تنطق، فقال لها:- فريق العمل هنا يرى أنك لست مريضة، وأنا أشاركهم هذا الرأي، لكن لا بد لك أن تبرهنني لنا على ذلك بنفسك.. لاحظي أن هذه ثاني مرة أحاول فيها معاونتك، فإن رفضت هذه المرة أيضاً فإنني - أسفاً - لن أقبلَ على مُساعدتك من جديد.

أدارت نظراتٍ حائرة بينه وبين "جدة"، وتحركت شفتاها لكنها لم تنطق، ونظرت بعيداً عنهما.

واصل قائلاً وقد راوده بعض الأمل:- إن ما دونه زوجك لا يتفق وملاحظاتنا عنك.. تحدثي يا سيدتي فربما كان الأمر أخطر مما تظنين.

ظلت على صمتها فقال لها:- دعك من كل هذا.. لِمَ حاولت الانتحار مرتين؟ إن الدنيا جميلة وليس فيها ما يستحق أن نفقدها حزناً عليه!

نظرت إليه غاضبة وصاحت:- لَمْ أَفْعَلْ، لَمْ أَفْعَلْ، لا أدري لِمَ تقولون لي هذا دوماً؟

وقررت "جنة" ألا تضيع الفرصة التي سنحت لهما فقالت فوراً:- زوجك هو الذي كتب ذلك بملفك الطبي.

أما هو فتنفس الصعداء بعدما رأى الباب المغلق يُفْتَحُ قليلاً فواصل قائلاً:- أخبرينا بالأمر ونعدك أن نبذل قُصارى جهدنا لمعاونتك.

قالت في هدوء:- حتى إن أخبرتك فلا فائدة من الحديث والشكوى.

- من قال ذلك؟ ربما توصلنا لحل لمشكلتك إن تشاورنا فيها.

- إنك زميله ولن تخسره من أجلي.

- بل إنني مستعد لخسران العالم كله من أجل الحقيقة.

ربت "جنة" على كتفها قائلة:- صدقيه يا "وفية"، إنه أفضل طبيب أتى إلى هنا، لن تجدي متحمساً لمُعاونتك مثله.

قال لها مشجعاً:- هيا.. أريدك أن تُقْصِي عَنِّي الأمر بجميع تفاصيله.. لا تتركي شاردة ولا واردة إلا ذكرتها.

بدا عليها أنها تشجعت قليلاً وبعد طول تفكير قالت:- سأقص عليك كل شيء، لكني لا أعلم من أين أبدأ.

- ما أجمل أن نبدأ من البداية.

بدأت على وجهها أمارات من يجترُّ ذكرياتِ أليمة وهي تقول:- كانت تربطني به صلةُ قرابة بعيدة، لكن ما زاد الاتصال بين عائلتي التحاقنا أنا وأخيه بنفس الكلية لنصير زميلي دراسة، لكنني لم أكن قد تعرفت على “سرحان” جيداً، حتى كان حفل زفاف إحدى صديقاتي، وكان هو من معارف العريس، كنت أقف بجوار العروس؛ فهي صديقتي.. وجدته يسألني:- أنت مخطوبة؟

لم أجبه؛ فقد فاجأني السؤال، فأجابته العروس بالنفي ثم قال عريسها لي:- حسناً، ما رأيك في الدكتور “سرحان”؟ إنه طبيبٌ نفسي ناجح وأنا شخصياً أزكيه لك.

فسارعتُ بمغادرة المكان لشدة خجلي.

صمتت قليلاً وكأن الذكريات ثقلت عليها، ثم واصلت:- أصر على إتمام الخطبة والزفاف في أسرع وقت رغم اعتراض الجميع واعتراضي.. كنتُ أود فترة أطول أدرس فيها شخصيته جيداً فلم يمنحني الفرصة، وكان محقاً في تعجله.

- وكيف كانت أحواله أثناء الخطبة؟

- لم أتعرف خلالها إلا على خصاله الطيبة.. كان هادئاً.. ودوداً.. لطيفاً.. يُسارع لمرضاتي، ولم أكتشف وجهه الآخر إلا بعد الزواج، حينئذٍ بدأتُ أكتشف التناقضاتِ الحادة في شخصيته.

- ماذا تعنين بالتناقضاتِ الحادة في شخصيته؟

- إنه رجلٌ تؤلمه السعادة، كلما رآني فرحة قلَّب فرحتي غمّاً متذرعاً بأنّفه الأسباب، حَوَّلَ حياتي جحيماً بشكه المتواصل في.. إن سوء الظن ملاذُه وملجأه.

- بِمَ يتهمك؟

- لقد دأب على اتهامي بأبشع الإتهامات التي أقسمُ أنني منها براء.. فتارةً ينعنتني بالطمع وحب امتلاك ما في يد الآخرين وتارةً يتهمني بالوقوف في سبيل طموحه ومجده العلمي.. وثالثةً يتهمني بأنني أدبرُ للتخلص منه.. هل تصدق - يا سيدي - أنه لا يتناول الطعام إلا إن بدأت بتناوله أمامه؟

بدأت الأمور تتضح في ذهنه فسألها:- هل تتذكرين مواقف بعينها حدثت بينكما؟

- وكيف أنسى ما فعل بي؟! كل ما فعله مَحْفُورٌ في ذاكرتي حفراً.. بعد شهرٍ واحد من زواجنا كنت أجلس في غرفتي أستمع لإحدى أغاني مُطربِي المَفْضَل، فإذا به يدخل علي كثور هائج ليقول:- لِمَ تصرين دوماً على الاستماع لهذا الرجل دون سواه؟

قاطعها "مراد":- عفواً سيدتي، ولكن أكان كُلُّ منكما ينام في غرفةٍ منفصلة بعد شهر واحدٍ من الزواج؟!!

- أجل، فقد جهز غرفة أخرى بالمنزل لينام بها.

- وما الذي دفعه لذلك؟ عفواً، فلا أظنه سلوكاً منطقياً من رجلٍ لم يمر على زواجه أكثر من شهر.

- لقد دأب على الثورة لأتفه الأسباب، وفي إحدى ثوراته غير المبررة تلك قرر النوم في غرفة أخرى بعيداً عني.

ثم أردفت في سخرية:- ربما كان يخشى أن أقتله وهو نائم.

- واصلني قصتك من فضلك.

- أذهلني سؤاله، فسألته مُستَوْضحة:- ماذا تعني؟

صاح والشرر يتطاير من عينيه:- لا بد أن هناك علاقة بينكما.

لم أتخيل أن يفكر بهذه الطريقة فأجبتّه من فرط غيظي:- وكيف تكون لي علاقة بهذا المطرب الشهير؟ إنني واحدة من آلاف مستمعيه.

أجابني:- فكنت إذاً تتمنين معرفته! إن الخيانة تجري في عروقتك مجرى الدم، ها أنت تريدين خيانتني حتى مع ذي الصوتِ النشازِ هذا.

ورأى "مراد" دمعتين تنحدران على وجنتيها فأطرق صامتاً احتراماً لمشاعرها، وبعدها جففت دموعها واصلت قائلة:- لم أتحمّل هذا الاتهام الشنيع، فغضبتُ وهجرتُ المنزل إلى منزل أخي حتى أتى ليعيدني مُدعيّاً أن دافعه لما فعل كان غيرته الشديدة علي وحبّه الجارف لي، لكنه بعد عودتي للمنزل ظل يراقبني ذهاباً للجامعة وإياباً منها، ربما خشية أن التقى بذلك المطرب، ثم ألح على أخي أن أترك دراستي، وطلب مني أخي الإذعان لرغبته.

- هل تذكرين له مواقف أخرى؟

- بعد أيام قليلة أتت جارتنا لزيارتي؛ فجلسنا نتسامر ونضحك، فإذا به يثور علينا ثورة عارمة ويتهمنا بأننا نتحدث عنه.. أقسم لك أنا لم نذكره

بكلمة واحدة، وبعدها منعني من زيارة أهلي وصديقاتي وجاراتي، كما منعني من استقبال أي منهن بالمنزل حتى شعرت أنه يغار من محبة الناس لي.

- وما كان سبب قدومك إلى هنا؟

- الموقف الأخير الذي...

وشهقت شهقة من رأى مشهداً مُفزعاً فنظراً إلى حيث تسمرت عيناها فربأياً "سرحان" يقف خلف "مراد" ثم سأله:- ماذا تفعل هنا؟

علم "مراد" أن المواجهة باتت لا مفر منها، وأن خط الرجعة أمسى مُغلَقاً فأجابه بأقصى ما استطاع استحضاره من هدوء:-

- ما أعجب سؤالك، إنني أمارس عملي.

- أنسيت أنني حذرتك ألا تقترب منها؟

- يبدو أنك أنت الذي نسيت أن اليوم يوم عملي وكل من هنا مسئولية مُلقاة على عاتقي!

- إذاً فلا تأتِ إلي مُعتذراً بعد ذلك؛ فلن أقبل اعتذارك مرة أخرى.

- أعدك أن ذلك لن يحدث.

انصرفَ عائداً إلى مكتبه، لا جُبناً منه ولكن لأنها ما كانت لتحكي بقية قصتها أمام زوجها بالطبع.

وتيقن أنها حقاً ليست مريضة؛ فتفكيرها منطقي ومتسلسل ومرتب، كما أن ذاكرتها قوية وكلامها مترابط ولا يوجد لديها أية مشكلة من مشكلات

التفكير أو الكلام، وهو ما ينفي تماماً ذلك التشخيص العجيب الذي أعطاه لها زوجها.

أما السؤال الذي بات يؤرقه فهو:- كيف عرف “سرحان” حديثه إليها هذه المرة، فهو ليس مُداوماً بالمستشفى اليوم، لا بد أن شخصاً ما من داخل العنبر هو الذي يبلغه أخبارها أولاً بأول، وأصر على معرفة ذلك الشخص.

34- لا تدع أعداء النجاح يعيقونك

وبعد قليل دُعي لمناظرة مريض بمبنى الرجال، وأثناء تحدّثه إليه سمع صوت “عباس” يصيح قائلاً:- ما أنت إلا طبيب تدريب، وأطباء التدريب لذي لا يباشرون العمل بأنفسهم.. ليس لك إلا ملاحظة ما يفعله الأطباء الكبار.

ثم رأى “بهاء” يغادر المكان مسرعاً فأكمل حديثه مع مريضه، وبعد إعطاء التعليمات للممرضة المسؤولة عنه عاد لغرفته.

لم يبحث عن “بهاء” ليسأله عما حدث، فقد أثر الإنتظار حتى يأتي إليه بنفسه ليقص عليه قصته.

وقبيل الغروب بقليل أتاه "بهاء" لكنه لم يستطع أن يقص عليه قصته؛ إذ كان يمارس "اليوجا" في تلك الأثناء، وانصرف "بهاء" متعجباً من صديقه هذا الذي يجد وسط كل مشاغله وقتاً ليلعب "اليوجا" ويتعلم الموسيقى.

وحين التقيا على العشاء أخبره "بهاء" بما حدث، فقد صاح فيه "عباس" منتهراً حين رآه يضحك بصوت عالٍ على ما قاله له أحد المرضى.

سأله "مراد" عن سبب ضحكه فابتسم حين تذكر الموقف وقص على صديقه القصة قائلاً:- منذ أسبوعين أدخل المستشفى مريضٌ لديه ضلالات اضطهادية؛ فهو يعتقد أن المخابرات تراقبه وأن رجالها يتابعونه في كل مكان، حتى بلغ به الشك أنه يعتقد أن الفريق الطبي المعالج نفسه جزء من الفريق المكاف بمراقبته، وبعدها بأسبوع أدخل مريض آخر لديه ضلالات عظيمة، فهو يعتقد أنه يعمل بالمخابرات، ويتعامل مع الناس على هذا الأساس، وسرعان ما نمت صداقة عجيبة بين هذين المريضين، وبعد يومين من حجز المريض الثاني قال له المريض الأقدم - أثناء تناولهما الطعام معاً - جملة التي يقولها لكل من يراه:- أنا أعلم أنك تعمل بالمخابرات.

فنظر إليه المريض الثاني مندهشاً وسأله:- كيف عرفت؟ إذ صادف هذا السؤال عين ضلالته فأجابه المريض الأول وقد ازداد تيقناً من مخاوفه:- أنا أعرف.. أعرف ذلك جيداً.

وبدأ المريض الأحدث بعد ذلك في استغلال المريض الأقدم، فصار يدخل غرفته بلا استئذان، بل ويأخذ بعضاً من طعامه أثناء تناولهما الطعام معاً، واليوم أتى المريض الأقدم شاكياً إليّ ما يفعله المريض الأحدث معه طالباً مني التدخل لكيلا يثقل عليه بهذا الشكل، وعندها لم أتمالك نفسي من

الضحك حين علمتُ بالمصادفة العجيبة التي جمعت بينهما، ورآني حينئذ الدكتور "عباس" وحدث ما رأيته.

قال "مراد" -: إنها صدفة عجيبة حقاً.

- أعلم أنني أخطأت حين ضحكت بهذه الطريقة، لكنني أراك استطعت التماس العذر لي، أغرب ما في الأمر أنه قال لي كلاماً لا صلة له بما حدث؛ إذ قال لي أنني أتدخل فيما لا يعني، وأناي لا هم لي سوى الحديث مع الفتيات، رغم أن أياً منهن لم تكن بالعنبر آنذاك.

- إن أسرع الناس اتهاماً للآخرين بعيب هو أكثر الناس تحلياً به، فإذا ما وصفك أحدهم بصفة توقن بعدم وجودها فيك فاعلم أنه اشد الناس اتصافاً بها، لذا يفسر كل أفعالك بها.. لا تأبه له.. ولا تدع أعداء النجاح من أمثاله يعيقونك.. ولا تنس أنك تفوقت عليه في مسابقة المؤتمر.

- لم يحدث ذلك إلا بفضل تشجيعك.

- بل بجهدك يا "بهاء".. فقد انكبت على المراجع باذلاً قصارى جهدك، في الوقت الذي اكتفى فيه من يكبرونك بالإجابة المتسرعة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القراءة أو البحث، فكانت النتيجة أن فُزت بعد مطالعتك لأحدث المعلومات وخسروا حين أجابوا في حدود معلوماتهم القديمة.

قال "بهاء" وقد مرت أمام عينيهِ ذكرى خاطفة: - لكنه لم يشترك في المسابقة؛ فقد سمعته يتحدث أمام الممرضات حين كن يتحدثن عن فوزنا قائلاً أنه لو شارك في المسابقة لما تنازل عن الجائزة الأولى لكنه لم يكن لديه الوقت لهذا الكلام الفارغ.

- لا عجب أن يكذب ليبرر فشله.. لقد رأيته وهو يسلم أجوبة المسابقة في نفس اليوم الذي سَلَمْتُها فيه.
- ما أصعب التشخيص وما أهون العلاج، كيف تنصحي أن أتعامل معه؟
- تحاشاه.
- إن تحاشيته فلن يتحاشاني.
- سأتدخل من جهتي؛ فلا تحملن لهذا الأمر هماً.

35- صديقي خط أحمر

- وحين لقي “مراد” “عباس” في اليوم التالي سأله عن سبب انتهاره “بهاء” بتلك الطريقة غير اللائقة فأخبره أنه شخص كسول لا يحب العمل ويترك الأعمال الموكلة له ليتجول في أنحاء المستشفى.
- قال له:- لا تنسَ أنه لم يزل طبيباً يافعاً لم يتعلم بعد كيف يتحمل مسؤولية المرضى، كان عليك إرشاده إلى خطئه بدلاً من انتهاره أمام الجميع بذلك الأسلوب الفظ الذي لا يليق بيننا كأطباء.
- نظر إليه “عباس” بازدراءٍ وسأله:- هل من الممكن أن أعلم لم تدافع عنه؟

قال “مراد” بلهجة تعمد أن تكون خشنة:- ألا زلت في شك من قدراته بعد تفوقه على الكثير ممن يفوقونه علماً وخبرة؟

فهم “عباس” مغزى كلماته، فقد باغتت ذاكرته صورة اصطدامه بكتف هذا الرجل يوم تسليم أجوبة المسابقة ليقع أوراقه والتي أخفى بينها أجوبة المسابقة، وتذكر أيضاً أن “بهاء” كان حاضراً حين أخبر الجميع أنه لم يشترك في المسابقة، ولم يعده إلى الحاضر إلا صوت “مراد” يقول له:- أرجو ألا يتكرر ذلك وإلا فسأضطر للتدخل بنفسي.

تركه متوجهاً لعنبر المريضات للبحث عن ملف “وفية”، وبعد بحثٍ شاقٍ بمساعدة “مشيرة” لم يجد للملف أثراً، فنادى على “جنة” ليسألها عنه، وعلى الفور سمع وقع خطواتٍ خلفه فنظر فإذا هي “ناهد” تقول له:- يمكنني تنفيذ ما تريد؛ فيبدو أنها مشغولة في بعض شأنها.

أجابها وهو لا يكف عن تقليب السجلات:- لا أريد الإثقال عليك بما ليس من عملك.

ونادى على “جنة” مجدداً.

- لا مشكلة لدي؛ فأنا أود متابعتك للتعلم منك.

- لا بأس ببقائك معنا إن أردت التعلم.

وعاود النداء على “جنة” فغادرت المكتب مسرعة، وما هي إلا لحظات حتى دخلت “جنة” سائلة:- هل أخبرت الدكتورة “ناهد” أنك تريدني شخصياً؟

توقف عن تقليب السجلات وقال لها:- كلا لم أقل ذلك، لم أرد أكثر من أن تأتي لأسألك عن سجل "وفية"؛ فقد وانتنتي فكرة أردت تنفيذها.

- إنك لم ترَ نظراتها إليّ وهي تقول لي:- الدكتور "مراد" يريدك شخصياً.

- أعتذر لك إن تسببتُ لك في أي إحراج، لكنني حقاً لم أقصد ذلك، كما أن زميلتك موجودة وقد رأت الموقف بأكمله.

تدخلت "مشيرة" قائلة:- لا تعتذر يا دكتور "مراد".. ولا تشغلن بالك بهذا؛ فنحن نعلم كيف نكيل لها الصاع صاعين.

- بل أنا من سيرد لها فعلتها هذه.

وبعد مزيد من البحث لم يجدوا الملف المطلوب، وأخبرهما "مراد" أنه فكر في تقديم حالتها في مؤتمر المستشفى القادم لكن لن يمكنه ذلك إلا إن ظهر سجلها أولاً، فقالت له "جدة":- لا مشكلة، فكل بياناتها مسجلة بملفاتنا نحن.

وفور أن استقر بمكتبه أتت إليه "ناهد" لتخبره أن إحدى مريضاته تنام نهاراً وتستيقظ طوال الليل فقال لها:- ألا تعنين تلك المريضة بعته الشيوخوخة؟ أليست هذه إحدى خصائص المرض؟!

- ألم تطلب من الجميع إبلاغك أية معلومة عن المرضى؟

نظر إليها بغیظ وقال:- لقد طلبت إبلاغي بالمعلومات المهمة، لا المعلومات العادية.

- إنها ليست فكرة تافهة، وبفرض أنها فكرة تافهة.. ألم تأتِ أعظم الاكتشافات الطبية نتيجة أفكارٍ تافهة؟ ألم يأتِ البنسلين الذي غير تاريخ الطب من فطر متعفن تافه؟

ابتسم سُخرية ثم صفق لها وقال:- أين قرأت هذه الجملة؟

فردت عليه بطريقة آلية:- في إحدى الروايات القديمة.

ثم تنبّهت لسؤاله فسألته:- وكيف عرفت أنني قرأتها؟

- لأنني قلت أنها معلومة عادية ولم أقل أنها فكرة تافهة فشعرت أنك تحفظين شيئاً تريدان قوله بأي طريقة وإن لم يكن متناسباً مع الموقف.

ولأنه لا زال يدين لها بفضل تعليمه الموسيقى فلم يشأ مصارحتها بالسبب الأقوى.. لم يشأ أن يقول لها أن هذه الكلمة لا تتناسب مع شخصيتها ولا مع ثقافتها، ورغم ذلك لم يستطع منع نفسه من أن يقول لها:- العجيب أن الممرضات قد فهمن ما أعني، فلم يخبرنني إلا بأمر ذي بال، ولم تعيه أنت وأنت الطبيبة المتخصصة.

قالت له وقد تغيرت لهجتها لتصير أرق وألطف:- الحقيقة أن هذا ليس السبب الوحيد، فقد أردت التحدث إليك في أمر أكثر أهمية.

وقبل أن تسمع إجابته نادى على "جنة" التي رأتها تمر أمام باب المكتب وقالت لها:- ما بال العنبر اليوم؟ إن معظم الملاءات متسخة.. لم لا تبدلينها؟

وفهم أن الرسالة موجهة إليه، وكأنها تعيد تذكيره أن “جنة” ممرضة فحسب، إن كان قد نسي ذلك، وقبل أن تجيبها “جنة” سارع بالقول:-
تفضلني بالجلوس يا “جنة” فأنا أريد التحدث إليك.

ثم قال لها بغلظة:- إنه ليس عملها، إنها مشرفة تمريض.. يمكنك طلب ذلك من أي ممرضة بالعنبر.

أجابته وقد ظهر الغيظ واضحاً عليها:- حتى إن لم يكن عملها فلن يضيرها أن تفعل ذلك متطوعة لعمل الخير.

واصل بنفس لهجته الهادئة:- إن أردتِ التطوع لفعل الخير فلن نمنعك، لكن رجاءً لا ت فرضي التطوع على الآخرين.

36- اكل هذا دفاع؟!

وأثناء مرور “مراد” وفريقه على المريضات رأوا “وفية” تعاني آثار كابوس خانق فقالت “ناهد”:- أحضري مهدئاً يا “جنة”.

لكنه أشار إليها ألا تذهب، وأوقف “وفية” بلطف، وبعدما هدى من روعها سألها عما كانت تحلم به فقالت أنها رأت “سرحان” يجري خلفها ليقتلها.

ثم سأل “ناهد”:- هل تعلمت أن تصدري الأوامر في وجود رؤسائك؟

تغير وجهها لما شعرت به من حدة نبرته، ولأنها خشيت أن تنفجر باكياً همت أن تتحرك مبتعدة عن المكان، لكنه لم يدعها وعاد يسألها عن وجهتها فأجابته بصوت مختنق وهي تشيح بوجهها بعيداً:- سأصعد لغرفتي؛ فقد شعرت بإرهاق مفاجئ.

لكنه عاد يسألها بنفس حذته:- وهل أذنتُ لك؟

أجابته:- عفواً.. أستاذك.

- ليس قبل انتهاء المرور.

تبسمت بعدما شعرت ببعض السرور؛ فقد ظنته يريد مصالحتها فقالت بلهجة فرحة:- سمعاً وطاعة يا “مراد”.

لكنه أجابها بحدة:- لا تنادينني إلا بلقبني سابقاً لاسمي.

قالت بصوتٍ عاد يخنق مجدداً وهي بالكاد تسيطر على دموعها:- عفواً يا دكتور “مراد”.

فقال ببرود:- يمكنك الانصراف الآن إن شئت.

غادرت المكان على عجل وهي تمسح عينيها أما هو فنظر إلى “جنة” لتسألها عيناها:- هل رددتُ لك بعض حقك؟

فأجابته عيناها:- بل قسوتَ عليها أكثر مما يجب.

ثم سمعا “وفية” تسأله:- ألم تعدني بمساعدتي؟

وعلم منها أن أخواها يأتي لزيارتها فطلب منها إخباره في الزيارة القادمة أنه يريد مقابلته، ثم طلب منها أن تصل له ما انقطع من حديثها عن قصة

دخولها المستشفى فقالت له:- دخل غرفتي ذات يوم ليخبرني باختفاء أوراق هامة من دولابه الخاص فذكرته أنه يحتفظ بمفتاح دولابه معه، فقال أنني ربما أكون قد وضعتها في دولابي عن طريق الخطأ.. فرددت عليه بأنني لا يمكن أن أفتح دولابه الخاص دون إذنه لأن هذا ينتافي وأبسط المبادئ التي رُبِّيتُ عليها، رافضة تلميحه باتهامي بسرقة أوراقه، فقال لي:- نَحْي حديث المبادئ والأخلاق هذا جانباً، ثم قال كلاماً كثيراً لم أفهم منه إلا القليل، شيء من قبيل أنني منذ زواجنا وأنا أحاول إعاقته والوقوف في طريق نجاحاته وإنجازاته العلمية لأنني أشعر بالحقد الكامن تجاهه منذ منعه لي عن العمل، ولأنني لم أستطع إخراج حقدي نحوه على مستوى الوعي فاندفعتُ على مستوى اللاوعي لأخذ مفاتيحه وسرقة أوراقه ووضعها في دولابي تنفيساً عن حقدي.

لم أتمالك نفسي بعد هذا الاتهام المباشر ففتحت دولابي على مصراعيه لألقي ما بداخله إلى الأرض وأنا أقول:- هذا دولابي.. ولتبحث فيه عما تريد بدلاً من إسماعي نظرياتك السخيفة هذه.. وفجأة..

- ماذا حدث؟!

- رأيت أوراقاً تتطاير من بين ملابسي، فَاسْقَطَ في يدي.. وجذب بعضاً منها وعرضها أمام وجهي قائلاً:- ألا زلتِ مُصَرَّةً على سخف نظرياتِي؟

سألها "مراد":- أكان دولابك هذا مُغلقاً؟

- كلا، وَلِمَ أغلقه وليس بالمنزلِ سوانا؟! إنه هو من كان حريصاً على إغلاق دولابه طوال الوقت.

- وَلِمَ كان موقناً من وجود أوراقه في دولابك بالذات؟ فحتى لو كان ادعأؤه صحيحاً، أما كان الأفضل أن تمزقيها أو تحرقها بدلاً من وضعها بدولابك المفتوح؟

قالت وقد شعرت بالفرح يغمرها:- إنك تعيد إليّ ثقتي بنفسي بعدما فقدتها.

- حسنا وماذا حدث بعد ذلك؟

- قال لي بعد تكرار عثوره على أغراضه الخاصة بدولابي:- إنك تعانين من مرض نفسي يُدعى “هوس السرقة”، وهو داء نفسي يستلزم علاجاً بإحدى المستشفيات النفسية، وظل يردد كلماته هذه على مسامعي حتى أيقنتُ بصدقه فلم أجد بداً من الرضوخ لنصيحته.

- لكنه لم يُشرْ لذلك مُطلقاً في سجلات المستشفى.

- لقد أخبرني أنه لن يذكر ذلك حفظاً لماء الوجه، وسيكتب بدلاً منه أمراً آخر، وطلب مني ألا أتحدث إلى أي من الاطباء أو الممرضات لكيلا يعرفوا مرضي ويتحول الأمر إلى فضيحة للعائلة.

- صارحيني يا سيدتي.. هل عُرفَ عنك هذا الأمر من قبل؟

- أقسم بشمسنا المقدسة يا سيدي أن ذلك لم يحدث مني قط؛ فلم نُنشأ إلا على فضائل الأخلاق، بل إنني كنت أعيد أغراض صديقتي إليهن حين أعثر عليها.

صمت هنيهة يستجمع أفكاره ثم قال لها بهدوء:- حتى إن صدقنا مزاعمه، فما أبعد ما حدث عن داء هوس السرقة؛ فالمريض به يكون

واعياً بما يفعل لكنه لا يستطيع مقاومة الدافع للسرقة، كما أنه يشعر بلذة كبرى بعد إنجاز مهمته وهو ما يختلف تماماً عن قصتك، وفضلاً عن هذا وذلك فإن هذا المرض غالباً ما يُعالج دون الحاجة للحجز بالمستشفى.

قالت له وقد ازدادت بهجة:- ألم أخبرك أنك تصر على منحي بعض الثقة التي افتقدتها منذ زمن بعيد؟

- إنما أخبرك بالحقائق العلمية وخلاصة تجربتي وخبرتي.

صمت مجدداً وقد استغرقه التفكير، وقبل أن يوجه إليها سؤالاً جديداً رأى عينيها تتعلقان بالفراغ المجاور له، فعلم أن "سرحان" قد أتى فلم يلتفت إليه.. وهو ما جعله يقول له في غيظ:- لِمَ تُصِرُّ على الخلوة بها؟ ماذا تريد منها؟

استدار إليه وصاح فيه:- أي خلوة يا هذا؟ ألا يكفيك كل هذا الكم من المريضات والمرضات والعاملات؟ لقد داهم زوجتك كابوس...

قاطعته ببرود شديد قائلاً:- دعني أفلها لك بصراحة.. إن كنت تريدها فسأتنازل لك طوعاً عنها بدلاً من أساليبك الملتوية هذه، فيبدو أنه لا يحلو في عينيكَ إلا ما في يد غيرك.

وتطوعت "مشيرة" للرد هذه المرة قائلة:- ماذا حدث؟ لقد أخبرناك أن كابوساً قد أصابها فأيقظناها.

نظر "سرحان" إليها ولم ينبس ببنت شفة، وما كان أشد دهشة "مراد" حين رآه ينصرف فوراً.

وحين عاد ثلاثتهم إلى مكتبه قالت له "مشيرة":- لا تدع حماقته تغضبك.

سألها عن سبب صمت "سرحان" المطبق أمام هجومها الشرس فضحكت وتبادلت النظرات هي و"جدة" ثم أخبرته بالسر؛ فقد رآها بالطريق يوم تسلمه العمل بالمستشفى فغازلها، وحين أتى لتسلم العمل فوجئ بها بالعنبر الداخلي، ومنذ ذلك الحين وهو يتحاشاها.

ولم يستطع التغلب على شعوره بالضيق بقية اليوم، حتى لاحظته عليه "بهاء" وسأله عن السبب أثناء تناولهما الطعام معاً، فقال له وهو ينظر بعيداً:- أمشاعري واضحة هكذا؟

- إن قلبك النقي لا يستطيع لمشاعره إخفاءً، تماماً كجدول الماء الرقراق الذي تطلع على أعماقه فور النظر إلى سطحه.

لكنه ظل على صمته فواصل "بهاء":- إن لم تُطلعني على ما بك - كما تعودت أن أفعل دوماً معك - فساعد حديثك عن صداقتنا مجرد كلام لا حقيقة.

وقص عليه ما دار بينه وبين "سرحان" فقال له:- بل هو من يحب أخذ ما في أيدي الآخرين، إن صاحب العيب هو أول من يراه فيك ويتهمك به.. أليست هذه كلماتك؟ فما هو يتهمك بعبثٍ ليس فيك ولا اتهمك به أحد قبله.

وسطعت الحقيقة أمام عينيه، وتعجب كيف لم ينتبه إليها من قبل، فربت على كتف "بهاء" قائلاً:- يالك من تلميذٍ نجيب.. لقد هدتني كلماتك هذه إلى حل اللغز.

37- يالاء من وفية

عاد إلى مبنى المريضاتِ بصحبة "بهاء" ليطلب من "مشيرة" إحضار "وفية" إلى مكتبه دون أن يشعر أحد، فسألته متبسمة:- وماذا إن عاد؟

- في هذه الحالة عليك التصدي له.

أنت "وفية" بصحبة "مشيرة" و"جنة" فقال لها بعد أن أحكم إغلاق الباب:- سيدتي، اود أن أسألك سؤالاً هاماً: هل سبق له هو أن أخفى عنك أيّاً من أغراضك؟

اعتصرت ذهنها ثم قالت:- أجل، فقد اكتشفت اختفاء علبة زينتي الباهظة الثمن والتي كنت أعتز بها اعتزازاً شديداً لأنها هدية منه أيام خطبتنا الأولى، وحين سألتها عنها أنكر تماماً معرفة أي شيء عنها، وذات مرة أثناء فتحه لدولابه أمامي رأيت طرفاً منها بين أغراضه، وقبل أن أمد يدي نحوها كان قد رأى ما رأيتُ فسارع بإغلاق دولابه.

- وهل لاحظتِ اختفاء أشياء أخرى؟

- كانت ثمة أشياء تختفي من آن لآخر، لكنها لم تكن أشياء هامة أوغالية الثمن.

- هناك سؤالٌ أخير ربما كان مُحرجاً بعض الشيء، لكن لا بد لي من معرفة إجابته منك لتكتمل الصورة أمامي.

- سلّ ما بدا لك يا سيدي.

- ألم تكن لك علاقة مع أي رجل قبل تقدمه لخطبتك؟

- فهمت ما تعني.. لم تكن لي إلا صداقة قوية مع أخيه الأصغر بحكم دراستنا معاً، لكن الشائعات التي نُسِجت في محيط عائلتنا زعمت أن قصة حب تدور بيننا، بل وأننا اتفقنا على الزواج بعد انتهاء دراستنا لكن أياً من ذلك لم يحدث.

- وهل كان زوجك على علم بتلك الشائعات؟

- غالباً؛ فقد كنا أنا وأخوه نتبادل الزيارات للاستذكار معاً، وأثناء ذلك كانت تحدث بعض التعليقات من أقاربنا في حضوره.

- وكيف كانت علاقته بأخيه هذا؟

- كانا دائمي الشجار والخلاف، وقد أخبرني "سرحان" عدة مرات أنه يكرهه لأن تدليل أمه الزائد له قد أفسده، رغم أنني لم أر فيه شيئاً من ذلك.

وبدا كأنها أرادت قول شيء ثم أحجمت، فنظر إليها مشجعاً، فقالت له على استحياء:- هناك أمر لا أعلم إن كان يحق لي أن أبوح لك به أم لا؛ فهو أحد أسرار العائلة، لكنك طلبت مني أن أطلعك على جميع التفاصيل، أليس كذلك؟

- كما تشائين، لكن أياً كان ما تقولين فلن يتجاوز حدود هذه الغرفة.

- لقد انفصل أبواه منذ أعوام بشكل مفاجئ، لا أحد يعلم السبب بالضبط، لكن البعض يقول أن ذلك حدث بعد اكتشافه خيانتها له، ويقول البعض الآخر أنها كانت مريضة نفسية ولم يتحمل زوجها مرضها، وعلى أية حال فقد ماتت بعد انفصالهما بقليل.

- وكيف كانت علاقته بك؟ أعني مشاعره نحوك..

- لا أدري كيف أصف لك ذلك بالضبط، لكنني كثيراً ما احترت إن كان يحبني أم يكرهني، بل إنني كنت أحياناً أشعر به يحبني ويكرهني في آن واحد.

- وماذا عن.. عن علاقتكما الخاصة؟

- رغم كل ما ذكرته لك عن اتهاماته لي، فقد ازداد اقترباً مني في الأيام الأخيرة بل وصار أكثر عنفاً، وحين كنت أحاول الامتناع عنه يتهمني بأبشع الاتهامات فلا أجد بُداً من الرضوخ لرغبته.

تجمعت الخيوط أمام عينيهِ، وظل لبرهة متحيراً إن كان واجباً عليه إخبارها باستنتاجاته أم لا، وأخيراً حسم أمره مقررّاً إعطائها فكرة عامة غير مفصلة.. قال لها:- إن زوجك يا سيدتي يعاني اضطراباً نفسياً لا أعلم ماهيته بالضبط فهذا يستلزم جلوسي معه والاستماع منه، وهو ما أظنه مستحيلاً.

أجابته في دهشة:- اضطراب نفسي؟! وهل يمكن أن يُصابَ الطبيب النفسي بالمرض النفسي؟

ابتسم وقال لها:- وما المانع؟ أليس الطبيب النفسي بشراً؟ فلأنه كذلك فهو عرضة للإصابة بجميع أنواع المرض، لا يشذ عن ذلك المرض النفسي، ألا يمرض طبيب القلب بأمراض القلب؟ ألا يُصابُ جراح المُخ بأمراض المخ؟ فما الذي يمنع إصابة الطبيب النفسي بالمرض النفسي؟ لا سيما إن تعرض لمثل ما تعرض له زوجك من تفضيل أخيه الأصغر دوماً عليه.

- وأينا - يا سيدي - لم يتعرض لتفضيل والديه أخاه الأصغر عليه؟ لكننا لم نُصَبْ جميعاً بالمرض النفسي!

- إن الإصابة بالمرض النفسي - يا سيدتي - أمر معقد، فهو نتاج تضافر مجموعة من العوامل الجسدية والاجتماعية والبيئية، فوجود العامل الوراثي وحده - مثلاً - ليس كافياً، فالجينات لا تورث المرض وإنما تورث فقط الاستعداد له، ويلزم ظروف ترسب المرض حتى يظهر جلياً، كما أن هناك علاقة تكاملية ما بين الاستعداد للمرض ومرسبات المرض، فإن كان أحدهما ضعيفاً وجب أن يكون الآخر قوياً لإحداث المرض.

- لم أفهم كثيراً مما قلّت لكن ما أريد معرفته.. هل يمكن علاج ما به أم لا؟

- لا يختلف المرض النفسي من حيث قابلية العلاج عن أي مرض آخر، إن اختلافه الحقيقي في كون عملية العلاج تستلزم الانتظام على تناول العقاقير لمدة طويلة، إضافة إلى تفهم الأسرة أو شريك الحياة لطبيعة المرض.

هتفت بحماس:- إني مستعدة لقطع طريق العلاج معه حتى نهايته.

- إنكِ حقاً "وفية".

- لم أكن أعلم أن ما به مرض يستحق العلاج.

- بل إنكِ تحبينه، فلولا حبك له لما غفرت له كل ما فعل معك ثم تقررين الوقوف بجواره.

- لكن لي شرط واحد.

- ما هو؟

- أن يعلم أنه مريض، وأن يوافق على تلقي العلاج.

- اتركي هذا الأمر لي.. ولا تنسي إرسال أخيك إلي فور حضوره.

وبعد خروجها من مكتبه سأله “بهاء”:- أحقاً يمكن أن يُصاب الطبيب النفسي بالمرض النفسي؟

- وهل كوننا أطباء نفسيين كافياً لوقايتنا من المرض النفسي يا “بهاء”؟ على العكس فإن مهنة الطب إحدى أكثر المهن إحداثاً للضغوط النفسية والعقلية لأصحابها، وأرى الأمر يزداد في حالة الطب النفسي. أما إن كنت تعتقد أن المرضى النفسيين ليسوا إلا أولئك المحجوزين بالمستشفيات النفسية أو المترددين على عياداتها فقد جانبك الصواب، فنحن لا نتعامل إلا مع قلة من مرضانا أما البقية الباقية فلا يطرقون بابنا ولا نعلم عنهم شيئاً.

38- أنت مريض

استدعاه مديره ليخبره بأن أطباء التدريب بالمستشفى طلبوا إليه تنظيم محاضرات لتعريفهم بالطب النفسي وطريقة عمل المستشفى، وأنه أوكل إليه مهمة المحاضرة التمهيدية والتي سيكون موعدها غداً بعد انتهاء مؤتمر المستشفى الأسبوعي.

وانتهز “مراد” الفرصة ليتحدث إلى مديره عن “سرحان” ومدى مهارته، فعلم منه أن “سرحان” ليس كفواً للعمل، بل إن الرجل صارحه أنه سعى

في نقله قبل ذلك مراراً نظراً لتركه المتكرر لموقع عمله فضلاً عن تدني مستواه العلمي لكنه لم يستطع، فهو مفروض على المستشفى بحكم قرابته لبعض السلطات العليا بالدولة، كما علم منه أنه لا يعمل بأي مستشفى خاص، فجميع أصحاب تلك المستشفيات أصدقاء للمدير، وكان سيعلم بالضرورة لو أنه يعمل في أي منها.

وبعد مغادرته مكتب مديره بحث عن "سرحان" حتى وجده جالساً على الشاطئ.. اقترب منه في هدوء، وما أن شعر به "سرحان" حتى نظر إليه نظرة تفيض حقداً، فقال له:- "سرحان".. دع كل خلافاتنا السابقة ولنتحدث كزميلين.

- ما أجمل أن تشجع زوجتي على فراقني ثم تمد إليّ يدك مُصافحاً.

- أيّ مأفون ذاك الذي أوهمك بذلك؟ بل كيف تقول أنها تريد فراقك؟ إنها تحبك.. تحبك يا "سرحان" وهي على أتم الاستعداد لقطع طريق العلاج معك حتى نهايته.

- العلاج؟!

- نعم يا "سرحان"، فلديك اضطراب نفسي، ولا بد لك من الاعتراف بذلك بدلاً من ترك نفسك نهباً للصراع النفسي ليقودك إلى مصير مجهول.

- ومن أي مرض أعاني يا ثري؟ وأي طبيب جهّز ذاك الذي شخص علتي دون أن يفحصني؟

- إنك تعاني اضطراباً نفسياً يا "سرحان"، لا أعلم بالضبط ما هو، ولا أريد أن أعلم، لكن لديك أعراضاً نفسية كثيرة لا بد أن تخضع للفحص من أجلها.

- عم تتحدث؟! -

- حسناً، إن لديك أفكار عَظَمَة كثيرة، فأنت تؤمن أنك أفضل من الجميع وهذا مناقض لرأي معظم المحيطين بك، ولديك أفكارُ اضطهادية حيث تشعر دوماً أن الآخرين يُنزلوك دون قدرك، ولديك اتهامات للآخرين بخيانتك، كتلك التي دأبت على إلصاقها بزوجتك فضلاً عن اتهامك لها بالسعي لقتلك أو تسميمك، وأفكارُ المرجعية حيث تشعر أن الناس يتحدثون عنك بلا أدنى دليل لديك. لكن لحسن الحظ أن هذا الاضطراب لم يصبك إلا بعد تلقيك صدمة نفسية قوية.

- أي صدمة تلك أيها المحلل العقري؟ -

- لقد أخطأت حين صدّقت الشائعات الزاعمة بأن قصة حب تدور بين “وفية” وأخيك؛ فما كانت علاقتهما أكثر من صداقة بريئة، وهو ما جعلك تسارع بخطبتها محاولاً اختطاف الفتاة التي ظننته يحبها كي ترد له بعض ما كان يفعل معك طوال طفولتكما حين كان يأخذ منك دوماً ما تنتهي في ظل تشجيع أمكما له وحنانها الزائد عليه، لكن الأمر تفاقم معك حين أتى ذلك على عكس توقعك تماماً؛ إذ أن ذلك لم يُحزنه، وهذا ما حدا بك إلى الظن أنهما فرحا بالزواج لأنه سيجعلهما أقرب وأنهما سيخوناك، وربما كان هذا سبب تفكيرك في حجزها بالمستشفى كي تكون دوماً أمام عينيك وهي التي ما كانت لك إلا زوجة “وفية” حقاً.

نظر إليه في ذهول وقال له بلهجة خلت من السخرية هذه المرة:- من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟

واصل بعدما أكد له السؤال الأخير ولهجته صدق تحليله:- لا بد لك أن تقر بمرضك يا “سرحان”.. كيف نستطيع مد أيدينا بالعلاج لمرضانا إن لم

نؤمن نحن بحقيقة المرض النفسي؟ كيف نحاول إقناع الآخرين بما لم نستطع إقناع أنفسنا به؟

- وهكذا تثبت للجميع مدى علمك واستحقاقك لكل ما قيل عنك حين تذيع أنك أنت من اكتشف إصابة الطبيب النفسي بالمرض النفسي وأنت الوحيد القادر على معالجتني.

قال له بلهجة أكثر رقة:- أعدك بأن يبقى الأمر سراً بيننا، كما أنني لا أستطيع تولي عملية معالجتك؛ فالعلاج مع المعارف لا يجدي كما تعلم.. يمكنك الذهاب إلى أي مكان آخر تُحفظ لك فيه السرية التامة.

- كلا. بل سأشكوك للنقابة، وسأتهمك بالإخلال بشرف مهنتك، سأقول أنك عشقت مريضتك أيها الطبيب الهمام.

قال له "مراد" وهو يغادر المكان:- أنصحك ألا تفعل؛ لئلا ينقلب الأمر وبالأعلى عليك في النهاية.

نظر إليه "سرحان" نظرة لم يفهم لها معنى ثم سارع بمغادرة المكان، وقبل مضي ساعتين علم "مراد" أنه أخرج زوجته من المستشفى وقد كتب في ملفها - الذي عاد للظهور فجأة - أن سبب الخروج عدم تحسن الحالة.

39- الصفء الذهني

جرت العادة بمستشفى "السلحفاة" منذ إنشائها على إقامة مؤتمر علمي أسبوعي يجتمع فيه أطباء المستشفى بقاعة مؤتمراتها الكبرى بغرض الإطلاع على أحدث ما وصل إليه العلم وتبادل الخبرات فيما بينهم.

بدأ المؤتمر كالعادة في تمام الساعة السابعة صباحاً بعرض قدمه أحد أخصائيي المستشفى حول خصائص أحدث عقار مضاد للاكتئاب تم طرحه في الأسواق منذ أيام.

ثم أتى موعد الجلسة الثانية، والتي تدور عادة حول حالة أحد المرضى المحجوزين بالمستشفى، وكان "مراد" قد قرر عرض حالة "وفية" بالمؤتمر ليزيد من حرج موقف "سرحان" وذلك بكشف زيف تشخيصه أمام الجميع، لكنه فور علمه بإخراج زوجها لها من المستشفى استبدلها بحالة الشاب الذي يجمع الأوراق من الطريق.

وعُرضَ التاريخ المرضي للشاب كاملاً ونتائج الفحوصات التي أجريت له منذ دخوله المستشفى ومدى صعوبة تشخيص الحالة، ثم عرض الأخصائي النفسي نتائج اختباره على المريض، وبعدها قدمت الممرضة المسؤولة عن متابعة الحالة ملاحظاتها التمريضية، وأخيراً دُعيَ المريض لمناظرته وتوجيه الأسئلة إليه، وفي الختام فُتِحَ باب النقاش للجميع ليدلي كُلُّ منهم برأيه محاولة للوصول إلى أقرب التشخيصات لمرضه ومحاولة حل مشكلة التشخيص.

وبعد تداول الآراء وتحليلها تراوحت التشخيصات المبدئية ما بين خمسة أمراض:- فمن قائلٍ أنه الفصام لأن المريض لديه ضلالات راسخة أدت إلى تعطيله عن عمله، وقال آخرون أنه لوثة الهوس؛ لأن المريض أبدى نشاطاً زائداً في الآونة الأخيرة، بينما ذهب البعض إلى أنه اضطراب الدافع حيث لا يستطيع المريض مقاومة دافع جمع الأوراق، ورأى فريق رابع أنه اضطراب الوسواس القهري حيث تتولد لدى المريض فكرة تُسبب له القلق إن لم ينفذها، أما الرأي الخامس فكان ضلالة الفكرة الواحدة.

وعلق المشرف على المؤتمر على ذلك بأن اختلاف الآراء هذا هو المطلوب لأن هذه الحالة ليست سهلة كما يبدو للوهلة الأولى، وما كان الغرض من هذا المؤتمر الاتفاق على تشخيص، وإنما إحداث حالة من العصف الذهني وتبادل الأفكار والآراء ليحدد الحاضرون معلوماتهم أو على الأقل يُنشطون معلوماتهم القديمة.

وأنهى كلمته بقوله أنه لا يمكن الجزم بالتشخيص النهائي قبل وضع المريض تحت الملاحظة لمدة أطول واستكمال ما تبقى من فحوصات واختبارات.

40- الطب النفسي على جناح طائر

وبعد انتهاء المؤتمر غادر الجميع القاعة سوى "مراد" وأطباء التدريب الذين كانوا بانتظار سماع أول محاضرة لهم عن الطب النفسي.

وقد خيروهم "مراد" ما بين إلقاء الأسئلة التي تشغلهم وإجابته عليها وبين إعطائهم مقدمة عن الطب النفسي فاختر الأغلبية الخيار الثاني.

إلا أن أحد الأقلية قال أنه لا يجد بداً من الخضوع لرأي الأغلبية لكنه يود معرفة إجابة سؤال واحد قبل الشروع في المحاضرة، قال:- في كل فروع الطب لا يتم التدخل الطبي أو وصف العلاج إلا بعد الوصول للتشخيص الدقيق عن طريق العديد من الإجراءات والفحوصات، إلا في الطب النفسي، ففور أن يسمع الطبيب شكوى من مريضه يبادر بكتابة العلاج قبل إجراء أي فحص لإثبات أو نفي تشخيصه.

أجابه "مراد:- لو انتظرت سماع المحاضرة لسمعت الإجابة على سؤالك هذا، لكن لا بأس، سأجيبك عنه الآن، مرّد هذا لسببين:- أولهما أن الأمراض النفسية تنشأ نتيجة خلل في وظائف المخ وليس في تركيب المخ، لذا لا نتوقع أن نجد تغيراً في التركيب التشريحي يدل دلالة قاطعة على المرض، أما السبب الثاني والأهم، فلنتخيل أن مريضاً أتاك يشكو أنه مكتئب، هل من المنطقي أو حتى الإنساني أن نتركه تحت وطأة المرض الذي ربما أودي بحياته قبل حتى أن يستكمل فحوصه وأشعاعته؟ أليس الأجدر بنا أن نبدأ علاجه، فإذا ما أتت نتائج الفحوصات مغايرة لتشخيصنا أمكننا استبدال خطة العلاج بناءً على النتائج الجديدة؟

ثم بدأ في إلقاء محاضراته تحت عنوان "الطب النفسي على جناح طائر" والتي قال فيها:- لقد لخصت لكم الطب النفسي في عشرة كلمات إذا ما أدركتموها أدركتم روح الطب النفسي.

أولاً:- لكي تكون طبيباً نفسياً ناجحاً عليك أن تعودَ أذنك السماع قبل أن تعود لسانك النطق؛ فهكذا كنت منذ مهدك؛ فالناس عامة ومرضانا خاصة يحتاجون إلى من يسمعهم أكثر من حاجتهم لمن يستمعون إليه، لذا عليك أن تتحلى بأذان مصغية قبل أن تتحلى بلسانٍ ناطق. إن لم تكن لديك القدرة على الاستماع لحكايا الناس السخيفة وقصصهم المتكررة فلا تعملن بالطب النفسي. كما أن هذه الحكايا والقصص إن لم تفدك في حالة مريضك الحالي فلا شك ستفيدك مع مرضاك التاليين.

ثانياً:- لا توجد للآن أجهزة أو معامل تبرهن على صحة تشخيصك أو خطئه، فكلارك بالنسبة للمريض مُصدّق وهو راجع لجدك واجتهادك، وهو ما يزيد من مسؤوليتك، لا سيما في الجرائم المتعلقة بالمرض النفسي؛ فتقريرك هو الذي سيحدد إن كان مرتكب الجريمة مريضاً نفسياً يجب

إيداعه المستشفى، أم مجرم عتيد لا بد من تطبيق أحكام القانون عليه بكل صرامة.

ثالثاً:- تبدأ علاقتك العلاجية مع مريضك فور التقائك به، وبالنسبة لي فإني أقرر في تلك اللحظة إما أن أكمل أو لا أكمل؛ فعمليات الفحص والتشخيص والعلاج عمليات متصلة مستمرة متداخلة، فأتثناء عملية الفحص قد تحدث فوائد علاجية نتيجة لما تقوم به لتحقيق الألفة بينك وبين مريضك من حيث تهدئته وإزالة مخاوفه وتصحيح مفاهيمه، فهي ليست مجرد تمهيد للعلاج؛ فالمريض يشعر بالثقة ويكتشف الحقائق عن نفسه ويزداد فهمه لشخصيته ويستريح لبوحه بمشكلاته وتخلصه من التوتر، ويطمئن حين يشعر بانتقال المسؤولية للمعالج الذي صار يعرف المشكلة والذي شخص المرض، وهنا يشعر كل من المعالج والمريض أن شيئاً قد تم وأنجز؛ فأسباب المشكلة أو المرض والأعراض قد وضحت والمرض قد شُخص وتحدد طريق العلاج وزاد الأمل في الشفاء.

رابعاً:- الأعراض: من الخصائص المميزة للطب النفسي أنه لا يوجد مريضان يتشابهان تماماً في أعراض ولا علامات مرضية؛ فكل مريض حالة خاصة تختلف عن جميع المرضى الآخرين، والأعراض نفسها متداخلة وتصنيفها محاولة لأعراض الدراسة والمعرفة فقط، فليس بالإمكان تقسيم الجهاز النفسي إلى أقسام يستقل بعضها عن البعض الآخر؛ فهي جهاز متكامل، وما من إنسان يخلو من الأعراض النفسية وفي نفس الوقت يندر أن تجتمع كلها في مريض واحد، وكل منا لديه استعداد للمرض إلا أننا تختلف في درجة مقاومتنا، فبعضنا تعلو درجة مقاومته بينما قد يتعرض البعض الآخر لأسباب تحطم هذه المقاومة، والأعراض قد تبدو واضحة أشد الوضوح حتى يدركها من لا علم له، وقد تتوارى حتى لا تميزها إلا عين خبير، وحين يبدو الشخص مضطرب السلوك

بدرجة تخرجه عن المعيار العادي للسلوك مما يعوق حياته العادية وتوافقه الشخصي والاجتماعي ويعكر صفو سعادته، فإنه يكون مضطرباً نفسياً وحينئذ يصبح العلاج ضرورة ملحة.

خامساً:- كلما أمكن التعرف على الأعراض في وقت مبكر كلما كان ذلك أفضل من الناحية العلاجية؛ حيث يفيد ذلك في نجاح العلاج ويمكن تطور الأعراض، والأعراض تُعْتَبَرُ مظهرًا وعلامة تكشف عن الحياة الخاصة للمريض، وهي ترتبط بحياة المريض وليس لها من معنى بعيداً عن حياته وعن المواقف التي نشأت وتظهر فيها، وهي عادة ما تكون تعبيراً عن رغبات الفرد الدفينة وذكرياته المكبوتة ومخاوفه، وغالباً ما تنشأ عن العمليات النفسية المضطربة التي تسببها عوامل داخلية وأخرى خارجية تعد علامات على محاولة المريض في جهاده وحربه ودفاعه ضد مشكلاته، كما أنها غالباً ما تكون تعبيراً عن اللاشعور، وبالتالي فالمريض قد لا يعي أصلها أو معناها، كل ما يعيه هو وجود ضغط داخلي، فهو يواجه هذه الأعراض كأسلحة لمقاومة هذا الضغط.

سادساً:- ليست الحياة النفسية من البساطة بحيث يكون اضطرابها رهناً بسبب واحد؛ فأسباب المرض النفسي متعددة ومتكاملة، ففي النادر أن نضع أيدينا على سبب واحد مدعين أنه السبب الوحيد للمرض، بل تتعدد الأسباب حتى يصعب الفصل بينها أو تحديد مدى أثر كل منها، وعلينا أن نأخذ في الاعتبار أن الأسباب التي قد تؤدي إلى انهيار شخصية فرد ما قد تؤدي هي نفسها إلى صقل شخصية فرد آخر؛ فالنار التي تذيب الثلج هي نفسها التي تنقي الذهب من الشوائب، ولذا فعلينا ألا نبالغ - أثناء محاولتنا تحديد أسباب المرض النفسي - في الاهتمام بمجموعة من الأسباب على حساب الأخرى، بل يجب الاهتمام بكل من الأسباب الحيوية والنفسية

والبيئية وقابلية الشخص للإصابة بالمرض وهو ما يختلف بالطبع من شخص لآخر.

سابعاً:- هدف العلاج أسمى من مجرد زوال الأعراض أو تحسينها؛ فنحن نعالج المريض وليس المرض، لذا يجب أن يضع كل منا نصب عينيه أن يُعَلِّمَ المريض حل مشكلاته بنفسه وتعديل سلوكه؛ فهذا خير له من أن نحل له المشكلة التي أتانا بها فحسب؛ فأحسن أسلوب لتغيير السلوك هو تغيير مفهوم الذات، وعلينا أن نتجنب تماماً اتخاذ أي قرار بالنيابة عن المريض.

ثامناً:- حيث وُجِدَت البدائل فليس ثمة حل مثالي؛ لذا يجب ألا يقتصر المعالج على طريقة واحدة معتبراً إيها الطريقة السحرية أو طريقة الطرق؛ فليس لأي طريقة من طرق علاجنا أفضلية مطلقة على الطرق العلاجية الأخرى.

تاسعاً:- العلاج النفسي أقدم أنواع العلاج، إنه قديم قَدَمَ البشرية ذاتها لكنه مر بمراحل تاريخية تطورية أدت إلى ما هو عليه الآن، وكل منا يمارسه في حياته اليومية بطريقة غير رسمية، أما الذي يجب عليك تعلمه فهو كيفية استخدام هذا العلاج باحتراف.

عاشراً وأخيراً:- العديد من الأمراض النفسية أمراض أسرة ولا تخص فرداً بعينه؛ لذا يجب في هذه الحالات معالجة الأسرة كلها لا معالجة الفرد مستقلاً عن مجتمعه الذي يحيا فيه وإلا فشل علاجنا.

وفور أن أنهى محاضرتة قبل بموجة من التصفيق الحار، وأخبره بعض الحضور أنهم بدعوا يفكرون في اختيار هذا التخصص بعدما تغيرت صورته تماماً لديهم.

41 - ديوان الشعر

وأثناء انهماكه في مطالعة كتبه مساءً أخذ هاتف الاستراحة يدق بلا انقطاع، وحين أجاب عليه وجد أن المتصل هو أخو "وفية" الذي طلب التحدث إلى "سرحان" في أمر عاجل جداً فوعده "مراد" أن يبلغه فور أن يجده.

وبعد وضعه سماعة الهاتف رأى "سرحان" يدخل الاستراحة، وبدأ عليه الانزعاج الشديد حين أخبره بالأمر، وفور أن رآه يتناول الهاتف غادر المكان لئلا يظنه يتجسس عليه.

لكن "مراد" فوجئ به يدخل عليه غرفته بعد قليل ليخبره - والقلق باد على وجهه - أن زوجته نُقِلَت إلى المستشفى العام بعد تناولها عدد كبير من الأقراص المنومة، وأن حالتها الآن خطيرة للغاية فسأله "مراد": "فَلَمْ تجلس إذا؟ هيا.. اذهب إليها.

- قد أستطيع ترك العمل لساعة أو ساعتين، لكني لا أستطيع ترك العمل من الآن وحتى الصباح.

أصر "مراد" على ذهابه ووعدته بتحمل العمل بدلاً منه بقية اليوم، وكاد أن يطلب منه أن يطمئنه على صحة زوجته فور أن يصل، لكنه أمسك لسانه في الوقت المناسب لكيلا يسارع "سرحان" بسوء الظن.

وخلال دقائق كان بمكتبه مصطحباً أحد كتبه، وما كاد يستقر جالساً حتى سمع طرقاتٍ على باب مكتبه فإذا هي "جنة" تقول له ببشاشة وهي تجلس على المقعد المواجه لمكتبه:- أليست نوبة عمل اليوم للدكتور "سرحان"؟

أخبرها أنه اضطر لمغادرة المكان لظروف طارئة دون الخوض في تفصيلات، وبينما هو يحدثها تناولت الكتاب الذي أمامه لتكتشف أنه أحد كتب التاريخ فقالت له:- ظننته كتاباً علمياً.

- أنا لا أطلع الكتب العلمية إلا في غرفتي الخاصة لأنها تتطلب قدراً من التركيز لا يتوافر لي أثناء الانشغال بالعمل، أما أثناء العمل فأطلع كتب الثقافة العامة ككتب الشعر أو التاريخ أو الروايات.

- أنا أيضاً أحب الشعر.. لقد انتهيت لتوي من قراءة ديوان شعر رائع.

- فهل تودين أن نتبادل الكتب؟

- لا بأس.. سأحضره إليك حالاً.

- ليس الآن.. أريد المرور على المرضى، ويمكنك إحضار الديوان فيما بعد.

- سأطلب من الفتيات التجهيز للمرور.

- وأريدك أن تحضري معنا.. إلا إن كان هذا يشغلك عن عملك.

وعادا إلى مكتبه بعد انتهاء المرور ليتحدثا، لم يدر حديثهما حول موضوع بعينه، إلا أنه لاحظ أن تحدثه إليها في أي أمر - مهما بلغت درجة ثقافته أو ضالته - كفيل بأن يدخل على نفسه السرور وعلى قلبه السعادة، بل إنه كان يشعر بتلك المشاعر بمجرد جلوسهما صامتتين ينظر كل منهما للآخر.

ورغم أنه الرجل الذي أمضى عمره محلاً للعلاقات الإنسانية سابراً أغوارها مستكشفاً دقائقها إلا أنه لم يجد لتلك السعادة سبباً ولا لذلك السرور مبرراً.

ربما لأن هذه أول مرة أتحدث فيها إلى فتاة؟ سائل نفسه.

قد يكون ذلك صحيحاً؛ فهو من الناحية العملية لم يسبق له التحدث إلى فتاة حديثاً يستجلي فيه مكنون نفسه أو يبوح لها فيه بأسراره الخاصة، كل أحاديثه مع زميلات عمله في الأماكن العديدة التي عمل بها لم تخرج يوماً - أو هكذا كان دوماً يصير - عن نطاق العمل.

من يصدق أن رجلاً مثله جاوز الثلاثين من عمره لم يتحدث إلى فتاة حديثاً خاصاً قط؟ ما أعجب ذلك حقاً! ولأول مرة بدأ يشعر بالندم على عدم فعل ذلك من قبل؛ فهو لم يكن يعلم أن الحديث إلى الفتيات ممتع هكذا.

42- خطة خبيطة

وفي الصباح زاره أخو "وفية" ليطلعه على أحداث الليلة الماضية؛ ففي أول المساء ذهب إلى منزل أخته ليطمئن عليها بعد خروجها من المستشفى.. وانتابه القلق حين دق الجرس عدة مرات فلم تجبه؛ لعلمه أنها لم تغادر المنزل، فتحايل بالدخول من الباب الخلفي الذي كان مفتوحاً آنذاك ليفاجأ بها نائمة في فراشها وبجوارها شريط فارغ من الحبوب المنومة وورقة كتبت عليها أنها قررت ترك الدنيا بعد يأسها من الشفاء،

فطلب الإسعاف على الفور لنقلها إلى مركز علاج السموم حيث أجري لها الأطباء هناك غسيلاً للمعدة، لكن حالتها ظلت خطيرة حتى أنها لم تفق من غيبوبتها إلا صباحاً، وحين أفاقت لامها على ما فعلت فأنكرت تماماً أنها فعلت شيئاً من هذا.

كانت آخر ذكرى لها هي تناولها مع زوجها العشاء الذي أحضره معه من الخارج، ثم ما لبثت أن شعرت بالرغبة الشديدة في النوم، حتى أنها لا تتذكر مغادرتها منضدة الطعام ولا ذهابها إلى الفراش.

وحين أفاقت وجدت نفسها في المستشفى، ثم طلبت منه أن يخبر "مراد" وهو سيتولى توضيح كل شيء له بينما تستبقي هي "سرحان" بجوارها بالمستشفى لئلا يعلم أنه التقى به.

وللحظة تحير "مراد" ما بين الحفاظ على خصوصية "سرحان" وبين كشف وقائع جريمة القتل البشعة التي كادت تقع دون أن يستطيع منعها، لكنه سرعان ما أنهى حيرته بأن قرر إطلاع الشاب على الأمر برمته موضحاً له أبعاد الخطة الشريرة التي انتهجها "سرحان"، لكن الشاب قال له بعد أن أنهى حديثه:- لكنه طبيب ناجح ومتقف، لا يشبه من قريب ولا بعيد أولئك المرضى النفسيين الذين نراهم.

- إنك تظلم المرض النفسي بتصورك هذا؛ فهو لا يعني ضرورة ذهاب العقل تماماً والمشى في الطرقات على غير هدى، وإنما هو اعتلال النفس بأي شكل من الأشكال وبأي صورة من الصور؛ فهناك درجات متفاوتة من الصحة والمرض، بل إن كلاً منا مزيج من الصحة والمرض النفسي لكن الاختلاف بيننا في درجة ذاك الاعتلال.

- أصرحك القول أن أختي طلبت إلي مراراً أن آتي إليك فلم أفعل؛ فقد قال عنك "سرحان" أنت وبقية زملائه ما لا يُرضي.

- وما الذي غير رأيك اليوم؟

- لأنني أعرف أختي جيداً، إنها ليست من ذلك النوع الذي يمكن له أن يقتل نفسه مهما اشتدت به الصعاب.

- أخبرني عن حالها قبل زواجها به.

- كانت أعقل قريباتها كما كانت تتحمل مسؤولية منزلنا بمفردها بعد رحيل أمنا.

- وماذا عنه؟

- لم تكن لي به إلا صلة قرابة بعيدة فلم أعلم عنه الكثير.

وفي المساء هاتفه الشاب ليخبره أن أخته تُصر على الانفصال؛ فلم يعد في قلبها مثقال ذرة من المغفرة له بعد فعلته الأثيمة، بل وهددت أخاها أنه إن أعادها إليه مجدداً فستهرب إلى حيث لا يمكن له العثور عليها بعد ذلك أبداً، فنصحته "مراد" بأن يكون الأمر بعيداً عن القضايا والمحاكم؛ لأن المحكمة ربما قبلت بتقرير المستشفى إن هو طلب الاستدلال به، كما أنه يمتلك دليل غياب قوي عن مسرح الجريمة، إذ كان مداوماً بالمستشفى ذلك اليوم، وربما لم ينتبه أحد لخروجه منها.

وبدلاً من ذلك اقترح عليه حلاً آخر ربما ساعدهم على اكتساب شاهد جديد، وهو أخو "وفية" نفسه؛ ففريق العلاج بالعمل ينظم رحلة خلال الأسبوع القادم إلى إحدى جزر "دراكازان" السياحية، وما عليه إلا أن

يأتي لزيارة "سرحان" في أي يوم ثم يزعم له أنه رأى الإعلان عن الرحلة مصادفة ثم يصر على اصطحابه معه لتلك الرحلة؛ فهو أحد مشرفيها ومسموح لكل مشرف باصطحاب فرد معه، متعللاً برغبته في الخروج من الجو الكئيب الذي ألم بالأسرة بعد الأحداث الأخيرة، وهناك سيرى بنفسه وعن قرب طبيعة "سرحان" والتي بُناءً عليها سيبدأون التحرك.

وأعجب الشاب بالفكرة، وقبل انتهاء المحادثة طلب إليه "مراد" أيضاً أن يخبر "سرحان" حين يأتي لزيارته أنه رأى "مراد" وأنه شعر بالكراهية نحوه منذ اللحظة الأولى ثم يصفه ببعض الصفات السيئة فهذا سيروق له كثيراً.

فقال له الشاب ضاحكاً:- رغم أن هذا يخالف الواقع فسأفعله، فلا بد أن لك هدفاً من وراء ذلك.

43- مناطق جديدة تكتشف

ودأب طيلة الأيام التالية على البقاء بمكتبه في صحبة كتبه، ثم التذرع بأتفه الأسباب ليستدعي "جنة" لمكتبه، ويقضي معها الساعات الطوال يتحادثان في شتى الموضوعات ومختلف الأمور.

لم يعلم ما سر تلك السعادة العلوية التي تنتابه حين يتحدث إليها.. ما سر تلك الفرحة التي تجتاح قلبه حين يتجادبان أطراف الحديث في أدق الأمور وأتفه الموضوعات.

وأدرك ان تلك الفرحة لا تتعلق بمعلومات جديدة يكتسبها، وهو أكثر شيء يمكن له أن يدخل السرور على قلبه، فسعادته الجديدة هذه لا تختلف إن تحدثنا في أتفه الأمور عنها إن تحدثنا في أدقها، كل ما يعلمه انه يود لو ظل جالساً إليها يتحدثان ويتحدثان هكذا بلا نهاية وبلا أدنى اعتبار للزمان او المكان.

بل إن تحولاً جذرياً حدث له؛ فهو لم يعد يحب أن يتابع المرضى كعادته، بل صار يضيق بأي أحد يستدعيه الى أحد عنابر المستشفى لان حالة مريض هناك تحتاج لإشرافه المباشر، فذلك سيجبره على مفارقتها، أما أقسى اللحظات فهي حين ينظر إلى الساعة رغماً عنه لتنبئه بقرب انتهاء مواعيد عملهما المشترك، مما يضطره الى مفارقتها لا محالة.

ولم يمه تلك الجلسات سوى انتهاء أسبوع العمل، وخلال يومي الإجازة الأسبوعية شعر بالملل الشديد حتى أنه لم يبال بالبقاء بمكتبه أثناءهما.

وفي مطلع الأسبوع الجديد، كانت أول فكرة تقفز إلى ذهنه فور استيقاظه هي رؤيتها، لم يعلم لتلك الرغبة الملحة سبباً ولا استطاع لها دفعا.. حاول شغل نفسه بالقراءة لكن هيهات، وتساءل بينه وبين نفسه عما كان يفعل طيلة الأيام الماضية وكيف تسرب الوقت من بين يديه وموعد امتحاناته قد أزف فلم يصل لإجابة.

وأخذت رغبته في رؤيتها تتزايد حتى لم يجد بداً من الاستسلام لها، ورغم علمه أنها لن تأتي قبل ساعة، فقد وقف أمام باب مكتبه ينتظرها؛ لأن هذا هو الطريق الذي تسلكه كل يوم حين تأتي في الصباح بصحبة "مشيرة".

وبعد مرور تلك الدقائق الثقيلة المتباطئة رأى "مشيرة" آتية بمفردها..
كاد يجري نحوها سائلاً: - أين "جنة"؟ لكنه تمكن من كبح جماح نفسه حتى
وصلت عنده ليقول لها باسماء: - لقد أتيت منفردة على غير عادتك.

رمقته بنظرة ممزوجة بابتسامة، ثم أخبرته أن "جنة" لديها دورة تدريبية
جديدة طيلة الأسبوع الحالي.

ولأول مرة في حياته يداهمه الشعور بعدم الرغبة في العمل، فقرر
التوجه لمكتب رئيسة تلميذ المستشفى ليستجلي منها حقيقة الأمر.

وحوم حول الموضوع مبدئاً اندهاشه من إرسال المستشفى فتيات بعينهن
لحضور الدورات التدريبية بدلاً من توزيع تلك الدورات توزيعاً عادلاً
بينهن حتى تعم الفائدة جميع طاقم التمريض بالمستشفى، فأوضحت له
رئيسة التمريض أن هذه الدورات تكلف المستشفى كثيراً، كما أن فرصها
محدودة؛ لذا لا يُرسل إليها إلا المشهود لهن بالكفاءة العالية فضلاً عن
حسن التعامل مع المرضى، وعلاوة على ذلك فمدير المستشفى يُشرف
بنفسه على الاختيار النهائي لهن.

عاد إلى مكتبه محاولاً إجبار نفسه على القراءة، فألقى ذهنه شارداً، يقرأ
ثم يعاود القراءة دون فهم.. عاد بعينيه أكثر من عشر مرات على نفس
الفقرة محاولاً فهمها فذهبت كل محاولاته أدراج الرياح.. قرأها بصوت
عالي حتى يزيد من تركيزه لكنها ظلت عصية على الفهم، وأخذت صورة
"جنة" تفرض نفسها عليه، بل إنه بدأ يراها كلما نظر إلى أي صورة
بالكتاب.

وفي موعد الغداء لم يجد شهية لطعام، فتوجه لغرفته محاولاً النوم لكنه
خلصه من أفكاره فلم يستطع إليه سبيلاً، وبعد تقلبه المتكرر في الفراش

مستجدياً النوم العاصي نهض متوجهاً إلى البيانو فوجد نفسه يوقع عليه ألقاً حزينة.

وفي الصباح شعر بحالته تزداد سوءاً فغادر فراشه متوجهاً إلى الشرفة ليمارس هوايته المفضلة.. مراقبة الناس.. لكنه وجد بصره هذه المرة يتجه نحو السماء لا الأرض، ولاحظ - لأول مرة في حياته - أن مشهد السحاب بديع جداً، وبدأ يتنبه إلى أن السحب تتشكل بأشكال جميلة أثناء تحركها على صفحة السماء اللامعة ثم تُستبدل هذه الأشكال بأخرى أشد روعة وجمالاً، فهاتان سحابتان على هيئة وجهين متقابلين ذابا في قبلة ساخنة، وهذه أخرى على هيئة امرأة تضم طفلها في حنان، وتلك ثالثة على هيئة رجل يلوح بيديه مودعاً.

وقرر ترك الشرفة والتوجه إلى الشاطئ لمشاهدة منظر السحاب البديع من هناك.

وأثناء سيره إلى الشاطئ لفت نظره جمال الزهور المتفتحة والأشجار المكتسية بالخضرة على جانبي الطريق، ولأول مرة بدأ يغير وجهة نظره في الربيع.. فهو لم يعد ينظر إليه على أنه الفصل الذي تتأجج فيه ثورة المرض النفسي.. بل صار يراه الفصل الذي تنفتح فيه الزهور وتتبسم الحياة.

وحين وصل الشاطئ اكتشف ما لا يقل عن السحب جمالاً، المحيط. فرغم رؤيته المتكررة للمحيط في بلدته بالجنوب، بدأ يرى جمال الأمواج وحسنها، ولاحظ أن الأمواج يتلو بعضها بعضاً فكأنما هن أخوات تجري كل منهن في إثر أختها لتمسك بذيل ثوبها.

واستغرقه تأمل مشهد السحب والمحيط فلم يخرج من تأملاته سوى صوت الجرس الصباحي يدق إيداناً ببدء العمل.. وتنبه في تلك اللحظة أنه - لأول مرة منذ حضوره إلى هذه المستشفى، بل لأول مرة في حياته العملية - يتأخر عن موعد عمله.

44- خطة إجرامية

وفي مكتبه وجد أخا "وفية" بانتظاره ليخبره أنه عاد من الرحلة مساء أمس، وأنه تحقق أن زوج أخته لا بد أن لديه مشكلة ما وإن لم يعلم ماهيتها بالضبط؛ فهو يعتقد ألا حديث بين متهامسين إلا عنه، كما أنه يبالغ في تفسير كل ما يحدث حوله وكأنه يعنيه هو شخصياً، حتى الأحداث العابرة التي تقع مصادفة يشك في كونها مدبرة.. ولم تخل الرحلة من مشاداتٍ بينه وبين الكثير من الرفاق على إثر إتهامات لهم منه بذلك.

لم تزد هذه البراهين الجديدة "مراد" إلا تصديقاً لظنونه؛ وبدأ يشعر بالرثاء نحو "وفية"؛ فهذا الشاب لم يتحمل "سرحان" رفيقاً في رحلة أياماً قلائل، فكيف بزوجته المسكينة التي تحملته شهوراً رفيقاً في رحلة الحياة؟

وأطلعته الشاب على ما اعتزمه، فلا حل الآن - بعد إصرار أخته على الفراق - إلا اللجوء للمحكمة، كما أنه لن يسامح نفسه إن أعادها إليه ثم أصابها مكروه، وسيطلب شهادة "مراد" لتدعيم موقف أخته، لكن "مراد" طالب منه فرصة أخيرة يتحدث فيها الى "سرحان" محاولاً التوصل الى حل ودي للأمر.

كان يعلم أين يجده؛ فهو لا بد جالس على الشاطئ متجنباً العمل، ولم يكلف "مراد" نفسه الدخول في مقدمات لا نفع لها مفضلاً التطرق الى ما أتى لأجله مباشرة، كاشفاً له عن كل ما حدث.. ثم قال له:- لقد فكرت في فكرة إجرامية.. أن تقتلها مدعياً أنها هي التي انتحرت، وأعددت خُطتك لذلك؛ فحجزتها بالمستشفى مدعياً أنها مريضة بالاكتئاب، ودونت أنها حاولت الانتحار مرتين وهي لم تفعل، فمن سيجرؤ بعد ذلك على تكذيب الطبيب النفسي حين تنتحر مريضته المكتئبة؟

لكن شاب خطتك هذه عيب جسيم، إذ لم تستطع إخبارها بأعراض الاكتئاب كي تتظاهر بها أمام الفريق المعالج حتى يَصْدُقَ ادعاؤك، وأغلب ظني أنك فكرت في ذلك لكنك تراجعته عنه خشية أن تسألك عن السبب وراء طلبك الغريب هذا، فاكتفيت بإخبارها أنك ستعطيها تشخيصاً مخالفاً لتشخيصها طالباً منها ألا تجيب على أي من أعضاء الطاقم الطبي إن حدثها.

وفي ليلة الجريمة تسللت من المستشفى ودعوته إلى العشاء الذي أحضرته معك من الخارج، وربما أظهرت لها حناناً زائداً بعد أن زعمت لها أنك تركت عملك وأنيت إليها خصيصةً للاطمئنان عليها، وكنت قد دسست الحبوب المنومة في بعض مكونات الطعام في وقت سابق لكيلا تشعر بها أثناء تناولها. وفور أن بدأت الحبوب تعطي تأثيرها كتبت رسالة الوداع وتركت الشريط الفارغ بجوارها حتى تتظاهر حين تعود صباحاً أنك اكتشفت انتحارها.

لكن ما لم تحسب حسابه هو ترك أخيها لعمله ذاك المساء للاطمئنان عليها بعد ذهابك ثم إنقاذه إياها وهو ما أفشل مخططك كله.

لكن حاولت مساعدتك من قبل يا "سرحان"، لكن أن يصل الأمر حد إزهاق روح بريئة بلا ذنب جنته سوى إخلاصها فهذا ما لم أستطع الوقوف أمامه مكتوف الأيدي؛ فكنت أنا صاحب فكرة ذهاب أخيها معك في الرحلة ليرى اضطرابك بنفسه بعد رفضك المتكرر للخضوع للفحص والعلاج، لكن حتى إن كنت مريضاً نفسياً فخطتك المحكمة تؤكد أنك مسئول عما فعلت؛ فالمرضى النفسي لا يدبر الخطط بإحكام ودهاء مثلما فعلت.

ولتعلم أن أخاها سيقاضيك، وسيطلب شهادتي أنا وفريق التمريض المعالج، وسأدلي بكل ما أعرف، وكذلك سيفعل فريق التمريض الذي نفى ملاحظة أية دلالة على المرض النفسي لديها، ولا تنس أن أخاها يمتلك الآن أدلة دامغة على أنك من دسست لها تلك الحبوب، فلا بد أن بصماتك هي وحدها الموجودة على شريط الأقراص الفارغ، كما أن رسالة الوداع مكتوبة بخطك لا خطها، وبهذا لن تخسر زوجتك فقط بل ربما تدخل السجن أيضاً لشروعك في قتلها، وغالباً سَتُمنع من ممارسة المهنة التي أخللت بشرفها ودنست قدسيتها بأفعالك.

قال "سرحان" بصوتٍ بدا عليه الانهزام الشديد:- لكني أحبها.. أحبها.

- ألا ترى أن ما تقول أكبر دليل على صدق ما أقول؟!.. أليس هذا أوضح مثال على التناقض الانفعالي؟ كيف يحب المرء شخصاً ويسعى في الوقت ذاته لقتله؟.. ليس أمامك الآن سوى حل واحد.. أن تذهب إليها سائلاً الصفح والغفران، فيقيني أن بقية من حبك لا زالت تحيا بداخلها.. من يدري؟ لربما استطاعت تلك البقية أن تجعلها تغفر لك كل جرائمك نحوها.

45- لقاء بلا ميعاد

وفور فراغه من عمله توجه للمكتبة لعله يجد بها من يُضَيِّع معه بعضاً من الوقت الذي بدأ يشعر به طويلاً مملاً، وصل الى هناك عابس الوجه مُقْطَب الحاجبين، شارد الذهن حتى أنه لم يهتم بتحية أحد من الحاضرين أثناء دخوله، مد يده الى أقرب رف ليتناول الكتاب الذي طالته يداه وجلس على أقرب مقعد.

وطالع الكتاب وذنه لا زال شاردًا، وبينما هو كذلك إذ به يراها.. أجل إنها هي.. حقيقة لا خيال.. واقعاً لا صورة في كتاب.. تجلس إلى منضدة بعيدة هي وبعض الأطباء والطبيبات.

وبلا إرادة منه وكأنما يتحرك آلياً توجه نحوها مباشرة غير مبالي بالجالسين معها ليسالها:- ألسنت في دورة تدريبية؟

أجابته ضاحكة:- بلى، لكنني اشتقت للمستشفى.

- بل هو الذي اشتاق إليك.

ودعته للجلوس معهم فاعتذر متعللاً برغبته في العودة لإكمال قراءة الكتاب الذي بدأه.

وحين عاد الى مقعده لم يفعل أكثر من تقليب نظره ما بين صفحات الكتاب وبين وجهها الذي اشتاق لرؤيته، وظل على هذا الحال حتى غادرت المكان.

وطوال بقية أيام الأسبوع لم يغادر المكتبة إلا للضرورة القصوى.. يسارع إليها أول اليوم ولا يخرج منها إلا حين تغلق أبوابها في نهاية يوم العمل.. وعرف زملاؤه عنه ذلك فصاروا - إن أرادوا استشارته في أمرٍ ما - يأتون إليه هناك، فإن لم يزد الأمر عن توقيع أوراقٍ أو أمر شفهي أنجزه وهو لا يبرح مكانه، أما إن كانت ثمة حاجة لتدخله المباشر غادر المكتبة ليعود مسرعاً إليها فور فراغه من العمل.

وكانت “ناهد” أكثر المترددين عليه، لأسباب كان أغلبها وهمياً، بل إنها صارت تأتي فقط لتجلس معه وتناقشه في أمور لا علاقة لها بالعمل.

وفي اليوم الأخير من أسبوع العمل وبعدما حاولت فتح باب الحوار معه في شتى الموضوعات في حين اكتفى هو بالجلوس صامتاً باغتته سائلة:-
ألم تغير رأيك في الحب بعد يا “مراد”؟

فأجابها بذهنه الشارد:- الحب؟!!

زفرت زفرة حارة ثم قالت:- أجل، الحب.. ألا زلت على نفس رأيك فيه؟!!

نظر إليها نظرة خالية من المعنى، ولم ينقذه إلا طلبها بغرفة الطوارئ عبر النداء الداخلي.

وقبيل إغلاق المكتبة أبوابها إذا به يسمع من يسأله:- هل تأذن لي بالجلوس؟

نظر فإذا هي “فاتن” قد جلست على المقعد المقابل له فقال لها باسماء:-
كلا.

تبسمت بدورها وقالت له:- ما أعجب حالك هذه الأيام؛ فحين تزورنا تتناول أي كتاب دونما اهتمام، وأتحدى أنك تعرف حتى عنوانه، ثم تجلس لتدفن فيه نظراتك الحائرة، متظاهراً بقراءته، ناسياً حتى تقليب صفحاته، وتظل هكذا الى آخر اليوم وكأنك تبحث عن شيء ما هنا، أو بالأحرى تنتظر عودة غائب.

نظر نحوها ملياً ثم قال:- الآن علمت لم أحبك "رفيق".

تبسمت له مجدداً ثم قالت:- لست أرى كبير فرق بين الصداقة والحب؛ فكلاهما قد يجمع اثنين لا يبدو بينهما أي وجه للتوافق، بل ربما ظن الجميع أنه يستحيل اجتماعهما معاً في علاقة.

لم يجبها عائداً الى شروده فاستطردت قائلة:- أتعلم أنه قص علي قصصكما معاً قبل حضوركما إلى هنا؟

- لا أظنه قص عليك كل شيء؛ فهناك من القصص ما لا يستطيع المرء قوله لشريكة حياته.

شعر أنه تسرع بقوله هذا لكنها أجابته بهدوء:- بل قص علي جميع تفاصيل حياته قبل أن يراني، ربما أكثر مما تعرف أنت نفسك؛ فصدقتنا أقوى من صداقتكما؛ فهي صداقة دعامتها الحب.

وحكى لها قصته مع "رفيق" منذ رآه أول دراستهما الجامعية حتى افتراقهما بعد انتهاء الدراسة.. أخبرها كيف كان كل خلافٍ بينهما يُشعر من حولهما أنه لا عودة لصداقتهما من بعد، فإذا بها تعود أقوى مما كانت، وحكى لها كيف ظلت صداقتهما موضع التعجب دوماً. فهما نمطان متناقضان لا يكاد يوجد بينهما وجه شبه واحد.. أحدهما مثال الطالب المجتهد الذي لا يعبأ بغير العلم والآخر مثال الطالب اللاهي اللاهث دوماً

خلف سراب النساء. أما "مراد" فكان يقول دوماً أن وجه الشبه بينهما كوجه الشبه بين اللغتين الإنجليزية والألمانية؛ فرغم تقاربهما الشديد في الحروف والألفاظ إلا أنهما متباينتان أشد التباين في القواعد وطريقة نطق الكلمات، وختم قصته بقوله:- لقد انفردت بكشف جوهره الأصيل فلم تخدمني قشرته الخارجية.

- لقد تكشف لي ذلك الجوهر الذي تكشف لك فلم أبال بكل ما قيل عنه. أعلم أن الشائعات حاصرته منذ مجيئه إلى هنا؟ فمن قائل أنه لا يقضي مع أي فتاة أكثر من شهر واحد، وآخر يقول أنه يعد الفتيات بالزواج وبعد أن يغرر بهن يتركهن.. لكن ما أدهشني حقاً في قصتكما هو رضا أهلك المحافظين عن صحبتك له رغم كل هذا.

- تفسير ذلك يعود إلى أسلوب تنشئتنا؛ فوالديّ كانا من المؤمنين بأن تحمل المسؤولية خير وسيلة للتربية، كما أنه لم يخيب ظني فيه أبداً، فكان الوحيد الذي اتّمتنته على دخول بيتي وإطلاعه على أهلي فما عهدت منه خيانة بكلمة ولا حتى بنظرة.

أتى "رفيق" فراهما جالسين معاً فجلس يشاركهما الحديث.. أخبره "مراد" أنه يتهيأ للسفر غداً إلى أهله وأن عليه أن يجهز نفسه للسفر معه.. لم يناقشه "رفيق" في قراره المفاجئ - رغم علمه بأن "مراد" لم تكن لديه النية للعودة لبلدته قريباً - مكتفياً بقبول تعلله بأنه يريد تغيير جو المستشفى.

وفي الليلة التالية كان "مراد" ينعم بحضن أمه التي لاحظت أنه صار أنحف وأن وجهه لم يعد منطلقاً كعادته، وكلما سألته عن سبب ذلك غير مجرى الحديث إلى قصة لقائه "رفيق" بالمستشفى.

46 - تغيرات جذرية

كان “بهاء” أشد الملاحظين للتغيرات العميقة التي طرأت على صديقه، حتى شعر كأنه أضحى شخصاً مختلفاً تماماً عن ذاك الذي حضر إلى هذا المستشفى منذ شهر فملاً أركانها خفة ونشاطاً وعَلَمَ من بها كيف يكون عشق العلم وحب العمل؛ فقد صار شروداً يجلس معهم وليس معهم، ما عاد مهتماً بعلم ولا عمل، حتى الطعام ما صار يقربه إلا قليلاً، لدرجة جعلت “بهاء” يتساءل عن كيفية قدرة هذا الرجل على الحياة طيلة هذه الأيام دون طعام، وما كان هزاله ونحافته ليخفيان على من عرفه من قبل.

أما أشد ما أزعجه فهو الغبار الذي تراكم على كتب صديقه، ما يدل على أنه لم يقربها منذ أمد، وهو الذي ما كان ليترك القراءة مهما بلغت درجة انشغاله.

وعلى مائدة الغداء، وبعد أن اكتفى “مراد” بتناول بضعة ملاعق من الحساء حاول “بهاء” فتح الحوار حول التغيرات التي ألمت بصديقه لكنه فوجئ بأن “رفيق” لا يولي الأمر كثير اهتمام، بل إنه قال له:- أرى أنك تبالغ كثيراً.

وحين كان يتجاذب أطراف الحديث مع “جنة” و”مشيرة” مساءً أمام عنبر النساء مر بهم “مراد” في هيئة غير مألوفة لهم، إذ كان ثائر الرأس عابس الوجه.. لم يرفع عينيه عن الأرض وكأنه يريد ثقبها بهما.

وحين سألته "مشيرة" عن سر ذلك صارحها بكل ملاحظاته مضيفاً:-
حتى ابتسامته فارقت وجهه، فما عاد يبتسم إلا ليداري عن الناس أحزانه
التي لا أعلم لها سبباً.

قالت "جنة" متضحكة:- ربما كان يحب.

هز "بهاء" رأسه نافياً بشدة وقال:- إنما تقولين ذلك؛ لأنك لا تعرفينه
جيداً، إنه رجل لا يؤمن بالحب، إذ يعتبره الحُجة التي يتذرع بها التافهون
والفسلة ليبرروا بها تفاهمهم وفشلهم، لقد أخطأت ذات مرة فسألته عن رأيه
فيه فأجابني بمحاضرة مُطوّلة يحذرني فيها من الاستجابة لهذا السراب
الخداع واصفاً إياه بالزيف والوهم الذي لا ينبغي لعاقل الانخداع به.

ونظرت "مشيرة" إلى "جنة" نظرة فهمت الأخيرة معناها جيداً.

47- اقلع يا جبل السكوت

صعد "مراد" إلى غرفته؛ فقد أراد الاختلاء بنفسه ليفهم طبيعة الأمور
التي تحدث له، ما تلك المشاعر التي تولدت بداخله؟ كيف يحدث له ذلك
وهو الذي طالما ظن نفسه أقوى من كل هذا؟! كيف يحدث له ذلك وهو
الذي مر بفترة المراهقة دون خضوع لأي من هذه المشاعر؟ هل يُعقل أن
تواتيه بغتة بعدما خطا أول خطوة له في العقد الرابع من عمره؟

وشعر أن هذه المشاعر تفتح عينيه على أشياء لم يرها من قبل قط، أو
ربما رآها ولم ينتبه لها، كما أنها جعلت عقله يدرك أموراً لم يكن من قبل

يدركها.. الآن فقط بدأ يفهم معنى الحكمة التي طالما قرأها ولم يفهم لها معنى: عالمك هو محيطك الداخلي؛ لذا لن يتغير إدراكك للعالم من حولك إلا إن تغير إدراكك لنفسك.

أهذا هو الحب؟ هل ينبض لها قلبه؟ لم يأبى عقله إلا التفكير فيها؟ لم يأبى قلبه إلا الشعور بها؟ ما بالهما يعصيانه ويعلنان ولائهما لها؟

ولأول مرة يسمع صوت قلبه يقول له:- لقد ظللت طوال ما مضى تمنعني الحديث، لكنك لن تستطيع منعي بعد الآن، نعم أحبها، هذه بالذات، دون غيرها، ولن أَرْضَى عنها بديلاً، إلى متى تنتظر حتى تبثها تباريح عشقك وصريح هواك؟ إلى متى ستماطل في الاعتراف بالحقيقة الساطعة سطوع الشمس في رائعة النهار؟ إلى متى تخادع نفسك وتخدعني زاعماً أنك لا تحبها أو أن ما بي ليس عشقاً صريحاً وإنما هو الإعجاب فحسب؟

سأل قلبه:- وأين هذه من تلك التي رسمنا سوياً صورتها واتفقنا معاً على شروطها؟

- إنني لم اتفق معك على شيء ولا رسمت صورة لأحد، إنك أنت من أملى عليّ شروطك فلم أجد بداً من الإذعان لك، كأسير لا يملك سوى الخضوع لأسره.. لعلك تنتظر حتى يأتي رجل آخر فيأسر قلبها وتعود صفر اليدين؟! أم لعلك تنتظر حتى تأتيك هي لتبتك شكوى حبك ونار هواك التي اتقدت بقلبها فلم تستطع لها اطفاء؟

- وماذا ستجني إن اعترفت لها بحبك وهي لا تبادلك مشاعرك؟ ألا يوجد احتمال - ولو ضئيل - ألا تكون قد شعرت بك؟

- بل أشعر بنبض قلبها يجاوب نبضي، وحتى إن لم تشعر بي فحسبي أنني أحبها.

- اذا فسأنتق جبل السكوت حتى أدخله.. لقد وقعت فيما كنت منه أحاذر.

وصعد “بهاء” إليه في غرفته ليطمئن عليه بعدما طال غيابه، ففوجئ به في مشهد لم يره عليه منذ عرفه، رآه جالساً على مقعده لا يفعل شيئاً.. لم يكن يقرأ ولا يعزف موسيقى ولا يستمع إلى المذياع.. لم يفعل أكثر من التحديق أمامه في شروود حتى أنه لم ينتبه إليه حين فتح باب غرفته، مما جعل “بهاء” يغلق الباب ويعود أدراجه.

واستغرق الأمر من “مراد” ساعات حتى شعر بالشجاعة تواتيه كي يصارحها بكل ما يعتمل بفؤاده، وبالنار التي أحرقت قلبه.

نزل إلى مكتبه وأخذ يزرع المكان جيئةً وذهاباً منتظراً حضورها كعادتها دوماً حين تراه بمكتبه، لكنها لم تأت، وبعد وقت طويل رآها تمر من أمام بابه.. ناداها فأنت، لكنها وقفت بالباب ولم تتجاوزهُ لتجلس على المقعد كعادتها، ثم سألتَه بلهجة تحمل الكثير من القسوة: - هل ناديتني؟

- أجل، لمَ تقفي هكذا؟ تعالي.. فأنا أريدك في أمر هام.

سألتَه بنفس لهجتها القاسية وهي تتحرك نحو الداخل خطوة واحدة: - ماذا تريد؟

لم ينتبه كثيراً لأمارات الحزن المرتسمة على وجهها.. كان انتباهه منصرفاً إلى شيء واحد.. أن يصارحها بكل شيء قبل أن تخونه شجاعته.. قال لها: - “جنة”.. هناك ما يحيش بصدري وأود إطلاعك عليه.. لا أعلم من أين أبدأ ولكن لا بد لي من مصارحتك.

ازدرد ريقه بصعوبة ثم أكمل:- منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها سيطر علي شعور بالألفة الشديدة نحوك وكأني أعرفك من دهور، وصاحب هذا الشعور شعور بالراحة حين أكون معك و.....

وتوقفت الكلمات على فمه بغتة.. فقد شعر كأن صاعقة تضرب جسده.. هل انطبقت السماء على الأرض؟ أوهم ما تراه عيناه أم حقيقة وواقع؟

رأها ترفع يديها إلى عينيها، ربما لتمسح عنهما دموعهما، لم يشغله السبب، كل ما شغله هو تلك الحلقة الذهبية التي تحيط ببصر يدها اليسرى.

مادت الأرض تحت قدميه حتى ما عاد يدري أين هو ولا من هو، نسي الزمان والمكان.. ما عاد يدري إن كان سائراً أم واقفاً أم جالساً.

وبعد دهرٍ ما أطوله نجحت الكلمات في تجاوز فمه ليسألها:- ما هذه؟!

نظرت إلى حيث يشير وأجابته بنبرة بها الكثير من السخرية:- “إنها دبلة”.

لم يكن بحاجة إلى تأكيد؛ فالتأكيد آخر ما كان يسعى إليه، واصلت الكلمات اندفاعها من فمه:- ولم ترتديها؟

واصلت بنفس لهجتها الساخرة:- أعارُ على الفتاة أن ترتدي دبلة خطبتها؟

انهار على مقعده بعدما فقد ما تبقى له من قدرة على المقاومة.. ظل صامتاً ولم يُجر جواباً.. أيمن أن تتبدد الآمال سريعاً هكذا؟ إنها حتى الأمس لم تكن ترتديها.. فمتى حدث ذلك إذا؟

وأحس كيف يكون شعور الطير الذبيح الذي قُطِعَ وتينه، ظل صامتاً
فكأنه نسي الكلام، وحين جرب النطق أعيته الكلمات، لكنه وقد بدأ يشعر
رويداً رويداً بألم الذبح سألها:- أأنت مخطوبة؟

أومأت برأسها إيجاباً وهي لا تزال تتجنب التقاء الأعين.

- فَلِمَ كَتَمْتَ هذا الخبر عني؟

- لم أكتُم عن أحد شيئاً؛ فأمر خطبتي لا يخفى على أحد هنا، كما أنني أذكر
أنني قد أخبرتك به من قبل.

قال محاولاً استجماع ما بقي من ذهنه:- هذا يعني أنكِ خُطِبتِ منذ فترة
طويلة.

- منذ ستة أشهر.

واصلت محاولةً رسم الابتسامة على وجهها:- أحقاً لم تكن تعلم قبل
اليوم؟! ما من أحد هنا لا يعلم بهذا!

- لكنك لم ترتديها قبل اليوم.

- ما بالك اليوم تمطرني بوابلٍ من الأسئلة العجيبة؟! وما يضيرك في أمر
خطبتي؟!

- أجيبيني من فضلك.. لِمَ امتنعتِ عن ارتدائها طيلة الشهر الماضي؟

قالت بضجرٍ وهي تشيح بوجهها بعيداً عنه:- لأنها صارت أوسع بكثير
من إصبعي حتى سقطت منه مراراً، فأخذتها للجوهري لتبديلها ولم
أتسلمها منه إلا البارحة.. هل انتهى التحقيق؟

وحين عادت تلتفت إليه وجدته يغادر المكان ذاهلاً.. فسألته بلهفة:- بِمَ
أردت أن تخبرني؟

لكنه واصل سيره بلا توقف.

48 - لست رفيقي

لم يدر كيف وصل غرفته ولا كيف جلس إلى البيانو ليداعبه بذلك اللحن
الشجي.. كل ما أدركه أنه جاهد كثيراً ليمنع نفسه من البكاء بعدما انتابته
الرغبة العارمة فيه.

ولأنه لم يستجب لتلك الرغبة في أخرج مواقف حياته - حين مات والده
فجأة قبل يومين فقط من امتحانات السنة النهائية - فقد عالج دموعه بكثير
من الصبر والتحمل.. لكنه في النهاية لم يجد بداً من الاستسلام لتلك
الرغبة الملحة الجارفة فانخرط في بكاء عميق.

وبعد وقت لم يدر مداه فُتِحَ باب غرفته ليدخل إليه “رفيق” قائلاً:- لقد
طلبناك عدة مرات عبر النداء الداخلي ولم تُجب.

وأدار وجهه نحو رفيقه لينظر إليه وهو لا ينبس ببنت شفة، فقال له
“رفيق” بحنان بالغ:- ما بك؟ وما هاتان الدمعتان اللتان تحجرتا بعينيك؟
أحدث مكروه؟

- عجيب أنك تشعر بحالي لهذه الدرجة!

- هكذا كنت دوماً فما الذي قد يغير ذلك اليوم؟!

- بل دعني أنا أسألك هذا السؤال.. ما الذي غيرك؟ لَمْ كُتِمْتَ عني أمر خطبتها؟

فكر "رفيق" برهة، ثم قال بصوتٍ أشد حناناً:- من تعني؟

- ومن غيرها؟ "جنة" طبعاً؟

- وما يعنيك في أمر خطبتها؟

- إياك أن تتظاهر بعدم إحساسك بي.. مستحيل أن يكون "بهاء" قد شعر بي وأنت لم تفعل.. أخبرني يا "رفيق"، لَمْ كُتِمْتَ عني أمر خطبتها وقد علمتَ بمشاعري نحوها؟

- لا أعلم ماذا تعني بمشاعرك نحوها؛ فقد رأيتك تعاملها كما تعامل بقية زميلاتنا، بل كما عودتنا جميعاً.. بإسلوبك الرقيق الجميل.

- دعك من الكذب يا "رفيق" فأنت لا تجيده.. لقد شعرت بحبي لها لكنك أبيت إلا أن تكتم عني أمر خطبتها.. فَلَمْ؟ لَمْ يا رفيق؟

- لأنني ما تخيلت يوماً أن "مراد الشريف".. ساكن برج المراقبة.. سيهبط يوماً من برجه ليعيش مثل الناس فيحب ويعشق مثلهم.

قال "مراد" بصوتٍ متهدج:- أليس لهذا المراد قلبٌ يعشق؟

واصل "رفيق" بنفس أسلوبه اللاذع:- حتى إن أحب "مراد الشريف" فما كان له أن يعشق هذه، ما أبعداها عن فتاة أحلامه.. إنها لا هواية لها إلا لفت الأنظار ونيل الإعجاب ممن حولها.

- وهل أعيت الرجل الذي أضاع عمره حبيس برج المراقبة ملاحظة ذلك؟ لكنك لا زلتَ تكذب يا "رفيق" .. فأنا أعلم جيداً لمَ فعلتَ ذلك! إنك ما أردت إلا الانتقام مني والشماتة بي لما سبق لي أن قتلته عن مخطوبتك.

ولأول مرة منذ بدء حديثهما يثور "رفيق" قائلاً:- ماذا دهاك؟! إن سولت لرفيقك نفسه الانتقام منك أو الشماتة بك فهو لا يستحق كلمة لومٍ أو عتاب.

- إنك لست رفيقي.. إنني أكرهك يا "رفيق" .. أكرهك.

صمت "رفيق" قليلاً ثم قال بهدوء:- لن أجيبك؛ لثقتي في قلبك الذي لا يعرف الكراهية.. لكنني سأتركك الآن؛ فالحوار معك لن يجدي.

وغادر الغرفة عائداً إلى غرفة الطوارئ ليتخذ قراراتٍ بشأن أولئك المرضى الذين أتى إلى "مراد" طالباً إليه مناظرتهم واتخاذ قراراتٍ بشأنهم؛ فما من أحد يستطيع مزاوله العمل وهو على هذا الحال ولو كان "مراد الشريف" نفسه.

49- فرار من الأحرار

غادر المستشفى إلى منزل أخته القاطنة بجزيرة "النسرين"، ولأنها كانت المرة الأولى التي يزورها فيها منذ انتقل للعمل بمستشفاه الجديد؛ فقد اندهشت حين رآته يدق باب مسكنها في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، ولولا أنها أنهت لتوها مهاتفة أمها لظنت أن سبب مجيئه لها في ذلك الوقت هو سوء قد حدث لأمه.

وزاد استغرابها الفرق الشاسع بين حاله الآن وحاله آخر مرة رأيته فيها.. لقد بدا كما لو أنه تقدم في العمر عشر أعوام دفعة واحدة، كما أنه صار أنحف بكثير، وغابت عن وجهه ابتسامته التي لم تكن تفارقه.

وشعر قلبها على الفور أن وراء هذا الأمر قصة حب مشتعلة، ربما لأنها هي نفسها وقعت في الحب من قبل فصارت تشعر بمن يقع فيه بكل سهولة، أو ربما لأنها كانت موقنة ألا شيء قادر على تغيير أخيها إلى هذه الدرجة سوى الحب، فلا علم ولا عمل بقادر على أن يحدث ذلك بأخيها وهو الذي كان يذهب لامتحاناته وكأنه ذاهب إلى رحلة خلوية.

طلبت إليه مراراً أن يصارحها بسبب تغيراته المفاجئة فلاقت منه مقاومة شديدة.. أخذت تذكره بأيامهما الخوالي حين كانت تقص عليه ما يدور بينها وبين حبيبها - الذي صار الآن زوجها - أيام خطبتهما الأولى، حين كانت تستشيريه وتستمتع لنصائحه، لكن كل محاولاتها ضاعت سُدىً أمام إصراره على تفسير ما به على أنه أجهد نفسه كثيراً منذ حضر إلى المستشفى، وأن الوقت قد حان لأخذ بعض الراحة، ولم يردعها إلا تهديده بالرحيل إن ظلت تناقشه في هذا الأمر، وهو ما جعلها تذعن لرغبته تاركة إياه يستريح مع عزمها معاودة الكرة صباحاً.

وطلب إليها زوجها - حين عاد من الخارج وراه بالمنزل - أن تعد لهما عشاءاً فرفض "مراد"، وحين حاول زوجها الإلحاح عليه طلبت إليه ألا يفعل، إذ كانت تعلم أن من كانت حاله مثل حال أخيها الآن لا يمكنه أن يقارب طعاماً.

50 - عتاب رفيق

وفي الصباح الباكر عاد إلى مستشفى متوجهاً إلى غرفته مباشرة، وإن هي إلا لحظات حتى دخل عليه “رفيق” يسأله: - أين ذهبت؟

وحين أجابه قائلاً: - “إلى أختي الصغرى”، علم أنه لا زال غاضباً منه لأنه قال “أختي” ولم يقل “أختك” كعادته دوماً عند التحدث عن أهله.

عاد يحاول غير يائس: - أما كان عليك الانتظار حتى تأخذني معك وقد علمت أنني لم اهنئها على زواجها للآن.

- كنت راغباً في الاختلاء بنفسي.

قال وهو يتجه نحو الباب: - ألا زالت هذه الرغبة لديك؟

أجابه بحسم: - كلا؛ فقد اتخذت قراري.

قال “رفيق” وهو يعود أدراجه: - هل لي أن أطلع عليه؟

- إنني لم أعتد التطلع لما في يد غيري.

- إن أحد دعائم صداقتنا إطلاع كل منا أخاه على حقيقة ما يرى بلا مجاملة ولا محاباة، وتوضيح ما قد يغيب عنه لاستغراقه في الأمر وعدم تنبهه لما هو خارجه.. أساءك أنني صارحتك بحقيقة ما رأيت منها ونحن اللذان ما عرفنا منذ البدء إلا الصراحة؟

- إنني ما غضبت منك يوماً يا “رفيق” فكيف أغضب منك الآن؟ لقد لاحظت عليها كل ما قلت وأكثر، فما غَيَّرَ ذلك في رأيي عنها شيئاً.. بل

زادني تشبثاً برأيي وبقيناً من أن هذا الوجه الضاحك والفم الباسم ليخفيان وراءهما أحزاناً مثاقيل الجبال.

- إذا فقد أحببت فيها السر النفسي الجديد.

- كلا يا "رفيق" .. فلنُسَمِّ الأشياء بأسماءها الحقيقية، إنه الحُب، الحب الذي يُسهرك الليالي متفكراً في محبوبك، الحب الذي يجعلك تشنق إلى من تحب إن غاب فإذا ما حضر بين يديك ازددت إليه اشتياقاً، الحب الذي يجعلك تضن بطريقة عينك لكيلا تغيب صورته عنك مقدار هذا الزمن.

ساد المكان صمت ثقيل حتى قطعه "مراد" بقوله:- لكني لن أنسى لك يوماً أنك تخليت عني.

- إنني ما تخليت عنك ولا قلينك.. كنت موقناً أن الحقيقة ستنجلي لك إن عاجلاً أو آجلاً، وأنت ستراجع عن حبك لها فور علمك بالأمر.

سأله بلهفة:- فَلِمَ كُتِمَ هذا الأمر عني يا "رفيق"؟

- رأيت أن خوضك للتجربة خير معين لك على إكسابك الخبرة التي تنقصك، لطالما آمنتُ بأن التجربة خير معلم، ولو أخبرتك من البداية لأبى عليك ضميرك اليقظان مجرد التفكير فيها وبذا كنت ستخسر حلاوة التجربة.

- أمِنْ أجل التجربة تُلقِي بصديقك في أتون نارٍ يتلهب؟

- ليس كالنار كاشفاً عن حقيقة المعادن.

- لقد انصهر قلبي في بوتقة الأحزان يا "رفيق" وهو الذي لم يعرف الحزنَ إلا للمما.

- هكذا سينضح قلبك.

- أحدثك عن النار تكوي قلبي فتحدثني عن الخبرة والتجربة؟

- أليست مادة القلب لحماً واللحم لا تزيده النار إلا نضجاً؟

واحتضنا بعضهما البعض كعادتهما دوماً إثر تصفية كل خلاف بينهما وهتف "مراد" - رفيقي بينما هتف "رفيق" - صديقي.

قال "رفيق" وقد شعر أن الخلاف قد أنهى تماماً - حتى لو كانت غير مخطوبة.. فكيف كانت قصتكما ستنتهي؟!

- لقد سألت قلبي سؤالك هذا فأجابني بأنه مستعد لأن يخسر العالم كله من أجلها، لكن ما جدوى ذلك الآن؟

- إن السؤال الذي طالما ألح عليّ هو كيفية حبك لها رغم كل ما رأيتَ منها!

- إنها لا تختلف عنك كثيراً يا "رفيق"؛ فكلكما يحوي جوهراً نفيساً يناقض ما تبدو عليه قشرته.. لقد مكنتني المراقبة التي لمتني عليها من كشف الكثير من أسرار الشخصيات؛ فهي لم تحبسني داخل دائرة شخصياتٍ بعينها كما دفعتني للغوص عميقاً داخل الأمور غير مكتفٍ بالنظرة السطحية إليها. فعند النظر إلى "جنة" من بعيد تبدو فتاة مرحة ضحوكة لا هم لها إلا نيل الإعجاب ولفت الأنظار والحقيقة أنها تحاول بضحكاتها هذه إخفاء آلامٍ دفينّة لم تستطع لها إكباءاً.

- لطالما نبهتكَ يا صديقي إلى العيب الخطير في طريقة تفكيرك، لطالما طلبتُ منك عدم الإنسياقِ خلف أول انطباع لك باذلاً كل جهدك في تفسير كل ما ترى حسب انطباعك هذا.

- لكنه الآن لم يخني.

سأله باسمًا:- وبم أخبرك عنها؟

- قال أنها فتاةٌ ظاهرها الإبتهاج وباطنها الحزن، وقال أن عينيها تحملان كماً من البراءة يتناقض مع ظاهر افعالها وقد أيد عقلي مشاعري هذه قائلاً أن دليل براءتها هو عين دليل اتهامها؛ فهي لا تعتمد لفت نظر رجلٍ بعينه وإنما تفعل ذلك مع كل من تراه.. أرأيتَ سارقاً يمدُّ يده إلى جيب كل من أمامه؟ كما أنها تفعل ذلك علناً أمام الجميع، أرأيتَ في حياتك قاتلاً يعلق على صدره لافتةً تعلن أنه قاتل؟ بل هل رأيتَ امرأةً سيئة الخُلق تعلن أمام الجميع عن سوء خُلقها؟ إنها تظل تنظاهر أمام الناس بأنها السيدة الفاضلة فإذا ما خلا لها الجو فعلتْ ما يحلو لها.

عاد الصمتُ يخيم على المكان من جديد حتى قطعه "مراد" قائلاً:- دعك من كل ما يُقالُ عنها.. هل رأيتَ عليها ما يُشين؟

- عدا ما أخبرتك به فلا.. بل إنني أتذكر أنها كانت أول حضوري فتاة عادية لا تعير اهتماماً للكثيرين الذين يخطبون ودها.. لكنني لاحظتُ أن سلوكها تغير فجأة ليصير كما رأيت.

- هل تتذكر وقت حدوث هذا التغير المفاجئ بالضبط؟

- منذ أشهر عدة.. لا أعلم بالضبط عددها.

- منذ ستة أشهرٍ تقريباً؟

- رغم عدم فهمي لمعنى سؤالك هذا لكن.. ربما.

وبعد قليلٍ نودي على "مراد" ليتوجه إلى مكتب مديره الذي أراد
الاطمئنان على أن سبب تركه للمستشفى ليلة البارحة لم يكن نتيجة كارثة
ألمت به أو بأحد أفراد عائلته.

51- احبك وليكن ما يكون

اشتد الصراع بين قلبه المتلهف على رؤيتها وعقله الرافض لها حتى
رفع عقله الراية البيضاء فتوجه لمكتبه الذي عرف فيه بالكاد طريق مقعده
وجلس تعتصره همومه.

عادت إليه.. جميلة كما تعودها، رقيقة كما دوماً يراها، أشرقت فأشرق
لها قلبه، حاول إخفاء فرحته برؤيتها ففضحه وجهه المتهلل رغماً عنه..
أتاه صوتها من وراء أحزانه:- لقد علمتُ بأمر تغيبك عن المستشفى
البارحة.

سألها متجاهلاً:- متى خُطبتِ؟

زفرت زفرة كادت تحرق الهواء المحيط بوجهها وقالت:- أخبرتك
بالأمس.

- لكنك لم ترتدي دبلة خطبتك إلا أمس؟!!

- أجبتك على هذا أيضاً.

قال وهو يشعر أنه بدأ يستعيد بعضاً من قواه التي فارقتها:- وهل تظنينني ساذجاً حتى أصدق هذا السخف؟ إن الفتاة إذا خُطِبَتْ تاهت دلالاً وفخراً وتعمدت أن تُثري دبرة خطبتها لمن تعرف ومن لا تعرف، كأنها تضع بإصبعها تاجاً لا مُجَرَّدَ حلية ذهبية، فإذا ما أصاب تاجها هذا مكروه سارعت بإصلاحه أو حتى استبداله إن لزم الأمر، كما أنها تتعمد الحديث عن خطبتها بسبب وبغير سبب متفاخرة بها.. أما أنت فمنذ رأيئك فلا ارتديتِ دبرة خطبتك ولا تحدثت - ولو حتى مرة واحدة - عن خطبتك أمامي.

قالت وهي تنتظر بعيداً عنه:- لكني أذكر أنني ذَكَرْتُ هذا الأمر أمامك من قبل.

- أَقْسِمُ أنك لم تخبريني.. لیتك أخبرتنی، بل لیتك ما أخبرتنی ابداً.. لیتني لم آتِ إلى هذا المكان قط، بل لیتني لم أرك، لیتني لم أرك.

لم تجبه فاستطرد قائلاً:- ألا تذكرين أول لقاء لنا حين قلت لي:- أرايتَ إن كنتُ بقيتُ في مسقطِ رأسي؟ لربما كنت قد تزوجتُ وأنجبتُ.

- قُلْتُ: لكنت تزوجت، ولا يعني عدم زواجي عدم خطبتي.

- ألا تذكرين حين أخبرتنی برفضك خطبتك لابن عمك لكيلا تتركي الجزيرة التي نشأت فيها وترعرعت؟

- قلتُ أنني رفضتُ لكيلا أغادر موطنَ صباي وشبابي، ولا يعني رفضي خطبتي لابن عمي أنني لم أخطب ابداً.

وسادَ الصمتُ المكانَ حتى قطعته بقولها:- لكني لم أعلم للآن سر ضيقك الشديد بأمر خطبتي.

- أحقاً لم تشعري بي؟ إما أن قلبك قُد من حجر أو أنك بلا قلب!

نظرت إليه وأمارات الحزن مرتسمة على وجهها بوضوح:- ما أقساك،
إما أن قلبي من حجرٍ أو أنني بلا قلب؟! إني في الحالين لست إنساناً.

شعر بأنه ما عاد قادراً على الكتمان أكثر من ذلك، فصاح فيها:- لا
توهمني بأنك لم تشعري بي.

أطرفت نحو الأرض وهي تقول:- لقد ظننتك تعاملني كبقية زميلاتي.

قال وصوته يطفح غيظاً:- أما شعرت أنني أخصك بتعاملٍ ودودٍ دونهن؟
أما لاحظت إصراري على العمل معك وجلوسي إليك دون غيرك؟ كيف
يشعر بي جميع الناس والأمر لا يعينهم ولا يشعر قلبك بقلبي وما قصد
إلاه؟

سألته باندفاع:- أتعني أنك أحببتني في هذه الفترة القصيرة؟

- ألا تؤمنين بحب النظرة الأولى؟!

لم يعرف كيف خرجت هذه الكلمات من فمه، حاول الصمت لكن
هيهات، وعلى غير توقع منه بدأ يشعر براحة متزايدة وكأن إصراراً ثقيلاً
زال عن قلبه ونفسه بعدما ناء بحمله.. وراها ترفع إليه عينيها بنظرة
المنتصر وهي تقول:- لقد شعرت بك لكن كان لا بد لي من سماعها منك.

- ألا تكفي العينان مُبْلِغاً عما عجز عن نطقه اللسان؟

شعر بحريته تتزايد وأعبائه تقل رويداً رويداً، أما هي فواصلت قائلة:-
لا بد للفتاة من سماع اعتراف الحب بأذنيها.

- ويل للفتاة التي تنتظر إعلان لسان محبتها بما صرخ به قلبه آلاف المرات حتى أسمع قلب كل عاشق وكل لائم.. وماذا قد يقول العاشق وقد اعترف كل شيء فيه بالحب إلا لسانه؟ ليست المشاعر الصادقة بحاجة للسان ينطق وإنما إلى قلبٍ يشعر.

- وهل تؤمن بصدق هذا النوع من الحب؟

- إياك أن تُشككي في صدق حب النظرة الأولى.. إنها لم تكن إلا نظرتك الأولى التي رشقت سهم هواك في قلبي فانتشب فيه فحرت ما أصنع به.. إن تركته أوجعني وأن أخرجه أوجعني.

- أكل ذلك كان من النظرة الأولى؟

- بل كانت نظرتك الأولى هي الجمرة التي ألقيت على هشيم قلبي فأحالته رماداً.

- أكل ذلك كان من نظرة؟

- قد تفعل النظرة ما لا يستطيع السيف أن يفعل.. لقد غرست نظرتك الأولى بذرة هواك في قلبي فظل يرويهها بدمائه حتى أضحت شجرةً وارفة الأغصان ما عُدْتُ قادراً على اقتلاع جذورها ولا اجتثاث نبتتها.. لكم جاهدتُ قلبي لينسالك فتار عليّ مقسماً أنه لن يفعل مهما جاهدته، وحاولت عقل لساني لنلا يخبرك فأبى إلا إخبار قاتلي لعلي أجد دوائي بين يديه.. كنتُ قبلك أكثر الناس تمسكاً بمبادئ التي نشأت عليها وأولها عدم التطلع لما في أيدي الآخرين.. آه يا أماء.. لكم أنبأتني أن المبادئ ثقيلة لا يقوى على حملها إلا أولو العزم من الناس، فما وعيت معنى ذلك إلا حين رأيْتُ الآن حيرتي ما بين ضميري القائل لي أنني لا أختلف كثيراً عن ذلك اللص الذي تسلل ليلاً ليسطو على المنازل في غيبة أهلها وبين قلبي القائل أنك

من ظل دوماً يبحث عنها، فما علمت على أيهما أبكي.. أمبادئي التي ضَيَّعْتُ أم حبي الذي فقدت.. لو كنت أخبرتني منذ البداية فما كان قلبي ليميل إليك لحظة واحدة، ولتكفل شبح الخيانة برده عن ذلك إن فعل.. لقد جعلتني أمقت يوم حضوري إلى هنا.. ليتني لم أرك.. ليتني لم أرك.

عاد الصمت يخيم على المكان مجدداً حتى استطاعت أن تقول له بصوتٍ جاهدت كثيراً ليبدو متماسكاً:- ليتني أستطيع أن افعل لك أي شيء. لكن لا حيلة لدي.. إني مُجبرةٌ على الزواج منه.. سامحني فهذا أمر خارجٌ عن إرادتي.. ثمة أمور يعجز اللسان عن شرحها مهما حاول.

- اطمئني؛ فلست بذاك الرجل الذي يختطف محبوبة رجلٍ غيره ليفوز بها من دونه.. لو كان الأمر متعلقاً بأهلك فحسب لما ترددت لحظة في انتزاعك من بين أيديهم ولو اضطررتُ لاختطافك، لكن ما ذنب ذلك المسكين الذي سأحطم قلبه إن أخذتُ منه محبوبته؟

- إنه مجرد زواج أقارب.

أفلتت الكلمات منها رغماً عنها، وحين أدركت ما قالت لاذت بالصمت، فقال:- إذاً صدقني قلبي.

- بِم أخبرك؟

- قال أنك لو كنت تحببته لما منحتني الفرصة لحبك ولقطعت علي الطريق من أول لحظة، كما أخبرني أن قلبك جاوبه من البداية لكن شيئاً غامضاً يمنعه عنه.

- لقد صدقك قلبك فَصِّدْقه.

- اصدقيني القول يا "جنة" .. إن دبلّة خطبتك لم يصبها شيء.. أليس كذلك؟

- لقد أخبرتك نصف الحقيقة فقط؛ فقد حدث لها فعلاً ما أخبرتك به، وأخذتها للجوهري، لكنه سلّمها إلي بعد يومين، وكان اليوم التالي للقائنا مباشرة.

- وظللت طوال تلك الفترة لا ترتدينها!

- نعم، لكنني قررت ارتدائها بعد سماعي "بهاء" يتحدث عن التغيرات التي حدثت لك فلم يعرف لها سبباً وانفردتُ بمعرفة السبب.. وقررت إنقاذك من اللهاث خلف فتاة لا سبيل لك إليها.

- لم يتبق لي الآن إلا أن أعرف إن كان شعوري هذا مُتبادلاً أم أنه شعورٌ من طرفٍ واحد.

- أرجو إعفائي من إجابة سؤالك هذا.

- إنني أعذرك في تخوفك عليّ من كلا الردين.

- وكيف أخافُ عليك كلا الردين؟

- لأنك ستخافين إن أُجبتَ بالنفي أن يتحطم قلبي لرفضك لي، أما إن أُجبتَ بالإيجاب فستريدين ألامني حين أراكِ تبادلينني مشاعري مع عجزني عن فعل شيء تجاهك.

- كلا.. كلا.. ليس الأمر كذلك.. لقد شعرت بك وبادلتُك نفسَ مشاعرك لكن الأمر أكبرُ منك ومني.

أطرق برأسه إلى الأرض وقال:- أشكر لك مجاملتك الرقيقة هذه.

صاحت فيه:- أنا لا اجاملك، ماذا أفعل كي تُصدّقني؟

أجابها بلهفة:- لا.. لا تفعلي شيئاً.. سيصدقك قلبي لأنه يريد ذلك.. حتى إن كنتِ تخدعيني فذريني أحيا في خدعتك الجميلة هذه.. إنها أروع خدعة خدعتها في حياتي.

وصمتت الألسنة حين تلاقت الأعين إلى أن عاد لسانها ينطق من جديد قائلاً:- أما وقد افضى كلانا لصاحبه بحقيقة مشاعره.. هل لك أن تخبرني بما أردت قوله لي البارحة ثم أحجمت؟

- كنت أحملُ لك آلاف الكلمات فما منعنيها إلا طعنك التي أصابت صميم فؤادي.. إن الخيانة أشد الأشياء بغضاً إلى قلبي.. أتريني بعد هذا قادراً على خيانة رجل لا أعرفه ولا أساء لي من قبل؟

- كيف ستخونه؟

- ها أنا ذا أعتدي على ما يخصه.

- أي اعتداءٍ هذا؟ إنك لا تكاد ترفع عينيك نحوي.

- حسبي جلوسي اليك وإسماعك هذه الكلمات.. ألا يعد هذا خيانة له؟ أكان يرضى عن ذلك لو كان معنا؟

- حتى إن استحلفتك بأمك؟

- ولماذا أُمي؟

- لأنك تكثر من ذكرها فعلمت أنها أثيرةٌ لديك.

قال مقراً بفشل مناورته:- ماذا تريدني أن أقول؟ أتريدني أن أقول لك أنني ما كنت أعتقد في حب ولا هوى ولا شغل بالي يوماً سوى العلم فلما رأيتك ما عاد لي هم سوى التفكير في مواعيد ذهابك وإيابك ومتى وكيف أراك وكيف أقضي أطول وقت معك؟ أم تريدني أن أقول أنني منذ رأيتك تيقنتُ خطأ اعتقادي في أن الإعجاب هو الذي يُولد الحب حين أدركتُ أن الحب هو الذي يُولد بالقلب الرضا بالمحسوب؟ أتريدني أن أخبرك أنني أثناء غيابك أكون كطفلٍ افتقد أمه في الزحام فصار يتفحص وجوه من يرى غير عابي بوجهٍ سوى وجهها؟ أم تريدني أن تعلمي أنني منذ عرفتُك عرفتُ معنى الضعف الذي ما عرفته وأنا أواجه الشدائد والمحن؟ أتريدني أن أخبرك أن عينيك هما ساحرتاي ومسهدتاي وسبب مجافاة النوم لعيني؟ أم تريدني أن أخبرك أنني كنت أشتري عشرات الشروط فيمن أرتضيها فلما رأيت عينيك تنازلتُ عنها كلها لقاء رجاءٍ واحد؟

حاولت أن تسأله فلم يسعفها صوتها.. كررت المحاولة مرات متتالية حتى استطاعت أخيراً أن تنطق سائلة:- ما هو؟

- أن ترضي بي.

قالت وقد فقدت آخر قدرة لها على المقاومة:- الأمر أقوى منك ومني.. لقد أتيت متأخراً؛ فلم يبق على زوجي سوى شهرٍ واحد.. أرجوك أن تعود إلى سابق عهدك وتتركني أواجه مصيري.

ارتسمت فوق شفثيه ابتسامة مريرة وهو يقول لها:- أبعدما تركتني **اذوبُ** فيك عشقا وهوى تأتي لتخبريني أنك لست لي؟ ثم تغضبين إن نعتُ قلبك بالفسوة! ما أعجب ذلك!.

52- المكتب

كان جالساً بمكتبه يتفكر في أمره حين سمع النداء الداخلي يطالبه بالتوجه إلى غرفة الطوارئ، وأثناء مروره بالعنبر رآها تتحدث إلى أحد موظفي المستشفى فحياها وهو يمر متعجلاً فسألته:- إلى أين؟

أجابها دون أن يخفف من سرعته:- إلى غرفة الطوارئ.

- ولم؟

لم يجبها، لكن ذلك لم يمنعه من إلقاء نظرة لوم عابرة قبل مغادرة الردهة وهبوط الدرج؛ فقد شعر بالضيق الشديد.. إذ صارت رؤيتها تحدث رجلاً آخر بمثابة خناجر حادة تمزق نياط قلبه، لكنه وهو الرجل الذي يعرف كيف يفرق بين حياته الشخصية وعمله عرف كيف يكتم ضيقه قبل أن يصل إلى غرفة الطوارئ.

وهناك وجد مريضاً أحضرته زوجته، وللوهلة الأولى بدا الرجل حزيناً لا يكاد يرفع وجهه عن الأرض.. أخبرته الزوجة أن زوجها صار يكثر الخلوة بنفسه في الأيام الأخيرة، فاعتزل جميع من بالمنزل، كما فقد شهيته للطعام مما جعله يفقد وزنه تدريجياً فضلاً عن قلة نومه الملحوظ في الآونة الأخيرة.

سألها عن سبب إحضارها له الآن فأجابته أنها سمعته يتحدث مراراً عن تمنيه الموت لكنها لم تأبه لذلك.. واليوم تأخرت لدى جارتها وحين عادت لمنزلها وجدته نائماً في فراشه بعد أن فتح أسطوانة الغاز بغرفة نومه

فأنقذته في اللحظة الأخيرة وأخذته إلى المستشفى وهناك نصحتها الأطباء - بعد إسعافه - بعرضه على طبيب نفسي.

أخبرها أنه سيحتجزه بالمستشفى ليكون تحت الإشراف الطبي وأنه سيخضع للعلاج بالجلسات الكهربائية، فطلبت منه المرأة عدم استخدام هذا النوع من العلاج، فقال لها:- إن هذا النوع من العلاج من أيسر الطرق وأنجحها في علاج الاكتئاب الذي أصاب زوجك يا سيدتي.

لاذت المرأة بالصمت في حين بدت علامات الحيرة والقلق واضحة على وجهها، ففهم "مراد" أنها متخوفة من هذه النوعية من العلاج، فطمئنها قائلاً:- لا يوجد مبرر لرفضك يا سيدتي؛ فزوجك سيخضع للتخدير الكامل قبل إجرائه، كما أنه سينسى بعد إفاقة ما يسبق الجلسة وما يحدث أثناءها، إنه ليس تعذيباً كما يدعي بعض الجهلة، بل هو أنجح الوسائل في علاج الاكتئاب خاصة، فلا مرض يفيد معه هذه النوعية من العلاج مثل الاكتئاب، كما أن هذا العلاج لا ينجح في علاج مرض كما ينجح في علاج هذا المرض، وفضلاً عن ذلك فهو يقلل الفترة اللازمة للعلاج ويساعد على عودة المكتئب لحياته في أسرع وقت.

53- ما تخفيه القلوب تظهره فلتات اللسان

عاد لمكتبه فور إنهائه إجراءات حجز المريض، وفي طريق عودته رآها واجمة؛ فتجاوزها وذهب ليجلس بمكتبه، لكنه لم يستطع التحمل طويلاً؛ فقد شعر بالحيرة تنهشه.. أأحزنتها نظراته حقاً؟ كاد الشعور

بالحيرة يقتله فلم يستطع التماذي في القسوة، وأخيراً حسم أمره فتوجه إليها سائلاً عما يحزنها، فنظرت إليه ولم تُجب.. عاد يقول لها:- أخبريني أي ظالم ذاك الذي أحزنك وسأريك ما أفعل به.

وأخيراً خرجت عن صمتها سائلة:- حتى إن كان ذاك الظالم أنت؟

سألها متظاهراً بالاندهاش:- أنا؟ كيف ذلك؟!

- أما سألتك عن وجهتك فلم تُجبنِي؟ وبعدها أقيتَ علي نظرة لو كانت من غيرك لتحملتُها لكن لأنها كانت منك لم يتحملها قلبي.

- وهل جَرَحَتِكِ نظرتي هكذا يا فتاتي؟

- قد تفعل النظرة ما لا يستطيع السيف أن يفعل.

تبسم قائلاً:- ما أسرع حفظك لكلماتي.

- إني ما نسيت كلمة منها.. أتريدني أن أعيدها على مسامعك كلمة كلمة وحرفاً حرفاً؟

- وما جدوى الحفظ إن لم يعمل المرء بما علم؟ كلام بلا عمل سحابٌ لا ينزل المطر.. إني كلما مررت من هنا وجدتكِ تحادثين أحدهم دون أدنى داعي.

- إنهم زملاء عملي، وما كان الأمر يقتضي منك كل هذا الغضب يا حبيبي.

- ماذا قُلْتِ؟

وكانها تنبّهت فجأة فقالت بهدوء:- قُلْتُ أن الأمر لم يكن يستحق منك كل هذا الغضب.

- أكملِي.. يا ماذا؟

قالت بأخفض صوتٍ ممكن وقد تحول وجهها إلى اللونِ القرمزي:- يا حبيبي.

- ها قد قالها لسانك فمتى يقولها قلبك؟

- إن لساني لا يستطيع النطق إلا بما يشعر به قلبي.

- إنك جنة قلبي وساحرتي.

- أحقاً أني أول حبٍ لك؟

- إنني قبلك ما عرفت النساء ولا أحسبني رأيتُ امرأة قط.. لكم وصفوني أني بلا قلبٍ حتى كدتُ أصدقهم، فما علمتُ أن لي قلباً حتى هويتك.. حين وجدتُك - يا صغيرتي - وجدتُ معك نفسي وروحي وعلمتُ أن حياتي قبلك لم تكن حياة.

- ستحب من بعدي وتنساني.

- ويحك يا قلبي المسكين.. يا من يتهمك أحباؤك بأنك ستنتسأهم وأنت الذي لا تقدر على فراقهم لحظة واحدة.. أرأيتِ قلبي الذي عشقك حتى صرتُ أغلى عليه من دمه.. أترين ذاك القلب ينسأكِ؟ إن النسيان هروبٌ ولستُ بمن يهربُ مما ألم به.

وحين تركها عائداً لمكتبه رأي "فيروز" التي حيته فرد عليها قائلاً:-
مساء الخير يا "جنة".

فسألته:- إلى هذا الحد؟!

أثار سؤالها انتباهه فسألها مندهشاً:- أي حد تعنين؟!

ف قالت وعلى وجهها ابتسامة غيظ:- لا عليك يا دكتور "شهاب" فما هي
إلا فلتة لسانٍ تحدث مع أي منا.

- لكني لست "شهاب".

فأجابته بغيظ:- وأنا لست "جنة".

ثم سارعت بمغادرة المكان، وحينئذ أدرك صدق كلام "فرويد" في أن
فلتات اللسان خيرُ كاشف لما يدور بعقل الإنسان الباطن.

54- مجبر قلبك

وحين حل المساء حمل همومه وأحزانه قاصداً البحر يلقيها إليه، وحين
جلس على الشاطئ كان ذهنه قد تعكر، تماماً كذلك الماء القريب منه
والذي لم تفلح الأمواج المتتابعة في تنقيته من الشوائب التي علقت به.

وتوصل في تلك اللحظة إلى سبب هجره الطعام والشراب، فلكي تسمو
روح الإنسان لا بد لها أن تتخلص من أدران الجسد الذي يحبس الروح

بداخله، وبذا تستطيع الارتفاع فوق شهواتِ الجسد ومتطلباته فيصير الإنسان بذلك أكثر روحانية.

وأثناء استغراقه في أفكاره سمع ضحكة تنطلق من فم إحدى الجالسات على الشاطئ فنظر نحوها غاضباً.. رآها تُسلم يديها إلى يدي الشاب الواقف أمامها ليزوبا معاً حباً وهياماً، وتعجب من أولئك اللامبالين بمشاعر الحزاني، أراد أن يذهب إليها ليصرخ في وجهها:- لِمَ تضحكين؟! هل يوجد في هذه الدنيا ما قد يَسُرُّ أي إنسان؟

وعاد يتوسل لقلبه لينساها فأبى فصاح فيه:- أخبرني إذاً ماذا تريد منها.

أجابه القلب بصوتٍ ضعيف:- لا أريد أكثر من أن أكون دوماً بقربها.

- إنه المستحيل بعينه، فحتى لو كان الارتباط قدرنا ما كان لك أن تبقى طيلة العمر بجوارها، أنسيت ما نحن فيه من طلب العلم؟

- بل أنت الذي نسيتَ أني قلبك لا عقلك.. إني لا أفقه شيئاً مما تقول، كل ما أدريه أني أجد راحتي بقربها.

- لكنها ليست لك.. أنها ملكٌ رجلٍ آخر.

- يكفيني أن أحبها بلا أملٍ حتى في أن تبادلني مشاعري.

- لكنك تعلم أن نهاية قصتنا هذه كُتِبَتْ قبل بدايتها.

- مخطئ إن ظننتَ هذه نهاية قصتنا، كلا يا صاحبي، فما هو إلا أول جزءٍ منها فقط، وكلي يقينٌ أننا لا بد ملتقون يوماً ما.. لا تسألني كيف ولا أين ولا متى؛ فلا أعلم لهذه الأسئلة جواباً، لكنني موقنٌ بلقائنا مرة أخرى

حيث لا يقدر شيء على تفريقنا، وحينئذٍ سَتُكْتَبُ نهاية قصتنا الحقيقية،
فليطل الزمان أو ليقصر، فسأحيا على هذا الأمل.

- إذا فلا تأتِ إليّ شاكياً من بعد.

- بل سأشكو، وعليك أن تتحملني؛ فإن لم يشك القلب لصاحبه فلمن يبث
شكواه؟

- وماذا تريدني أن أفعل حتى يحين موعدك هذا؟

- أريدك أن تملأ الدنيا فرحاً وضحكاً.. بدلاً من قضائك ما تبقى لك معها
لوماً وعتاباً.

- يا له من ضحكٍ خيرٍ منه البكاء.

- ليس لديّ حدٌ فاصلٌ ما بين الضحك والبكاء؛ فكلاهما شعوران من نبع
واحد يمتزج بعضهما ببعض ويستثير أحدهما ما يستثير الآخر. أما بكينا
حين اشتد فرحنا؟ ألا نضحك حين يشتد ألمنا؟ أرايتَ أن حُكِمَ عليك
بالإعدام، ماذا كنت فاعلاً؟

- لا تقل أنني يجبُ أن أطير فرحاً بذلك.

- كلا، ولكنك أيضاً إن حزنتَ فستكونُ قد أخطأتَ مرتين، مرةً حين
أضعتَ ما تبقى لك من عمرك، والأخرى حين حزنتَ على فواتِ ما لا
سبيلَ لك لإدراكه.. حاول أن تحيا أيامك التي لم يتبق لك من عمرك
سواها في هناءةٍ وجور ضاحكاً ملء شديق.. لا تتعب نفسك في محاولة
تغيير ما لا سبيلَ لك لتغييره.. لا أريد منك إلا أن تأخذ منها العهد أن تبقى

دوماً على العهد، كما أريدك أن تتأكد إن كانت تحبنا حقاً أم أنها قالت ما قالت بدافع الشفقة علينا.

- الشفقة؟! -

- أجل؛ فللمرأة قلبان: قلبُ المُحِبَّةِ وقلبُ الأمِ الرعوم، لا يكاد أحدهما يفارق الآخر، فلست أدري أقالت ما قالت بحنان قلب الأم أم بشوق قلب المُحِبَّةِ.

- وكيف أعلم ذلك إن لم تكن أنت - يا قلبي - تعلمه؟

- هنا يأتي دور العقل.. أعمل عقلك تستبين لك الحقيقة.

وهكذا قطع الليل متوسلاً لقلبه أن ينساها وقلبه متمسكٌ بها رافضٌ تركها، وظل على هذا الحال حتى بدأت الشمسُ ترسل أشعتها الذهبية لتنبيه الأرض من غفلتها وتوقظها من سباتها الجميل.. في تلك اللحظات الرائعة توصل لحل يرضيه هو وقلبه، فما ضره لو أحبها وظل على حبها نزولاً على رغبة قلبه؟ وطالما أن هذا الحب سيظل سجين قلبه لا يبرحه فلن يضر أحداً.. على ألا يتعدى حدود المشاعر، دون أدنى محاولةٍ لتحويلِ الفكرةِ إلى عملٍ أو محاولةٍ للقرب.

55 - غيرت وجهك ولما تغير قلبك

ولأن اليوم كان إجازة وهي لا تأتي إلى المستشفى أيام الإجازات، قرر التوجه إلى أخته، وقبل أن يطرق بابها اجتهد في رسم ملامح البهجة على وجهه.

وبعدما تناول معها الإفطار جلسا يتحدثان طويلاً ثم سألتها بغتة:- ما رأيك في اليوم؟

قالت وهي تطالعه بعين خبير:- ما حالك اليوم إلا كحالك بالأمس.. لقد أفلحت في تغيير وجهك ولما تفلح في تغيير قلبك.

- وأنى للمرء تغيير ما بقلبه؟

- فلم لا نبوح لي بما يشغلك؟

- وما قد يفيد البوح؟

- إن مشقة الكتمان أشد من مشقة البوح.. أتعلم أننا نتخلص من نصف همومنا حين نبوح بها؟ قص على ما بك فربما استطعتُ معاونتك.

- لا أظن إنساناً قادراً على حل ما تعقد اليوم من أمري.

- إذا فقد صدق حدسي.

- أجل، هناك ما يشغل بالي لكني لا أستطيع البوح لك به الآن.

- سأعُدُ كلماتك هذه وعداً بأن تقص عليَّ أمرك لاحقاً.

- لا تعدي التسويفَ وعداً.

- حسبي تسويقك هذا.. سأنتظر حتى يأتي اليوم الذي تقص عليَّ فيه كامل قصتك كما كنتَ دوماً تفعل.

56- أبرههان جديد؟!

وحين رآها روى لها حديث قلبه إليه فسألته:- أما زال قلبك يريد إثباتا؟
أعلمت الآن أي القلبين أقسى؟

- سامحيه، فهو يريد أن يعلم إن كنت تعاملينه كأما لا يتحمل قلبها حرمان صغيرها من لعبة تشبث بها لئلا تدخل الحزن على قلبه أم أن قلبك يبادلها حباً بحب.

- أخبر قلبك أن الأنثى قد تُجبرُ على تسليم جسدها لمن لا تهوى، لكن ما من قوة في الأرض تستطيع إجبارها على تسليم قلبها لمن لا تعشق، ما عساي أفعل لأجيب على سؤالك المتشكك هذا؟!

- دعينا إذًا من هذا الحديث الذي يسبب لك كل هذا الغضب ولنتحول إلى غيره.

- وأنا أيضاً مشتاقة لتغيير هذا الحديث السخيف.

- قبل أن تسمعيني أريدك ألا تظني ثمة تناقض بين حديثي إليك اليوم وإجابتي السابقة لك.

سألته وعلامات عدم الفهم ترسم على وجهها بوضوح:- عن أي إجابة سابقة تتحدث؟ وما علاقة تلك الإجابة السابقة بحديثنا الآن؟ وما هو التناقض الذي تخشى أن أظنه؟

وقص عليها قصته، حدثها عن فتاة كانت في حياته عشقتها من قبل، وعاش معها قصة حب طويلة، ولم يتأكد من نسيانها إلا العام الماضي.

ظلت صامتة حتى انتهى من سرد قصته، ثم قالت بصوتٍ مبجوح:- لا بد أن في حياة كل منا تجربة.

وبعد فترة صمتٍ أخرى سألته:- ألم تنته قصتكما إلا العام الماضي؟

- بل انتهت منذ أمدٍ بعيد، لكنني لم أتيقن من انتهائها إلا العام الماضي حين رأيْتُها مصادفةً فصافحتها بطريقةٍ عادية، وحيث صافح الرجل المرأة بطريقةٍ عادية فهو لا يحبها.

عادت إلى صمتها فسألها:- أليس عجيباً أن تسأليني مثل هذا السؤال التافه ولا تبادريني بالسؤال الهام الذي توقعتُ أن توجهيه إلي؟!!

- أي سؤالٍ تعني؟

- لقد توقعتُ منك مطالبتي بتفسيرٍ للتناقض ما بين قلبي السابق أنك أول من غزا قلبي وقصتي اليوم عن فتاةٍ كانت قبلك.

- ها قد جِئتَ بالسؤال، فهاتِ الإجابة.

- إنني ما كذبتُك قط؛ فمذ عرفتك عرفت معنى الحب الحقيقي وعلمتُ أن ما سبقك لم يكن هوى حقيقياً وإنما مجرد نزوةٍ عابرة.

- مجرد نزوةٍ عابرة! وهل سأكون مجرد نزوةٍ عابرة حين تلتقي حُباً آخر؟

ساد الصمت من جديد حتى سألته:- لِمَ كتمتَ هذا الأمر عني؟

- لأنني رأيته أهون من أن يُذكر، ليتني لم أخبرك.. لقد ظننت مزيد الكشف يؤدي لمزيد التقارب لكنني أدركتُ الآن أن من الستر سترأ هو أفضل من الكشف.

عادت لصمتها فقال لها:- إن صمتك هذا يقتلني.. فإن أصررت عليه
فسأذهب من هنا.

- أتهددني؟

- سَمِّه ما شئتِ.

ضحكت سُخْرِيَّةً وقالت:- وأنا لا أقبل التهديد.

فقال وهو ينهض من مقعده:- إذا فوداعاً.

- كفاك جنوناً واجلس.. أين ستذهب؟

أوعدها بأنه سيمهلها خمس دقائق أخرى لتعود لسابق عهدها من المرح
وإلا أنفذ ما أوعدها به، لكن النداء الداخلي - الذي طالبه بالتوجه الفوري
لغرفة الطوارئ - كفاه مؤونة ذلك

57 - صدقت نبوءته

وخارج غرفة الطوارئ وجد "رفيق" ينتظره، والذي أخبره أن نبوءته قد
صدقت؛ فقد عاد مريض الإدمان الذي رآه من قبل بنفس الصورة التي رآه
عليها في المرة السابقة، والرفيق الآن ينتظر قراره، فقال له:- من فضلك
يا "رفيق"، أعطه المسكنات اللازمة؛ فلا أريد للألم أن يدمر هذا
المريض.

أجابه "رفيق" بمكر:- إنه ليس مريضاً، ما هو إلا مدمن لا يستحق الشفقة، ومكانه يجب ألا يكون المستشفى وإنما هناك مكان آخر أولى به.

أجابه وقد أدرك مغزى كلماته:- كلا يا "رفيق"، بل هو أحوج المرضى للشفقة والحنان.. يا له من رجلٍ بئس.. لقد اعتاد ما أحدث له لذةً وقتيةً فأخذ يسعى ورائها بعدما فشل جسده وفكره في الاستغناء عنها، إني أشعر به رغباً في الخروج من هذا الطريق الموحش لكنه بحاجة لمن يمد له يد العون ليخرجه مما هو فيه.

قال "رفيق" الذي شعر بالعطف على صديقه أكثر مما شعر به نحو المريض:- إذاً فقد ذقتَ الإدمان يا "مراد".

أجابه بلهجةٍ يائسة:- أجل، لكنه إدمان مادي لا معنوي.

- إنه أشد وأقسى؛ فالمادي يمكنك شراؤه حين تحتاجه، لكن أنى لك بالمعنوي حين تفتقده؟

58- أنا أعلم الناس بحالهم

لم يكتفِ بذلك بل أصر على متابعة علاج هذا المريض بنفسه، وكان هذا تحولاً جذرياً في قراراته، فمنذ بدء عمله بالطب النفسي وهو يرفض التعامل مع أولئك المرضى، بل إنه لم يدخل قسم علاج الإدمان بمستشفاه السابق إلا للضرورة القصوى.

وتهلل وجه المريض له حين رآه وقال له:- لا تعلم مدى سعادتي بحضورك إليَّ يا سيدي.

- ما أتى بي إلا شعوري بأنك تمتلك الرغبة الصادقة للإقلاع عما أنت فيه لكنك لا تجد من يقف بجوارك.

وأطلعته الرجل على كامل قصته، فهو رجل أعمال وصاحب صيدلية، وهو ما سهل له الحصول على العقارات المخدرة، وهو أيضاً ما يجعل رفاقه في الإدمان يستميتون في إجهاض كل محاولاته للإقلاع عن الإدمان لكيلا يفقدوا موردتهم المضمون للحصول على المخدر، لكنه أكد له أنه عازم هذا المرة على الإقلاع عن هذا الطريق ولو كلفه ذلك حياته.

وأطلعته على طرق أصدقائه لإفشال مخططاته للإقلاع عن الإدمان، فهم يحضرون له المخدر أثناء زيارتهم له متجاوزين جميع عمليات التفتيش التي تتم بالمستشفى عبر وسائل سحرية يتقنون في اختراعها وتغييرها كلما اكتشفت، وهو ما جعل "مراد" يقرر منع الزيارة عنه نهائياً طوال تواجده بالمستشفى.

قال الرجل له بتوسل:- أرجوك يا سيدي الطبيب أن تعينني على التخلص مما أنا فيه، وسأكون طوع أمرك، ما تامرني به سوف....

قاطععه مراد: كلا .. لا أريدك ان تكون طوع أمري ولا أمر أي إنسان آخر.. أريدك أن تتخذ قراراتك بنفسك، فالقرار قرارك أنت وأنت المسئول الأوحد عن تصرفاتك.. شخصيتك المستسلمة هذه هي التي أدت بك الى ما أنت عليه الآن.

- فماذا تريد مني إذا؟

- بل ماذا تريد أنت؟

- عجباً، تعلم أنني أريد الإقلاع عن الإدمان.

- إذاً لن أستطيع مساعدتك.. إن كان هذا هدفك الوحيد فالحل ليس معي،
إني أريدك أن تتغير، أن تملك ناصية أمرك وأن تتخذ قراراتك بنفسك.

صمت الرجل برهة ثم قال: لقد فهمت.

- إذاً فالآن أستطيع مساعدتك، والآن سأشرح لك برنامج العمل..
سأحتجزك بالمستشفى.. سيأتي عليك وقت تطالبي فيه بالخروج ولن
أخرجك.. ثم يأتي عليك وقت بعده تظن أنك عوفيت تماماً.. هذا الوقت هو
أخطر الأوقات التي تحدث فيها الانتكاسة.. لن أسمح لك بالخروج إلا بعد
تأكدي التام من شفائك، ولتعلم أولاً وأخيراً أنني لن أستطيع مساعدتك إلا
إن ساعدت نفسك.

- عفواً سيدي الطبيب، لكنك قلت لتوك أنك تشعر بصادق رغبتني في
التخلص من الإدمان.

جلس "مراد" على أقرب مقعد وقال له:- ليس التخلص من الإدمان سهلاً
كما أنه ليس مستحيلاً.. أول خطوة على طريق إقلاعك عن الإدمان هي
التخلص من تلك الأكذوبة التي بداخلك والتي تزعم لك عجزك المطلق
عن الاستغناء عما أدمنت وتلك الأكذوبة الأخرى التي تعدد لك الكوارث
التي ستحقيق بجسدك حين تقلع عنه، أما عن طريقة السحب التدريجي
لمادة الإدمان فقد رأيت بنفسك فشلها؛ فهي تزيدك انتظاراً وتلهفاً على
موعد أخذ العقار وهو ما يُرْسَخ عادة الإدمان فيك لتنتهي بك للعودة إلى
ذات الطريق الذي منه فررت.. إن كنت صادق الرغبة في التخلص مما
أنت فيه فليس أمامك إلا طريق واحد.

- دلني عليه وأعدك أنني لن أتوانى عن السير فيه حتى نهايته.

قال وكأنه يحدث نفسه:- إنه طريقٌ مرير.. ستتحمل فيه آلاماً رهيبية، وستشعر أن روحك تكاد تُزْهَق، بل إنك قد تتمنى الموتَ لعله يريحك مما أنت فيه، لكنك ستنتصر في النهاية إن ظلت إرادتك صلبة لا تلين.

- لقد متُّ منذ زمنٍ طويل، منذ خطوتُ أولى خطواتي في هذا الطريق، أما الآن فأحاول استنقاذ ما تبقى لي من حطامِ عمري، إني مستعد لتحمل آلام الدنيا للتخلص من سجنِي الذي حبستُ فيه نفسي بنفسي ثم دأبتُ على العودة إليه كلما ظننتُ أنني استطعتُ الفرارَ منه.

- إذأً فلا تقربن ما أدمنتُ مهما كابدتُ من آلام ومهما شعرت من إلحاح جسدك في طلبه.

- سأفعل، فيبدو أنه لا نجاةَ لي إلا بهذا، لكن عدني أنت أيضاً أن تتحملني مهما فعلتُ، ومهما علا صوتي مطالباً بالخروج من هنا.

- أعدك؛ فلن تجد على ظهرها من يتحملك مثلي، فأنا أعلم الناس بمعاناتك.

وأثناء عودته لمكتبه استوقفه مريض الاكتئاب الذي حازه الأسبوع السابق وقال له:- أشكرك يا سيدي الطبيب لوقوفك بجواري وتحملك لي.. لا أعلم كيف أقدمتُ على تلك الأفكار الجنونية للتخلص مما أنا فيه.. إني أشعر وكأن النور ينبثق في داخلي من جديد.

- حسنا ولكن عليك بالصبر؛ فالنور يظهر أولاً ثم يتلوه الضوء، وكما يكون طلوع الفجر بطيئاً فهكذا سيكون تحسُّنك.

59 - ما تركت لي خيار

وحين عاد إليها وجدها لا زالت على عبوسها فسألها:- ألم تبدلي هذا الوجه للآن؟

فقالت بحزن شديد:- كنت أظن أنني أول من غزا قلبك.

- لكنها أشباح الماضي الذي ولى وراح.. أتحاسبيني على أمر ما عاد له وجودٌ في حياتي؟

- وما أدراني أنها كذلك؟ لربما لو كنت اقتربت منها لكنت أحببتها أكثر.

- ما تركتها إلا بعد اكتشافي لحقيقتها حين اقتربت منها.

- ما أجمل دفاعك!

- إنه ليس دفاعاً.. إنها الحقيقة.

- أي حقيقة تعني؟ حقيقة أنك لم تحب أبداً قلبي أم حقيقة حبك السابق؟

وعلى غير توقع منها انفجر ضاحكاً، فنظرت إليه مستفهمة فقال لها:-
سامحيني يا صغيرتي؛ فما كان أمامي وسيلة سوى هذه حتى تجيبي سؤال قلبي الحائر بعدما أكثرت التهرب منه.

رأى علامات الغيظ تمتزج بعلامات الفرحة بوجهها وهي تصيح فيه:-
أتعني أنك..؟

هز رأسه إيجاباً وقال لها والفرح يغمره:- أجل، ما عرفت غيرك ولا غزت قلبي سواك. فأنت أول حب وآخر حب.

60- علمني حبك

شعر وهو يصعد إلى غرفته أنه لا يسير على قدمين بل يحلق بجناحي سعادة، كما شعر أن الدنيا كلها لا تسع فرحته، بل إن سعادته لو وُزعت على أهل الأرض جميعهم لكفتهم وزاد بعد ذلك ما يكفي الحيوانات والطيور والهوام.

أما هي فظلت حتى الصباح لم تنق للنوم طعماً، وحين عادت أخذت تبحث عنه في الأماكن التي اعتادت لقياء فيها فلم تجده في أي منها، وحينئذ أخذت تبحث عنه في بقية الأماكن حتى كادت تقلب الجزيرة بأكملها بحثاً عنه.

وأخيراً وجدته جالساً على الشاطئ في بقعة شبه منعزلة، وما كان أشد دهشتها حين رآته ما عاد متحرجاً من إعلان حبه الصريح لها وكأنه يُريد للعالم كلها أن تعلم به.. نسيا كل شيء وجلسا يسترجعان ما حدث لهما منذ بدء لقائهما.. ذكر لها ما حدث له حين علم بتغييبها أسبوعاً في دورتها التدريبية السابقة ومقدار ما عانى من الآلام، وكيف تبدل حزنه فرحاً حين رآها بالمكتبة على غير توقع منه بعد يأسه من رؤيتها أسبوعاً كاملاً، وكأنه حُكم عليه بالسجن أسبوعاً ثم إذا به يُطلق سراحه في اليوم التالي، لكنه سرعان ما أعيد إلى محبسه حين لم تعد للمستشفى مجدداً.

سألته:- فلم رفضت دعوتي للجلوس معنا حين طلبت منك ذلك؟!

- لأنني لم اكن أعلم - حتى تلك اللحظة - طبيعة الشعور الذي تولّد بقلبي تجاهك.

- ومتى علمت؟

- حين رأيت هواك يزلزل قلبي تاركاً إياه متصدعاً لا يكاد يلاقي جانب منه جانباً، حين رأيتُ أني كنتُ أسير في صحراء قاحلة ثم بدت لي عيناك واحةً فيها.

قالت وفي صوتها رنة غريبة:- هناك سؤالٌ ترددت كثيراً في سؤالك إياه لكنني لا أجد بداً من سماع إجابته منك.

قرأ السؤال بعينيهما فقال لها بصوتٍ يفيض حناناً:- لقد سألتُ قلبي سؤالك هذا قبلما ابوحُ لك بحبي، “وماذا عما رأيت من كثرة مزحي وكلامي مع الرجال الآخرين”، أليس هذا سؤالك؟

- أجل، بم أجابك قلبك؟

- لقد قال أن المحب إن لم يك قادراً على الصفح عن زلات حبيبته فإن ما بقلبه ليس حباً، وقال أنه سامحك على ما مضى ما دام حاضرك ومستقبلك له.

ثم أكمل بنبرة مغايرة تماماً:- كان ذلك بالطبع قبل أن أعلم بأمر خطبتك. أطرقت برأسها نحو الأرض ثم سألته:- أنسييت ما أنت فيه من طلب للعلم؟

- لقد حُبِسْتُ في سجن العلم منذ نشأتي حتى ألفتَه لطول بقائي به، لكنني حين رأيتُ عينيكِ أمام باب محبسي خرجتُ أنظر فإذا الدنيا جميلةٌ فسيحةٌ الأرجاء فأبيتُ بعدها العودة لمحبسي.

- لكني لا أرضى لك أن تترك ما أنت فيه جرياً وراء وهم.

- لقد علمني حبك دروساً أضعاف ما تعلمتُ طيلةَ حياتي.

سألته باسمه:- ماذا علمك؟

- لقد اكتشفتُ كم كنتُ غيباً حين ظننتُ الحبَّ حبَّ المثال؛ فالمثال قد نُعِجِبُ به أو نرغب بامتلاكه، لكن ليس ضرورياً أن نحبه؛ فالحب لا يعرف المثال، واكتشفتُ أن للقرب عذاباً ربما كان أشد وأنكى من عذاب البعد.. كما رأيتُ كيف يكونُ ما يتمناه المرء بين يديه ولا يملكه، وعرفتُ أن... .

قاطعته قائلة:- أما استطعتَ منحي بعض نبوغك هذا لأصير مثلك؟

- وكيف كنا سنلتقي حينئذ؟

- على الأقل كان هذا سيجعلني أكثر قرباً منك، بدلاً من الهوة السحيقة التي أشعر بها تفصل بيننا.

- أنا راضٍ بكِ هكذا.. ولو كنتِ أقل من هذا عشرين مرة لرضيت.

قالت وقد عاد ضميرها يؤنبها:- حتى إن كان حبي قد علمك آلاف الأشياء، ما كان له أن يجعلك تترك علمك وعملك.

- مذ ذاق قلبي رحيق هواك أثر ناره على النعيم الذي كنت أحياء فيه.. ما أشبهني بذاك الذي ظل يبحث عن السكين تحت التراب فلما جرحته يده عرف أنه وجدها.. أو كمن حُبِسَ في الظلام دهرًا فلما أطلق سراحه رأى أول ما رأى الشمس تسطع على عينيه.

- يوماً ما ستنساني وتحتل أخرى بقلبك مكاني.

- فتأتي لو كنتُ أحببتُ قبلك فسأحب بعدك، لقد رأيتُ الكثيرات ممن يفقنك في كل شيء، فلم تشغل أي منهن قلبي لحظة واحدة.. أما أنت فأسرتيه مذ رآك.. لقد عشق السجينُ سجنه الجديد حتى صار محبسه أحب بقاع الأرض إليه .. بل أحب إليه من حريته نفسها.. أترينه يبغى الخروج إذ ذاك؟

وسمعا النداء الداخلي يطلب من "مراد" التوجه لمكتبه، وهناك وجد "بهاء" وعلامات الضيق واضحة على وجهه، وحين وصلت "جنة" إلى مكتبه بعد قليل طلب منها إعداد كوبين من الشاي لهما على ألا تتعجل في اعدادهما قدر إمكانها.

61- الزهرة البريئة

أخبره "بهاء" أنه أثناء تنزهه مع "زهرة" منذ أيام وجد نفسه يميل عليها ليطلع على شفتيها قبلًا حارة، بعدها ظلت تنظر إليه مذهولة ثم ذهبت باكية، ورغم أنه حاول الاعتذار إليها مرات إلا أنها قابلت اعتذاره

بالرفض التام، بل وأبت حتى أن ترد عليه، لذا أتى اليوم إلى صديقه طالباً منه التدخل لإصلاح الموقف.

لم يندهش "مراد" لذلك؛ فقد أطلعته "جنة" على الأمر من قبل، ما أدهشه حقاً هو قدرة صديقه على مد يده لتلك الزهرة البريئة لقطفها.

لكنه شعر بجزءٍ من قلبه يحسده ويتمنى لو امتلك القدرة على فعل ذلك هو أيضاً مع محبوبته، بل إنه تساءل بينه وبين نفسه إن كان سيأتي اليوم الذي تواتيه فيه الجرأة لفعل ذلك، سأله عن سبب تأخره في إخباره فأجابه وهو ينظر بعيداً: - لعلمي برأيك في الحب.

- ما عاد هذا رأيي بعد، سأساعدك في استكمال قصتك.

- لأجلي أم لأجل بحث علمي جديد؟!

أجابه بنبرة معاتبة: - تعلم أنني أعاملك كصديق لا كفأر تجارب.

وطلب إليه الصعود لغرفته على ألا يغادرها إلا إن طلب منه ذلك بنفسه، كان يعلم جيداً أن صديقه صار محسوباً عليه، ولا بد للمتبوع من تحمل أخطاء تابعيه.

ونادى "زهرة" لتحضر إلى مكتبه، وحين أتت إليه قال لها بلا مقدمات: - "زهرة" .. إنك تحبين "بهاء" .. أليس كذلك؟

نظرت إليه في دهشة وسألته: - من أخبرك؟!

قال لها باسماء: - الحب لا يحتاج إخباراً.. فأنتِ تتعمدين التحدث إليه بسبب ودونما سبب، أي دليل على الحب أكبر من هذا؟

أطرقت إلى الأرض في خجل فلم يمهلها.. عاد يسألها:- فلم رفضت
اعتذاره؟

عادت تنظر إليه في دهشة، وحين أدركت أنه على اطلاع بكل ما يجري
قالت له:- يبدو أنه لا يخفي عنك شيئاً.

- ألا يعد هذا دليلاً على عدم تعمدته لما فعل يا عزيزتي؟.. لقد أخطأ دون
قصد، ولو كان سيء النية لما أخبر أحداً.. إنه لم يتحمل رفضك لاعتذاره
فوسطني لديك لتسامحيه.

- كلا، لن أسامحه.. لقد أخطأ في حقي خطأ جسيماً.. لقد جعلني أساء
نفسي عن الدافع وراء فعلته، لا بد أنه رأى مني شيئاً دفعه لفعل ما فعل،
فهو لم يفعل شيئاً من ذلك على كثرة خروجنا وطول حديثنا معاً.

- وأينا - يا صغيرتي - يعلم الدوافع الحقيقية وراء أفعاله؟ إننا لا نعلم
الدوافع الكامنة وراء الكثير من أفعالنا، هل تعلمين لم كنت حزينة طوال
الأسبوع الماضي؟ هل تعلمين لم مشطت شعرك بهذه الطريقة الجديدة؟ أو
حتى لم صرت تكثرين من ارتداء الثياب الخضراء رغم إخبارك لي من
قبل أنك لا تحبين هذا اللون؟

- لأنني علمت أنه يحبه، أجابته باندفاع، وحين حاولت إمساك لسانها كان
الوقت قد فات، فقال لها:- سامحيه إذاً يا عزيزتي.. لقد قلت لتوك أنها أول
مرة يفعل فيها ذلك.

صمتت برهة ثم قالت:- سأسامحه لأجلك، على ألا يعود لذلك مرة
أخرى.

واقترب منها ليمسح عن عينيها دموعهما، وفي تلك اللحظة دخلت “جنة” التي عادت وفي يديها صينية الشاي، وحين رأت المشهد أسقطت ما في يدها فأحدثت الصينية صوتاً مدوياً وتناثر الحُطام والشاي على الأرض، لكنها سرعان ما تداركت الأمر قائلة:- سأطلب من إحداهن تنظيف الأرضية.

62 - الحب ليس بحثاً عن الأفضل

وتحرت لتغادر المكان لكن “زهرة” كانت أسبق منها.. سارع بإمساك ذراعها برفق ليمنعها من المغادرة ثم سألها بعد أن استدار ليواجهها:-
أتعلمين أنك تصبحين أحلى بكثير وأنت غاضبة؟

لم تجبه فاستطرد قائلاً:- أتعلمين أيضاً أنك لا تستطيعين خصامي؟

فسأله بامتناع:- ولم؟

- لأننا صرنا روحاً واحداً.. هل بإمكان المرء مخاصمة روحه؟ إنني لا أرى سبباً لغضبك؛ فأنت تعرفين كلينا جيداً، وبفرض غير ذلك فلستُ غيباً لدرجة أن أفعل شيئاً في مكتبي المفتوح وأنا أنتظر عودتك بين لحظةٍ وأخرى.. كل ما هنالك أنك أسأت فهم الموقف.

قالت بسخريةٍ لازدة:- حقاً.. لقد أسأتُ الفهم حين أسأتُ فهمك.. كان عليّ أن أفهم أنه مشهدٌ أخوي بريء.

- تعلمين أنه كذلك، كما تعلمين أنها لا يمكن أن تحبني.

- وما يمنعها؟!!

- قلبها المشغول برجلٍ آخر.

أجابته في غضب:- وأي غبية تلك التي تعرفك ثم تؤثر عليك رجلاً
سواك؟

- إذاً فلم تفهمي حقيقة الحب بعد يا صغيرتي.. حتى إن كان ما تقولين
صحيحاً، فالحب ليس بحثاً عن الأفضل.. الحبُّ هو ميل القلب لشخصٍ
بذاته وانجذابه إليه دون سواه ودون أن ترد على الذهن أدنى فكرة عن
حديث المزاي والعيوب.. أنت نفسك خير دليل على صدق كلامي هذا..
أتعلمين أنك على النقيض تماماً من فتاة أحلامي؟

- فلم أحببتني إذاً؟

- سليه هو.

- من هو؟!!

- قلبي الذي اختارك.

- ولم لا تسأله أنت؟

- لقد سألته من قبل فأجابني قائلاً:- تسألني عن علة هواها وما لي علة
إلاه؛ فقد أحبك الحب الحقيقي.. الحب المنزه عن الغرض والسبب.. الحب
الذي لا يبالي بشروط ولا مواصفات للحبيب.. فالحب يا صغيرتي كائنٌ

خرافي قديم يعيش على نفسه ويتوالد من ذاته وليس بحاجة لأي شيء آخر ليكبر وينمو.

قالت بعدما أفاقت قليلاً من سُكرها بكلماته:- لكن.. ماذا عما رأيتُ بعيني؟

- كانت تقص عليّ موقفاً أجزنها فلم تستطع حبس دموعها فمددت يدي لأمسح عن عينيها دموعهما.

- هل لهذا الموقف علاقة بصديقك؟

وأدرك أن الفتاة لم تقص ما حدث على "جنة" برغم صداقتهما القوية فأجاب قائلاً:- إلا هذا، لا تنسي أنني طبيب، وواجبي الحفاظ على أسرار الناس.

- ولا تنس أنت أنني أغار عليك.

- لا يحق لك يا صغیرتي أن تغاري؛ فأنا أعاملهن جميعاً كأخواتي، أما أنتِ فمحبوبة قلبي وصغیرتي ومولاتي.

- لكني أغارُ عليك حتى من أخواتك.

- ما أعجب أمرک.. تغارين عليّ حتى من أخواتي ولا تريدني أن أغار عليك حين تسرفين في الحديث إلى الرجال.

ولم تُرَ بعدها تتحدث إلى رجلٍ سواه إلا في حدود العمل.

63- مهلا ايها الحب

طلب منها أن تعطيه صورةً لها فأبت، واتهمته أن ذلك مقدمة لنسيانها فقال:- ويحك يا قلبي يا من يتهمك أحباؤك بقدرتك على نسيانهم وأنت الذي لم تعد لك لذة إلا تجديد وصالهم.. صغيرتي إن القدرة وليدة الرغبة، ولأن قلبي لا يمتلك الرغبة لنسيانك فلن يمتلك تلك المقدرة قط.

- فلم تريدها إذاً؟

- لم يدفعني لذلك سوى رغبتني ألا تغيب صورتك عن عيني كما لا تغيب عن قلبي.

- أخشى أن يأتي اليوم الذي تحب فيه من بعدي فتجد هذه المحبوبة الجديدة صورتني معك وحينئذٍ إما أن تمزقها بنفسك أمامها - برهاناً منك على نسيانك لي - أو على الأقل تتركها هي لتمزقها، وأنا لا أتحمل تخيل أن يحدث هذا بصورتني.

- لقد أسرت قلبي حتى صار مغلقاً في وجه كل أنثى غيرك، فأنى لهذا القلب أن يحب من بعدك؟

وبعد قليل رجاها أن تأتي في اليوم التالي بدون زينة على وجهها، وحين سألتها عن السبب أجابها بأنه يريد أن يرى وجهها على حقيقته دون تجميل.

وحينئذٍ طلب إلى غرفة الطوارئ فتوجه إليها من فوره.

64- الحب المرضي

وفي غرفة الطوارئ وجد امرأة أربعينية أحضرها أخوها الذي أخبره
بفقدان أخته النطق تماماً منذ البارحة.

سأله "مراد" - هل تعيش معك؟

- بل مع زوجها وابنتهما الوحيدة.

- أين هما؟

- يبدو أن خلافاً شديداً حدث بينهم؛ فقد حاولا الحديث إليها أمامي لكنها لم
تجب أيّاً منهما.

حاول "مراد" التحدث إليها فلم تجب، فحصها فحصاً طبياً كاملاً كما
يفعل مع كل مريض يأتي بمثل هذه الشكاوى، وذلك لصالح الطرفين؛
فبالنسبة إليه هو يتيقن بذلك من عدم وجود مرض عضوي يتسبب فيما
أتى به، وبالنسبة للمريض فهو يوصل إليه رسالة غير مباشرة أنه لا
يمكنه خداع الطبيب بهذه الشكاوى التي ليس لها سبب عضوي.

كانت السيدة مستجيبة لأوامره، متعاونة في فحصها عدا إجابتها على
أسئلته، ولاحظ أنها تُكثر النظر إلى أخيها وكأنها تخشى افتضاح أمرها
أمامه، فطلب إليه "مراد" الانتظار بالخارج، ثم قال لها بعدما عاد كلاهما
إلى مقعده: - لا بد أن خلافاً معهما عميق لدرجة إفقادك النطق؛ فقد بَيَّن
فحصي لك خلوك من أي مرض عضوي قد يتسبب في مثل حالتك.

أجابته بنوبة من البكاء الحارق فاحترم بكاءها وظل صامتاً حتى هدأت..
ثم قال لها:- اطمئني يا سيدتي، فأياً كان ما ستقولين فسيظل حبيس هذه
الجدران.

وأخيراً قالت له:- إنك لن تصدقني، لا أحد في هذا العالم سيصدق ما
رأيتُ بعيني.

- بل سأصدق ما تقولين أياً كان، فقد أطلعني عملي على فظائع أشد هولاً
مما قد تتخيلين.

بدا عليها التردد فشجعها بعينه فقالت:- بدأت القصة منذ حوالي العام
حين هجر زوجي فراشي، فلم أبال بذلك وقتها؛ فابنتنا كبرت وأنا تجاوزت
الأربعين، لكنه بدأ أيضاً يعود آخر الليل مترنحاً تفوح منه رائحة الخمر.

ولاحظت في الوقت ذاته تغيرات طرأت على ابنتي المراهقة، إذ صارت
أقل حياءاً من ذي قبل حتى لم تعد تخرج من تخفيف ملابسها أمام أبيها،
وقد نهرتها مرات عدة فلم ترتدع، وبدأت أشم رائحة الخمر من فمها هي
أيضاً، ثم علمتُ مصادفةً أنها تتغيب كثيراً عن مدرستها، لأنني كنت أخرج
إلى عملي قبل ذهابها للمدرسة، فلم أكن أعلم إن كانت تذهب إليها أم لا،
وحين سألتها عن ذلك أجابت بأنها كانت تشعر بالتعب أحياناً فتبقى
بالمنزل.

وبالأمس شعرت ببعض الدوار أثناء عملي فاستأذنتُ عائدة لمنزلي،
وبمجرد أن فتحتُ الباب سمعت صوت موسيقى ينبعث من غرفة نومي،
وحين فتحت الباب.....

وغطت وجهها بكفيها كأن شبحاً مرعباً يتجسد أمامها وعادت البكاء،
وبعدما هدأت سألتها بحنان:- ماذا رأيتِ؟

قالت بصوتٍ مُختنقٍ وهي تحاول مغالبة دموعها المنهمرة:- لو كنتُ رأيت زوجي يخونني مع امرأةٍ أخرى لربما هانت مصيبتني، بل لبيتني رأيت ابنتي في الفراش مع شاب، لكن أن أرى ابنتي وزوجي.. الأب والابنة معاً؛ فهذا ما لا أستطيع تصديقه للآن، ومن هول الصدمة خرت مغشياً علي.

صمتت قليلاً فسألها:- وماذا حدث بعد ذلك؟

حين أفقتُ تذكرتُ ما رأيتُ.. لكنني لم أر على وجه أي منهما علامة ندم أو أمانة تأنيب ضمير.. هددته بأنني سأفضحه وسط العائلة - وما كنتُ لأفعل ذلك بالطبع، فماذا سأقول؟ - لكن ما زادني جنوناً أنني سمعتها تقول لي:- إنك تغارين مني لأنه فضلني عليك.

ومنذ ذلك الحين فقدت النطق.. ثم أتى أخي يزورني مساءً.. وهو الذي أحضرني إلى هنا بعدما طاف بي على الأطباء فأخبروه أنني لا أعاني أي مرض عضوي وأنه ربما كان هناك ما أحزنني وسبّب لي ذلك.

كان "مراد" قد شك في ذلك من البداية، حين أخبره أخوها أن الأب والابنة يعلمان بمرضها ولم يأتيا، وعلى عكس توقع المريضة فإنه لم يندهش كثيراً؛ لكم صادف هذه القصة أثناء عمله حتى تيقن أنها أكثر شيوعاً مما تقول الكتب والإحصائيات، تلك الحالة المتطرفة من عقدة "الكتر".

من الطبيعي في حياة كل فتاة أن تتعلق بأبيها، بل وأن تحبه في فترة من فترات نموها النفسي، لكنها باستمرار هذا النمو يبدأ اهتمامها في التحول نحو رجلٍ آخر، لكن يحدث في حالاتٍ نادرة أن يستمر هذا الحب بل ويتطور بصورةٍ مرضية كما حدث في حالة هذه الأسرة، وإن كان أغلب

الآباء الذين حدثت معهم هذه القصص مضطربين نفسياً وكثيراً من الفتيات كذلك.

أما الضحية الحقيقية التي ينزل عليها الخبر كالصاعقة فهي الأم حين تكتشف الأمر مصادفة.

وكالعادة لم يجد ما يقوله للأم سوى بعض كلمات المواساة؛ فهو لم يتوصل لحل لهذه المشكلة بعد؛ فأى حل يحمل في طياته احتمالاً بالفضيحة والعار للأسرة كلها مدى الحياة.

وحين عاد لمكتبه رأى “جنة” وقد أزال جميع ما على وجهها من زينة فقال لها وعيناه تكادان تلتهمان وجهها:- لم أكن أعلم أن تلك المساحيق قناع يُخفي وراءه كل هذا الجمال.

وقررت ألا تعود لارتداء هذا القناع من بعد.

65 - مادواؤك إلا النسيان

وحين رآها في اليوم التالي قال لها:- لقد عاتبني قلبي عتاباً طويلاً بشأن صورتك.

- ماذا قال لك؟

- قال لي: كيف تطلبُ منها صورة وهي بأكملها ساكنة داخلي متحركة مع كل نبضة سائرة مع كل قطرة دم؟ فإن لم تصدق فافتح عليّ تشاهدها مطبوعة على جدرانِي.

قالت ضاحكة:- إننا بحاجة لعملية قلب مفتوح إذًا.

- إن لم يكفك سواها برهاناً فلن أتردد.

- كلا.. لا أريد مزيدَ برهان.. حسبي كلماتك التي تخرج من قلبك لتغزو قلبي مباشرة.

- كما طلب مني ألا اتحدث إليك قط.

نهضت مغادرة فسألها:- إلى أين؟

- ألم يأمركَ قلبك ألا تتحدث إليّ؟

- بل إنك تتعللين بأي سبب لتغضبي مني.. إنه ما أمرني بذلك إلا حين رأى بعض كلماتي تجرح مشاعرك عن غير عمد مني، فطلب مني أن ألوذ بالصمت أمامك، ولم يسمح لي إلا بالغوص في بحر عينيكَ النجلاوين.

- وماذا قال لك أيضاً؟

- قال كلاماً كثيراً.. قال أنه يبكي حين تفارقينه لعجزه عن دفع الفراق، كما يبكي حين يراك لشدة فرحته برويتك فهو بك باكٍ في الحالين.. وقال لي أنك مليكته التي توجهها على عرشه مذراك.

- ما دواؤك إلا النسيان.

- ممن أطلب البرء إن كان طبيبي هو عين دائي؟ تتصحيني بالنسيان وكيف ينسى من كان دواؤه تذكر الأحبة؟

66- ليتني أستطيع البكاء

لاحظ "مراد" أن "سميرة" بدت حزينة في الآونة الأخيرة، وقادته المصادفة إلى معرفة السبب، فأثناء تحدّثه ذات مرة مع "رفيق" تنهّى إلى مسامعه حديث بينها وبين إحدى زميلاتها تخبرها فيه عن خلافات بينها وبين مخطوبها.. ثم صمتت فجأة فنظر إليها فإذا بها تبكي، أراد الذهاب إليها ليواسيها.. لكن باغته شعور مفاجئ بحسدها.. أجل إنه يحسدها لقدرتها على البكاء.. كم هن محظوظات لقدرتهن على البكاء في الوقت الذي يأباه الرجال معتبرين إياه ضعفاً، وما علموا أن الدموع خير مُبرّدٍ للآلام؛ فهي أشبه بقطرات المطر التي تهبط على نار الأحزان المتأججة فتخمد لهيبها.

وكانما فهم "رفيق" مشاعر صديقه فسأله محاولاً صرف ذهنه عن هذا الأمر:- مالك تطيل الوقوف إلى "ناهد" هذه الأيام والحديث إليها؟

ترك "مراد" التفكير في أمر "سميرة" والتفت نحو صديقه محاولاً تركيز انتباهه ليجيب سؤاله بعدما انطلت عليه الحيلة التي طالما مارسها مع الآخرين.. حيلة تشتيت الانتباه.. ثم قال له:- إنها هي من تتعمد ذلك، وكلما حاولتُ الإفلات منها استرسلت في أحاديث تافهة لا طائل من ورائها.

- ألا تلاحظ أنها تقارب كثيراً تلك الصورة التي رسمتها عن فتاة أحلامك؟ فهي مثال الشابة المثقفة المتعلمة عريضة النسب، فضلاً عن جمالها الأخاذ، وفوق هذا وذاك فهي تميل إليك ميلاً شديداً.

- لا تجعل خيالك يبني لك من الأوهام قصوراً.. إنها حقاً عادةً حسنة تتجلى فيها صورة الأنثى بأروع معانيها وأجمل أشكالها، لكن قلبي لم يشعر يوماً بها.

- لعلك لا تخالفني الرأي في أنها أفضل من "جنة".

- ولو كانت أفضل منها عشرين مرة، ماذا أفعل بقلبي الذي اختار محبوبته؟

- على ذكر محبوبتك.. ماذا فعلت بها؟ لقد تغيرت حتى كدت أنكرها، إنها ما عادت "جنة" التي أعرفها، لقد صارت أكثر قريناتها حياءاً، بل إنها صارت تتهرب من الحديث حتى مع أولئك الذين أدمنت الحديث إليهم من قبل، فضلاً عن تخليها عن زينتها تماماً فصارت لا تضع منها شيئاً على الإطلاق.

- إن لم يك الحب قادراً على التغيير فهو ليس حباً.

- ها قد صقلتك التجربة فصرت تتحدث حديث المحنك المجرب.. إنني لأعجب كيف تؤتى كل هذه الخبرة من تجربة واحدة.

- وهل يلزم المرء الاكتواء بنار عشرات التجارب ليصير خبيراً يا "رفيق"؟ رُبَّ تجربة أغنتك عن آلاف التجارب.

- بل أنت الذي كنت دوماً أسرعنا تعلماً واكتساباً للمهارات؛ فكنت تدرك من أول مرة ما كنا نحتاج المرات العديدة لإدراكه.

وعاد يلتفت نحو “سميرة” فعاجله “رفيق” سائلاً:- هل لي أن أسألك نفس السؤال الذي وجهته إلي من قبل وعِبتَ عليّ إجابته؟ هل لك أن تُعرِفَ لي الحب يا صديقي؟

شرد بذهنه بعيداً ثم قال بعد طول شرود:- الحب.. الحب هو انجذاب ينشأ بالقلب تجاه شخصٍ بذاته دون كل من رأيت في حياتك، وإن كان هذا الشخص متخلياً بكل عيبٍ متخلياً عن كل ميزة؛ فيولد هذا الانجذاب الرغبة الملحة والشوق الدافع لرؤيته والجلوس إليه والتحدث معه واجداً سعادتك كلها في قربك منه وابتهاجك في رؤيته، راغباً في قضاء ما تبقى من عمرك بين يديه.

- ما أعذب هذه الكلمات، إنها أرق كلماتٍ سمعتها عن الحب في حياتي، ما سمعت أحداً يعرف الحب بمثل هذا الحب.

- لن ينبئك عن الحب مثل من أحرق لظاه قلبه.

67- لقد غيرها الحب

أطلع “رفيق” صديقه على تغيرات عدة لاحظها على “فيروز” لا سيما طريقة تعاملها مع مرضاها، إذ لاحظ أنها بدأت تعاملهم بطريقة ملؤها

الحنان والرقّة على عكس سابق عهدّها فسألّه “مراد”:- ألم يصلّك نبأ خطبتّها؟!

- وما علاقة خطبتّها بما أخبرك به؟!

- إن الفتاة إذا ارتبطت قريناتها دونها مثّل ذلك عبئاً جسيماً على نفسيّتها، وهو ما يدفعها للبحث في شخصيتها عن ذلك العيب الذي حال بينها وبين طلب الرجال لها، فإن لم تجد في نفسها عيباً واضحاً اخترعت عيباً فألصقته بشخصيتها لتبرّر به هجر الرجال لها، وهو بالضبط ما حدث لهذه الفتاة قبل خطبتّها، لكنها حين حُطِبَتْ شعرت بأنوثتها ورأت أنّها لا تقل عن قريناتها وأنّها مطمّح للرجال الذين صاروا يتنبهون إليها ويخطبون ودها فانعكس ذلك على طباعها لتعود سوية كما كانت.

- أتعلّم أنّه كانت ثمة إشاعات تدور عن قصة حب بينها وبين “سرحان”؟!

لم يدر “رفيق” أنّه بتلك الملحوظة العابرة قد أجاب على السؤال الذي طالما حَيَّرَ “مراد”؛ فهي إذّا من كانت تخبر “سرحان” في كلّ مرة يتحدّث فيها إلى “وفية”، ولا عجب؛ فقد كانت شاذّة فلم تُحِبْ إلا الشاذ.

68- لا تكوني نولاً في يد نساء خائب

شعر بحبه يفقده صوابه ويطيّش رشده حتّى جعله لا يختلف كثيراً عن مرضاه الذين يفسرون كلّ همسة بين متهامسين على أنّها تعنيهم وكلّ نظرة من نظرات الناس على أنّها تقصدهم.

كما بدأ يشعر بتغيرات شتى تحدث داخله؛ فمن قبل كان يكره الفراق ويتجنب لحظاته، أما الآن فهو يتتبع "جنة" حين يفترقا حتى تغادر المكان بأكمله.. كان في كل مرة يلقاها بشوقٍ من يرى حبيبته لأول مرة ويفارقها بشوق من يرى حبيبته لآخر مرة.. كان أشد الناس تكذيباً للعشق والهوى، واليوم صار من أشد المؤمنين بهما.. شعر بقلبه يمسي أرضاً خضراء بعدما كان صحراء قاحلة.. تعلم الآن السهر والسُّهْدَ وآهاتِ العاشقين حتى ما عاد يرى الجنون في العشق إلا قليلاً.

كما بدأ يشعر بمقدار ما ضاع من عمره نائياً بنفسه عن مشاعر الناس، كراكب قطار قضى رحلته يتطلع من نافذته إلى منازل الآخرين ومدنهم غير عابئ بجمال القاطرة الداخلي ولا روعة زخارفها المنقوشة على جدرانها والحوائط، أو كرجلٍ قضى عمره ناظراً من شرفة منزله متأملاً حركات الغادين والرائحين أمامه حتى شغله ذلك عن تأمل أثاث بيته وهندسة منزله.

ولذا قرر ألا يضيع لحظة أخرى من عمره دون الشعور بهذه المشاعر.

وأثناء جلوسه معها ذات مرة دخل عليهما "عباس" المكتب بلا استئذان فقال لها "مراد" - أين قدح القهوة الذي وعدتني به؟

ورغم أنها لم تتذكر متى وعدته بقدح القهوة المزعوم هذا إلا أنها نهضت لإعداد قدحين له هو و"عباس"، وحين عادت لم تجد "عباس" فسألته: متى وعدتك بقدح من القهوة؟

- إنك ما وعدتني بشيء.. كل ما هنالك أنني حاولتُ إغاضته.. ألم تري كيف دخل علينا وكأنه أراد مفاجئتنا متلبسين بفعل فاضح؟ كما أنني ألاحظ أنه يطيل الوقوف معك والحديث إليك.

قالت له بمكر:- لا أدري لم يفعل ذلك معي دون بقية زميلاتي.

- أما أنا فأدري.. إنه يريد إعادة نسج ما انتقض من غزل شبابه بك، فلا تكوني نولاً في يد نساكِ خائب.

- لم أر رجلاً يجتهد في جلب المشكلات لنفسه مثلك.

- مرحباً بالمشكلات لأجل عينيكي.. إني مستعد لمحاربة العلم كله من أجلهما.

- أتحبهما هكذا؟

- وكيف لا أحبهما وهما قمر ليليّ وشمس أيامي؟! وددت لو علمت ما فعلتا بي

- عجبت لرجلٍ يعشق امرأةً من أجل عينيها.

- بل أنتِ اختيار قلبي الذي اصطفاه على جميع من رأى.. لكم طالعت عيناى ألوان الجمال فما حاز أيها اهتمامي ولا استأثر بقلبي كما فعلتِ، وحين رأتكِ عيناى عَلِمْتُ أن وجهكِ هو الجمالُ الحقيقي الذي سكن قلبي فما عاد مُهتماً بلونٍ آخر منه.. فكلما رأيتُ أنثى أدركتُ أن جمالها لا يزيد عن جزءٍ من جمالكِ أو ربما هو صورةٌ أخرى منه، بل إني صرتُ أراكِ في كل زهرة متفتحة وكل وردة ناضرة، وكلما استنشقتُ عبيراً فواحاً شممت طيبك فيه وكلما طالعت عيناى حسناً رأيتكِ أحسن منه، وظللت أبحث عن شيء قد يقارب جماله جمالكِ فلم أجد إلا القمر، فنظرت إليه فرأيتُ أني أظلم جمالكِ إن قارنته بجمال القمر؛ فما جماله إلا نقطة في بحر جمالكِ.. إن جمال المرأة الحقيقي هو جمال روحها، وأنتِ روحك أخذتُ لكل من يراكِ.. إنكِ يا فتاتي تلك الفتاة التي طالما راودت خيال

الشعراء ولعبت بعقول الأدباء، ولو كانوا رأوك ل زادوا إبداعاً إلى إبداعهم
وفناً إلى فنهم، لكن من حسن حظي أنهم لم يروك.

- من حسن حظك؟!

- أجل، فما كنت لأرضى أن يحبك سواي.

69 - عدوك صنوك

استدعاه مديره صباح اليوم التالي إلى مكتبه ليقول له:- يبدو أن أعداءك
أخذون في التزايد.

فقال له في براءة:- ليس لي أعداء يا سيدي.

- فبم تفسر إذاً كل هذه الشكاوى التي وردت بشأنك؟!

- شكاوى؟ بشأني أنا؟ من الشاكون يا سيدي؟ ومم يشتكون؟!

- لا ضرورة لأن تعرف من هم، سأخبرك فقط بموضوع الشكاوى، أما
الشكاوى الأولى فتقول أنك لا تكتفي بالتحليل النفسي لمرضاك فقط، بل
تُعملُ آلة تحليلك في كل من تقع عليه عيناك.

ولم يكن بحاجة لإطلاعه على اسم صاحب هذه الشكاوى؛ فبصمة
"سرحان" واضحة بها واكتفى بأن أجاب باسمًا:- لقد صدقوا.

- وقال آخرون أنك تقول أن الأطباء عموماً وأبناء تخصصنا بالذات من

أكثر الفئات عرضة للإصابة بالاضطرابات النفسية.

- أعترف أنني قلت هذا في العديد من المناسبات، حتى من قبل مجيئي إلى هنا.

- لا بأس؛ فهذا يوافق ملاحظاتي أيضاً.

صمت المدير برهة ثم قال وقد كست وجهه ملامح الجد:- أما الشكوى الأخيرة فهي أهمها؛ فالشاكى في هذه المرة يشكك في علاقتك بالمرضات مستندلاً على ذلك بطول حديثك إليهن، ويخص بالذكر "جنة".

لم يُجب "مراد" فاستطرد المدير قائلاً:- إنني أعلم كذب الشاكى؛ فأنت تتحدث إليهن بمكتبك الذي تُصرُّ على تركه مفتوحاً، ولو كنت سئ القصد لما تحدثت لأي منهن هنا ولقصدت أياً من الأماكن التي تمتلأ بها جُزُرنا المجاورة، لكن هذا لا يمنع أن أنصحك بالاحتياط من ألسنة هؤلاء المتقولين.

وقرر "مراد" وهو يغادر مكتب مديره عدم التحدث إليها في المستشفى مجدداً، لكن الأمر الذي شغله حقاً: من يكون الإثنين الآخران اللذان اشتكياه لدى مديره؟

وقد وافته نصف الإجابة قبل أن يصل إلى مكتبه، إذ سمع حواراً بين "ناهد" و"عباس" الذي كان يقول لها:- لكني كلما أتيت إلى هنا وجدته يتحدث إليها تاركاً عمله.

- ولم تسألني أنا؟! يمكنك سؤاله مباشرة.

- لكن لا بد أن هناك سبباً وراء وقوفه مع هذه الفتاة بالذات.

- دكتور "عباس"، من فضلك، منذ حضر الدكتور "مراد" إلى مستشفىنا لا سمعنا عنه ولا رأينا منه إلا كل خير، فلماذا بدأت الاتهامات تُكألُ إليه الآن؟

- لا أدري لم ينبري الجميع للدفاع عنه كلما خاض في الحديث عنه أحد!
- لأنه برئ.

قالتها وتحركت نحو الباب مغادرة، وكادت تصدم "مراد" وهو يدخل متوجهاً نحو "عباس" الذي بدا كالفار المذعور.

تقدم إليه "مراد" بخطوات ثابتة.. ثم توقف أمامه مباشرة ليقول له:-
اسمع يا هذا.. لقد حاولت كثيراً أن أعاملك بالحسنى لكن يبدو أن هذه الطريقة لا تُجدي مع أمثالك.. أعدك بأن أرد لك جزاء ما فعلت، لكن ليس اليوم.. وإنما غداً، وعلى مرأى ومسمع من المستشفى بأسرها.

وفي أقل من طرفة عين كان الرجل قد غادر، وفور خروجه دخلت "جنة" التي أتت على إثر سماعها صياح "مراد"، فقالت وهي تنظر إليه وكأنها تراه لأول مرة:- لم أكن أعلم أن بك كل هذا القدر من الشر.

أجابها وهو يشيح بوجهه بعيداً عنها كطفل ضبطته أمه ملتبساً بسرقة قطعة حلوى:- هذا جزاء من يحاول إبعادك عني.

- ظننتك أكثر تسامحاً.

- لستُ ملاكاً.

- وماذا تنوي أن تفعل غداً؟

- لا شيء؛ فهو لن يأتي.

- وماذا إن أتى؟

- لن يجروا على المجيء.. لقد أردت فقط أن أفصح ضعفه أمام نفسه.

واكتست لهجته بالحزن وهو يقول لها:- لا أدري لم باتوا يعاملونني بكل هذه القسوة.

وأطلعها على ما دار بينه وبين مديره فقالت له:- اعذرهم؛ فمنذ أتيت خففت الأضواء مستحوذاً على قلوب الناس وعقولهم تاركاً إياهم في الظل، أتريد بعد كل هذا ألا يغيروا أسلوبهم معك؟

- ربما يصدق كلامك على البعض، لكن ماذا عن "شهاب" مثلاً؟ فقد كنا صديقين حميمين!

- إنه أول من يصدق عليه كلامي هذا.. عدوك صُنُوك.

- ماذا تعنين؟

- قبل مجيئك كان "شهاب" ملكاً غير متوج على عرش هذا المستشفى، فما كان حديث هنا إلا عن علمه ومهارته، إلى أن أتيت فأطحت به من فوق عرشه مستلباً منه ملكه بعدما صرت حديث الجميع.. أتعجب بعد كل هذا إن تغير نحوك؟

- كلا.. كلا يا "جنة".. ليس منا من كان خيراً محضاً ولا شراً خالصاً، فنفسنا هي مجمع الخيرات والآثام الذي يعتمل بجميع المتناقضات إلا أن بعض الصفات تظهر واضحة جلية بينما يتوارى البعض الآخر ثم يستثير كلاً منها الموقف الملائم لها.

- إنك لا تعرفه مثلي، لا يخدعك قناع الطيبة الزائف الذي يتستر دوماً وراءه؛ فمن خلفه يتوارى الوجه القبيح.

وافقت ذاكرته بغتة ذكرى هامة، كيف نسي هذا الأمر الهام؟! فحين لاعب "شهاب" الشطرنج وجده يتميز بإجادة استغلال أخطاء الخصم، فأدرك صدق كلام "جنة" وعرف شاكيه الثالث، ثم أغلق باب النقاش معها حول هذا الأمر خشية أن يؤدي ذلك إلى فتح صفحة من ماضيها قد لا يسره الإطلاع عليها.

وحين أطلعها على رغبته في رؤيتها خارج المستشفى رفضت تماماً.

70 - تغيب مفاجئ

وجلس ينتظرها في اليوم التالي مغالباً أشواقه، أراد أن يراها ليزيح برؤيتها عن قلبه طول غربته وشدة اشتياقه.. لم يتحمل الجلوس فأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً وعيناه على الطريق رغم علمه بأنها لم تأت بعد.. كان السكون مخيماً على المكان حتى ظنه سيد الموقف والقاعدة، وظن الحركة هي الشذوذ، كانت عيناه زائغتين حائرتين تتفحصان كل الوجوه القادمة للمكان ما تعرف منها وما لا تعرف عساها تجد وجهها من بينها.

وزاده تأخرها عن مواعدها حيرةً فأقسم ليعاتبنها أمر العتاب فور أن يراها، وليشكونها إلى قلبها، لكن أمد غيابها طال حتى ما عاد يشغله سوى سببه.. ذهب به الظن كل مذهب حتى لم يترك له أمنية إلا أن يراها

ليطمئن عليها وحينئذ سيستبدل بكل كلمة عتاب كلمة شوق.

اعتصره الحزن على الساعات التي ضاعت من عمره دون أن يراها،
ما بال الدقائق تسير متباطئة متناقلة وهي التي حين يجلس إليها تمضي
تلهث لها؟

اضطرب قلبه داخل صدره حين سمع صوت حركة بالخارج؛ فقد عاوده
الأمل في رؤيتها.. هب نحو مصدر الصوت فإذا هي "مشيرة" قد أتت
بمفردها وحين رآته نظرت إليه نظرة مأكرة، فسألها بلا تردد:- أين
"جنة"؟

- ولم تسأل عنها؟

لم يجبها مكتفياً بابتسامة ساخرة مفادها: لا تتظاهري بالجهل؛ فأنت
صديقتها المقربة ولا بد أنها أطلعتك على كل شيء.

فهمت ابتسامته فقالت له:- لقد بدّلت دوام اليوم مع إحدى زميلاتنا.

سألها بلهفة:- ماذا أصابها؟ إنها لم تفعلها من قبل.

- إنها متعبة قليلاً.. لذا طلبت من "سميرة" الحضور بدلاً عنها.

لكن قلبه أنبأه أن الأمر أكبر من ذلك؛ فهي لا يمنعها عن الحضور إليه
إلا أمر ذو بال، وحين أصرت "مشيرة" على أنها ليست أكثر من نزلة برد
عادية فاجأها بقوله أنه يريد زيارتها فقالت بانزعاج واضح:- مستحيل؛
ربما كان خطيبها أو أحد إخوتها بجوارها بالمستشفى. وتيقن من صدق
قلبه، فلولا خطورة حالتها لما أدخلت المستشفى، وتحت ضغط منه وإلحاح
أخبرته أنها ترقد بمستشفى "النسرين" للأمراض الصدرية.

71 - ما تشد غبائك

وأثناء بحثه عن غرفتها بمستشفى “النسرين” التقى مصادفة بالدكتور “فاروق” زميل دراسته فجلسا يسترجعان الأيام الخوالي.

ولحسن حظه كان “فاروق” هو الطبيب المتابع لحالة “جنة”، أخبره أنها صارت نزيلة شبه دائمة بالمستشفى؛ فهي مصابة بالأزمة الربوية منذ حادثة سنها، لكنه لاحظ أن معدل إصابتها بالنوبات ازداد بشكل لافت للنظر في الآونة الأخيرة كما ازدادت حدة الأزمة حين تصيبها لابتة بجسدها وقتاً أطول، كل ذلك بالرغم من زعمها أنها تتناول علاجها بانتظام.

واستأذنه “مراد” في زيارتها ولكن دون أن يعلم أي من أهلها - الذين لمهم متجمعين حولها، لذا سيدخل غرفتها على أنه طبيب استدعي لأخذ رأيه في حالتها.. ولم يتساءل “فاروق” الوثائق في زميله السابق إلى أبعد مدى عن سبب طلبه ذلك.. تناول أحد معاطفه البيضاء من خلف الباب وأعطاه لزميل دراسته ثم اصطحبه إلى غرفتها حيث طلب من أهلها الخروج لأنه أحضر زميلاً له يستشير به بشأن زيادة نوبات مرضها في الآونة الأخيرة.

وبالكاد نجحت في إخفاء دهشتها حين دخل غرفتها بصحبة “فاروق”، فهي لم تتوقع رؤيته مطلقاً في هذا المكان، وبعد خروج أهلها غادرت فراشها - على إنهاكها الواضح - لتجبل بصرها بينه وبين “فاروق” الذي سارع بالجلوس على مقعد بعيد فقال لها “مراد” مطمئناً:- الدكتور “فاروق” صديق دراستي.

سألته في حدة:- ماذا أتى بك؟!!

- لم أخفيت عني أمر مرضك؟

- من أخبرك؟

- أجيبني على سؤالي ولا تتهربي، لم كتمت هذا الأمر عني؟

- لكنني حذرتها من إخبارك.

- إنها لا ذنب لها.. أنا من أجبرها على ذلك.. لماذا تعمدت إخفاء مرضك عني؟

- لا يمكن لي أن أكون عبئاً على أحد.

- أبلغ ظلمك قلبي أن ظننت أنني سأكرهك إن علمت بأمر مرضك؟ يا لك من فتاة إن وصفتها بالغيباء فهو أهون ما توصف به.. الآن فقط تيقنت أن قلبك ما شعر بقلبي لحظة واحدة ولا قدر حقيقة مشاعره.

- ما كان ابتعادي إلا لتقديرني حقيقة مشاعرك.

- ما أفساه من قلب ذاك الذي تحملينه بين جوانحك!

- ألا زلت تتهمني بقسوة القلب؟

- وكيف أنفي عنك صفة كل أفعالك تدل عليها؟

72 - إياك أن تتصرها بعطفك

وحين سأل "مشيرة" عن سبب إخفاءها هذا الأمر عنه أخبرته أنها فعلت ذلك بناءً على طلب "جنة"، كما أخبرته أنها حساسة جداً، وأن أشد ما ييغضه قلبها هو أن يعاملها أحد بحنٍ عطفاً عليها، حتى أنها كادت تنهي صداقتهما الطويلة حين شعرت بها تعاملها بعطف وحنٍ زائدين.

وحين أخبرته أن "جنة" ستأتي في المساء كاد يطير فرحاً ولبث بمكتبه لا يبرحه منتظراً حضورها.

وحين رآها طار إليها مصافحاً محملاً يده أشواق قلبه، ولأول مرة في حياته يكتشف أن للمصافحة لذة.. لكم صافح الفتيات من قبل فما شعر نحوهن بشيء، أما اليوم فشعر بيده تريد الاحتفاظ بيدها.. تريد استبقاءها للأبد إن استطاعت لذلك سبيلاً، وشعرت بحرارة أشواقه فأسلمت يدها إليه، وبعدما أشبع عينيه من تأملها قال لها:- قبلك كنت لا أطيق صبراً ولا أتحمل انتظار ومذ عرفتك عشقت الصبر وهويت الانتظار.

- ماذا فعلت أثناء غيابي؟

- لم أفعل شيئاً.

قالت متغاضبة:- أتعني أن يومين متتالين من غيابي لم يؤثر فيك؟

- لكي تفهمي معنى إجابتي عليك أن تعلمي أولاً كيف كنت أقضي وقتي من قبلك، كانت إضاعة الوقت أبغض شيء لقلبي حتى أنني كنت أبخل بثانية واحدة تضيع مني بلا فائدة، ومذ عرفتك ما عاد لي هم سوى التفتن

في إنفاق وقتي طيلة بعدك عني.. فقد صرت أحسب عمري بعدد الساعات التي أقضيها معك، وما عدا ذلك فليس بمحتسب، لكم حاولت تسليّة نفسي في بعدك فما وجدت طعاماً للذة ولا فرحة بلهو.

وحين كرر طلبه رؤيتها خارج المستشفى كررت رفضها.

73- صفحة من كتاب الماضي

حاول جاهداً اكتشاف عيب فيها يُصير به قلبه فمنعه الحب الذي يقضي قانونه الأزلي بأن المحب إن استطاع أن يرى فيمن يهواه عيباً فإن ما بقلبه ليس حباً.

وبعد إلحاح منه أخذت تحكي له عن نفسها، قالت له:- كان أبي تاجراً جوالاً طاف بالبلاد من أقصاها إلى أقصاها حتى استقر به المقام في جزيرة “النسرين” المجاورة حيث استأجر الطابق الثاني لمنزلنا الحالي، وكانت صاحبة المنزل أرملة تُوفي زوجها بعدما أنجبت منه طفلاً.. وأخذت تغري أبي بالزواج منها حتى كاد الأمر يتم لها، لكنه تعرف آنذاك إلى أُمي فأحبها حباً جماً، وتزوجها وأنجب منها أخوي الإثنين وأنا.

وتوفيت أُمي أثناء ولادتي وبعدها عاودت مالكة المنزل نسج شباكها حوله حتى تزوجها، واتفقا على أن تبقى هي وابنها بنفس مسكنهما وبنقي نحن بمسكننا، ومنذ حوالي ستة أشهر خُطبتُ إلى ابن زوجة أبي.

- وماذا يعمل؟

صمتت قليلاً ثم قالت:- لن تفيدك معرفة ذلك شيئاً.

وفي المساء تلقى "مراد" اتصالاً هاتفياً من أمه التي أخبرته برغبتها الشديدة في رؤيته متعلقة باشتياقها إليه.. ولأنه لم يمر أسبوع بعد على عودته من هناك، فقد أفلقتة هذه المحادثة؛ إذ ما كانت أمه لتطلب منه الحضور بهذه الطريقة إلا لأمر ذي بال.

74 - الحزن الدافئ

وأثناء تناوله الشاي مع أمه في منزل العائلة حاورته بشأن زواجه مجدداً، وحين رفض عروض الزواج الجديدة التي قدمتها إليه قالت له:- يبدو أن من أخبرني لم يكذبني.

انحنى للأمام في قلق سائلاً:- أخبرك بماذا؟ ومن الذي أخبرك؟

- دعك من القائل.. لكن هل صحيح أنك وقعت في حب ممرضة ببلدك الجديد؟!

قال وقد أدرك ألا فائدة من الفرار:- لا أستطيع الكذب عليك يا أمه.. فأياً كان من أخبرك فإنه لم يكذبك.

- "مراد".. إنني ما رضيت فراقك إلا أملاً في أن تجد ببلدك الجديد من تستطيع أسر قلبك وإخراجك من رهينة العلم التي كنت عليها، ولو كنت أعلم أن العقوبة ستؤول لهذا لما رضيت فراقك أبداً.. لا يُعقل يا بُنَيَّ أن

ترفض بنات الأسر الكريمة والأصول العريقة متعللاً بعيوب لا يخلو أيّنا من إحداها ثم ينتهي بك الأمر إلى حب فتاة ليس فيها من أولئك اللائي أسرفت في رفضهن ميزة.

- لكني يا أماه لم أحب أيّاً منهن.

- وأحببت هذه؟!!

- أجل يا أماه، لقد أسرت قلبي من اللحظة الأولى، إنها من ذلك النوع من الناس الذي لا يملك المرء سوى أن يحبه لأول وهلة.

- إما أن تنساها أو أن تعود إلى هنا.

قال وهو يهب من مقعده مشيحاً بوجهه بعيداً:- لا أستطيع هذا ولا ذاك يا أماه.

قالت وهي تهب واقفة بدورها متوكئة على عصاها لتواجهه:- أتعصيني يا "مراد"؟

- ما كان لي أن أعصيك يا أماه، لكنك تخيريني ما بين كأسين أحلاهما مُر.

صاحت فيه:- أقسم أني لن أسمح لهذا الأمر أن يتم.

ولأول مرة منذ بدء حديثهما يتنبه إلى أنها لا تعرف القصة بأكملها.. فقال لها وقد استعاد هدوءه:- يبدو أن الواشي قد أغفل إخبارك أهم ما في الأمر يا أماه.

سألته وقد قلت حداثها كثيراً:- ماذا تعني؟

- اطمئني يا أماه، الأمر لا يحتاج معارضتك؛ فقد مات هذا الحب قبل أن يُولد، وكتبت نهاية قصتنا قبل أن تكتب بدايتها.

سألته وصوتها يزداد رقة:- لم يا بني؟

- لأنها.. لأنها مخطوبة.

- مخطوبة؟!!

وخيم على المكان صمت ثقيل، أما هو فصمت لأنه لم يجد ما يقول، وأما هي فمحاولة منها لاستيعاب الأمر، وأخيراً سألته:- ألا تعد موافقتها على الخطبة تصريحاً بعدم حبها لك؟

- لقد خُطِبْتُ قبل لقائنا بأشهر.

- وما ذنبه؟ ما ذنب ذاك المسكين الذي لم يسء لأي منكما؟

- ثقي يا أماه أن أياً منا لم يَعتدِ على حرمة ولا دنس شرفه، وأنني ما فعلت معها في السر ما أخجل منه في العلن، لكن ماذا أفعل بقلبي الذي لا يجد راحته إلا بقربها؟

- وماذا عن حبها لك؟ ألا يُعدُّ خيانة له؟

- ما أبعدُها عن الخيانة يا أماه، إنها أشد الناس إخلاصاً له رغم عدم حبها له.

- وكيف طاق قلبك - يا بني - حب امرأة رجل غيرك؟ ألم تكن دوماً تقول أنك تريد امرأة لم يزر خيالها طيف رجل سواك؟

أطرق برأسه نحو الأرض وقال:- إني ما علمت بأمر خطبتها إلا بعد أن

وقعت في حبها.

احتضنته أمه بقوة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت له:- فهذا إذاً لسان النار الذي يقض مضجعتك ويكدر عليك صفوك.. أخيراً عرفت سر انقضاء بهجتك وذهاب لونك.. إنه ما كان الحب يا ولدي ولكنه الصراع الذي تقلبت فيه ما بين هوى لم تقدر على دفعه وضمير لا ينام.

قال لها وهو يتمرغ في أحضانها:- لكم أخبرتني - يا أماه - أن اصحاب المبادئ هم أشد الناس معاناة، فما صدقت إلا حين رأيت هذا بعيني.

- أتحبها كل هذا الحب يا بني؟

- أجل يا أمي.. أحبها.. ولا أرضى سواها بديلاً.. لكم حاولت طرد طيفها عن خاطري فزارني في أحلامي ليؤرقني ويسهمني والنوم.

- أنتحمل كل هذا وحدك يا بني؟ أما كان عليك أن تُهرع لصديقتك المخلصة تبثها ما يُشجيك؟

- كم كنت محتاجاً للارتقاء في حضنك وبثك أشجاني يا أماه، لكن الآمي كانت أكبر من أن يخففها نطق لساني.

- وما نهاية هذا الحب يا بني وقد علمت أنها ليست لك؟

- أقسم يا أماه أني لو شعرت لحظة واحدة أن زواجها به سيسعدها لما ترددت في التضحية بقلبي من أجلها، لكني واثق أن هذا الارتباط سيشقيها للأبد.. إن قلبي ينبؤني أن في حياتها سرّاً يجبرها على الموافقة عليه ولن أتناهى عن التوصل إليه، فإما أن أرضى بالأمر مثلها أو أن أستطيع رفع سيف الجبر عنها حتى تصير خالصة لي من دونه.

وحاول أن يعرف منها ماهية الواشي، فلم تزد على إخباره أنها فتاة، وأن حماسها في الحديث يوحى بحرصها الشديد على صالحه.

75 - من هنا؟

وطوال رحلة عودته لم ينقطع عن التفكير فيمن تكون تلك الآثمة التي فعلت ذلك، كان أشد ما يحيره هو عدم ذكرها لأمر خطبة "جنة" وهو ما فسره بأحد احتمالين، إما أنها لا تدري ذلك، وقد استبعد هذا الاحتمال على الفور؛ فجميع من يعرف قصتهما يعرف بالضرورة أمر خطبة "جنة"، أو أنها واثقة من رفض أسرته لهذه العلاقة لمجرد كونها بينه وبين ممرضة، وقد رجح كفة الاحتمال الثاني، وتوصل في النهاية لحصر الأمر في شخص واحد.

وكان أول شيء يفعله حين وصل مستشفى هو البحث عن تلك المجرمة، والتي ما إن رآته حتى طارت نحوه لتسأله وعلى وجهها تختلط علامات القلق والفرحة:- هل حدث بالبلدة مكروه؟ لقد سألت عن سبب تغيبك فقبل لي أنك عدت لبلدتك فجأة!

أجابها وهو يتميز غيظاً:- يا للبراءة، وكأنك لا تعلمين شيئاً!

نظرت نحوه في دهشة وسألته:- وكيف أعلم وأنا لم أرك إلا الآن؟!

- لا تتظاهري بالسذاجة.. لقد توقعت منك أي شيء إلا أن تقحمي أمي في الأمر.

سألته وعلامات الإندهاش تتزايد على وجهها:- عم تتحدث؟!

فاستطرد بلهجته التي ازدادت قساوة:- لا تحاولي الإنكار يا “ناهد”؛ فإن من تحايلت لتحصل على تاريخ ميلادي لن يعيبيها الحصول على هاتف منزلي.

- لا تسترسل في هذا الكلام السخيف وأخبرني عم تتحدث.

قال وقد بلغ غيظه ذروته:- حسناً.. هل تتكرين أنك هاتفت والدتي لتخبريها بأمر “جنة”؟

- أقسم أنني لم أفعل، وما كان لي أن أفعل، ولا أعلم عن هذا الأمر شيئاً.

صمتت برهة ثم واصلت بصوت أقرب للبكاء:- نعم أحببتك، وتمنيتك لنفسي، لكنني ما كنت لأفعل ذلك بامرأة لم أرها في حياتي ولا أعلم كيف يكون وقع خبر مثل هذا عليها.

وانصرفت باكية.. أما هو فبدأ يشعر بالندم بعد سماعه رنة الصدق الشديدة في حديثها، وهو ما زاده حيرة إلى حيرته كما زاده إصراراً على معرفة الفاعلة الأثيمة.

ولم يخرجها من أفكاره سوى صوت قدوم “جنة” التي سألتها عن سبب سفره المفاجئ فأجابها قائلاً:- لقد سافرت لأعود قلبي فراقك، لكن بعدي عنك لم يزدني إلا اشتياقاً إليك، حتى أنني حين تحسست قلبي في البعد عنك لم أجده بين أضلعي، فعلمت أنه ارتضى مقامه بجوار قلبك.

- وما لعينيك تبدوان وكأن النوم جافاهما منذ سنوات؟!

- ثمة أمر شغلني حتى منعني النوم.

- هل لي أن أعرفه؟

- لقد حرتُ أيهما أشدّ جمالاً، أهو وجهك أم ذلك التاج الذي يزين رأسك؟

فسألته ضاحكة:- وإلام انتهيت؟

- رأيت أنك وردة باتت يداعبها النسيم فباتت ترقص في أحضانه.

وتلاقت الأعين فصمتت الألسنة حتى قطع الصمت بقوله:- أتعلمين أن من سيرتبط بك سيء الحظ حقاً؟

- أتقول أن الارتباط بي سوء حظ؟

- بالتأكيد؛ فإنه - ويا للمسكين - سيقضي أيامه حائراً في أي جزء منك يتغزل، أفي عينيك الساحرتين أم في وجنتيك الورديتين أم في قلبك الذي يذوب حباً وعشقا، كما أنه لن يقدر على فراقك لحظة واحدة لنألا يغيب جمالك عن عينيه قدر تلك اللحظة، إلى أن يدركه الموت وهو لا يدري أقتله سأمه عن الطعام والشراب أم أن عشقك قاتله؟

76- الكأس كاسي وما الشراب شرابي

وأثناء تناول "رفيق" العشاء معه قال له:- أتعلم أنك ظللت الشغل الشاغل للمستشفى منذ أتيت وحتى الآن؟ شغلتهم بداية بنشاطك الفائق وعلمك الغزير وصدافتك للجميع حتى سمّاك بعضهم "الأخ الأكبر" وسمّاك آخرون "القلب الكبير"، والآن تشغلهم بقصة حبك العجيبة التي ما عاد

لمتداولين حديث سواها.

- وماذا يقولون عني الآن؟

- يتساءل البعض: أحقاً يمكن أن يهوى النجم اللامع "مراد الشريف" الممرضة الشابة المخطوبة؟ في حين يؤكد البعض الآخر أنك أحببتها أكثر من كل شيء، حتى من نفسك ذاتها.

- لقد صدقوا.

- وقال آخرون أن حبك إياها شغلك عن كل شيء، حتى عن عملك الذي كنت مضرب الأمثال في عشقه.

- كيف أطلب بعلاج الناس وتخفيف آلامهم وأنا غير قادر على علاج ألمي وتخفيف وجعي.

- هكذا ستكون أكثر إحساساً بحقيقة آلامهم، إن ألمك هذا هو رأس مالك الحقيقي؛ فإن لم يؤمن الطبيب بحقيقة معاناة مريضه فلا سبيل له إلى علاجه.

أثارت الكلمة الأخيرة انتباه "مراد"؛ فقد أتت موافقة تماماً لوجهة نظره فقال:- أتعلم أننا شخصيتان متماثلتان؟ فكلانا يشبه أخاه ولكن برؤى مختلفة.

- بل نحن شخصيتان متكاملتان، فشخصية كل منا تكمل جوانب النقص في شخصية أخيه، إن التشابه لا يخلق انجذاباً يا "مراد"، بل الاختلاف. ألا ترى أن أقطاب المغناطيس المختلفة هي التي تتجاذب بينما تتنافر الأقطاب المتشابهة؟ كما أن التيار الكهربائي لا يسري إلا بين شحنتين إحداهما

موجبة والأخرى سالبة، حتى الأمطار لا تنشأ إلا عن تقارب سحبيتين مختلفتي الشحنة، فليس التماثل إذاً هو الذي يولد الحب بل التكامل، وأعتقد أن هذا أهم أسرار دوام صداقتنا.

عاد “مراد” يتساءل:- وماذا يقولون أيضاً؟

تردد “رفيق” برهة ثم قال:- اشتط فريق رابع فزعم أن حبها أصابك بالجنون بعدما رأوك تحدث نفسك.

- إن كان هواها جنوناً فما أجمل هذا الجنون وأحلاه، ذرني أحيا مجنوناً في هواها للأبد.

- إننا جميعاً مجانين بدرجة أو بأخرى؛ فالإنسان السوي تماماً نادر الوجود، بل إنني أعتقد أن الحب نفسه ما هو إلا ضرب من ضروب الجنون.

قال “مراد” وقد كست ملامح وجهه جدية شديدة:- أتعلم ما أكبر نعمة يمكن للطبيعة أن تمن بها علينا يا “رفيق”؟

أجابه “رفيق” بتلقائية شديدة:- الحب.

هز “مراد” رأسه نافياً:- بل ألا نكون قد ولدنا قط، فإن لم يكن بد، فالموت فور الولادة.

صاح “رفيق” الذي بدا مصعوقاً:- “مراد الشريف” تراوده أمنية الموت؟!!

أجابه بهدوء:- لا تخف؛ فلم أفكر في الانتحار بعد، ليس أكثر من تمنى الموت.

- كفى بالأمر جسامه أن يُطلب الموتُ فراراً منه.

- أخبرتك ألا تقلق؛ فلدي سببٌ قوي أحيا من أجله يا "رفيق" .. أن أحبها.. رغم يقيني أنني حتى لو مت فسأظل أحبها.. فلا توجد قوة في الطبيعة تستطيع الوقوف في وجه الحب، ولو كان الموت ذاته.

- وماذا عن آمالك وطموحاتك؟

- إنما تُذاق الحسرات وتُسكب العبرات على الآمال الضائعة، فمن كان بلا أمل ولا هدف سلم من الحسرة والندامة.

سأله "رفيق" بحنان بالغ:- ألم تقل أنك ستنسأها؟

نظر إليه "مراد" نظرة مريرة وتبسم سخرية وقال:- ما كان لك أن تقول ذلك يا رجل الخبرة والتجربة، هل قلوبنا بأيدينا نعشق بها من نريد وننسى بها من نشاء؟ ذرني لآلامي؛ الكأس كأسى وما الشراب شرابي.

صمت قليلاً ثم قال:- لكني أعذك؛ فقد أسعدك حبك وأشقاني حبي.

77 - دواؤك العمل

وفي الصباح توجه إلى البحر يشكو له بعض ما فيه، وحين وقف على شاطئه شعر كأنه واقف على حافة النار لا على شاطئ البحر، لو كان

يعلم أن حضوره الى هذا المستشفى سيحدث كل هذا الاضطراب بحياته
لما أقدم على تلك الخطوة قط.

وبعد قليل رأى "رفيق" واقفاً بجواره والذي سأله عن السبب في هجره
لعمله وخاصة جلسات العلاج النفسي التي كان يهواها.

أجابه "مراد" بانه لم يعد قادراً على ممارسة هذه الجلسات، وحين أصر
على معرفة السبب أجابه: ربما كنت في حاجة لهذا العلاج أكثر من
مرضاي، وما يدريك أني لن اسقط عليهم كأبتي وخييتي بدلاً من تخفيف
كآبتهم وآلامهم؟

وتحت إلحاح "رفيق" وافق على التوجه معه للعيادات الخارجية لعله يجد
في العمل بعض السلوى، وهناك وجدا "بهاء" فجلس ثلاثتهم يستقبلون
المرضى، وباشر "رفيق" فحصهم ووصف العلاج لهم لما رأى من
إصرار "مراد" على الإعراض عن ذلك.

وجلس "مراد" شارد الذهن، فلم يفقه من شروده إلا دخول مريضة برفقة
فتاة في مثل عمرها، قالت المرافقة أن صديقتها ابتلعت بالأمس عدداً من
الأقراص المنومة بهدف الانتحار، فتوجه للفتاة سائلاً إياها عن سبب
إقدامها على التخلص من حياتها فلم تجبه، وتطوعت صديقتها بالإجابة
قائلة:- لقد هجرها فتاها منذ يومين بلا أدنى مقدمات ودون حتى أن
يوضح لها سبب هجره إياها.

عاد يسأل المريضة:- وهل يتنازل المرء عن حياته طوعاً لأن حبيبته
فارقه؟

انفجرت الفتاه باكية وصاحت فيه:- إنه ليس مجرد حبيب، إنه حياتي، ما
جدوى العيش في هذه الدنيا إن لم يكن معي فيها؟

كان أشبه بمن يناجي نفسه وهو يجيبها قائلاً:- ليس هذا بالسبب الكافي لإقدامك على إزهاق روحك، إن الفراق قدرك المحتم، قدرك الذي لا بد لك من مواجهته بشجاعة بدلاً من الفرار منه.

أجابته الفتاة بلهجة تفيض مرارة:- لن تعرف معاناتي إلا إن ذقت لوعتي. فأجابها بحنان بالغ:- لن تجدي على ظهرها من هو أعلم بحالك مني. وطلب من "رفيق" حجز المريضة قائلاً أنه سيشرف على علاجها بنفسه.

أما الذي كان يتابع الموقف غير مصدق فهو "بهاء"، والذي ما إن غادرت المريضة ومرافقتها الغرفة حتى اندفع يقول لصديقه:- لكنك رفضت من قبل حجز حالات أشد منها خطورة!

- يا لها من مسكينة.. لقد فارقها الحبيب الذي عشقته بكل كيائها.. إن واجبنا يحتم علينا إبعادها عن ذلك الجو الحزين الذي يذكرها كل شيء فيه بمن كانت تهوى وفارقها.

وللمرة الأولى بدأ "بهاء" يصدق الإشاعات التي ملأت المستشفى في الآونة الأخيرة ومنعه حياؤه من مناقشته فيها.

قال محاولاً العودة إلى جو العمل:- ما لي أشعر بأن وجوه المرضى بدأت تتكرر؟

لكن "مراد" لم ينتبه لسؤاله عائداً إلى شروده من جديد فأجابه "رفيق":- ذاك أن أغلب مرضانا مزنون؛ فتلك طبيعة المرض النفسي الذي فضلاً عن كون علاجه يستغرق أمداً طويلاً فإنه يعاود المريض مرة بعد أخرى.

78- أينأولى بالعلاج؟!

كان المريض التالي رجلاً في أواسط العقد الرابع من عمره، وقد أحضرته زوجته التي سألت عن الدكتور “مراد” فور دخولها، فقدمه إليها “رفيق” لتخبره أنها أتت إليه من أقصى جزيرة “النسرين” لما سمعته عن علمه ومهارته.

تمتم “مراد” لنفسه:- يقصدني الناس طبيباً لعلاج الآمهم، فأني طبيب أقصد بالآمي؟

أخبرته المرأة أن زوجها صار انعزالياً في الآونة الأخيرة، فسألها مستكراً:- ألا تحبين أنت الانعزال عن الناس من وقت لآخر؟

- بلى، أحياناً ما أفعل ذلك حقاً، ولكن ليس طوال اليوم، كما أنني لا أفعله بسبب وبلا سبب، وليس هذا هو الأمر الوحيد، فقد عزف عن الطعام والشراب فما عاد يقربهما إلا مرغماً حتى أصابه الهزال خلال أيام معدودة، فإذا ما أجبرناه على تناول الطعام فإنه لا يتذوق منه إلا القليل ثم يسارع بالنهوض تاركاً المائدة، فضلاً عن هجره لنا وإغلاق باب حجراته على نفسه فلا يحدثنا ولا يجلس إلينا كما كانت دوماً عادته.

- كل هذا لا يعني مرضه، فأني منا قد يُصاب بمثل هذا بين الحين والآخر.

وسارع “رفيق” بالتدخل؛ فقد أراد لصاحبه ممارسة العمل ليشغله بعض الشيء، لا ليتسبب في خطأ طبي جسيم يهدد حياة مريض، وتحاور مع زوجة المريض بعدما رفض الأخير الرد على استئلته، وبعد تيقنه من خلوه من المحاولات الانتحارية وأذى النفس وصف له بعض العلاجات طالباً

إلى زوجته إعطاءها له بانتظام مع المتابعة الدورية بالمستشفى والحضور الفوري إن شعرت بتدهور حالته أو عدم استجابته للعلاج.

وبعد مغادرة المرأة وزوجها العيادة توجه "بهاء" إلى "مراد" سائلاً:- أليست هذه حالة اكتئاب شديد واضحة لا لبس فيها؟ لقد شخصت العشرات منها من قبل بأعراض أقل مما يعانيه هذا الرجل بكثير!

لم يجبه "مراد" ولو أجاب لقال:- إن كان ما يعانيه هذا الرجل مرضاً فأنا أولى منه بالعلاج وأحق، كيف أطالب أن أخفف عن الآخرين ذات الآلام التي سبقتهم إلى معاناتها فلم أجد لها دواء؟

تدخل "رفيق" في الحوار ليغير دفته قائلاً:- إنك محظوظ يا "بهاء"، فقد رأيت لتوك مريضين يعانيان نفس المرض رغم الاختلاف البين بين شكواهما.

- ألا يعود ذلك لتباين المستوى الثقافي لكليهما تبايناً ملحوظاً؟

قال "مراد" الذي أثارت الكلمات الأخيرة انتباهه:- إنك لا تخالف رأيي أبداً في نبوغك.

وطلب "رفيق" من "بهاء" إكمال العمل تحت إشرافه بعدما تأكد أن "مراد" لن يستطيع مواصلة العمل وهو على هذا الحال.

سأله "بهاء":- هل تراني قادراً على تحمل هذه المسؤولية بمفردي؟

- لقد حان وقت تحملك المسؤولية بعدما امتلكت الخبرة الكافية للعمل بمفردك، فإذا ما واجهتك مشكلة فاطلب مني التدخل، ولكن لا تسارع بطلب النجدة حتى تتأكد أنك حقاً في مأزق.

79 - زيارة مفاجئة

أخذت "جنة" كعادتها أثناء ذهابها لعملها تستعيد كلماته وتردها على مسامعها كأنها أغنية عاطفية رقيقة لا تمل سماعها، ورأته بعين خيالها ينتظرها - كعادته - مترقباً موعد وصولها، وبعد أن يطفئ برؤيتها أشواقه يتظاهر بالعمل في أي مكان آخر ثم يسارع بالعودة لمكتبه حتى يراها مجدداً.

وتوالت الصور أمام عينيها حتى مرت أمام مكتبه فوجدته مغلقاً ورأت "شهاب" خارجاً من العنبر.

علمت منه أن "مراد" طلب منه تولي عمل اليوم بدلاً منه، وذلك بعد تلقيه اتصالاً هاتفياً من أمه تخبره فيه برغبتها في رؤيته بعد اشتداد وطأة المرض عليها، وهو ما جعله يسافر فجراً، كما أخبرها أن "رفيق" يستعد أيضاً للسفر إلى هناك بعد علمه بذلك.

هاتففت سكن الأطباء لتحادث "رفيق"، وحين أجابها أخبرته أنها تريد الذهاب معه للاطمئنان على والدته "مراد".. وضاعت كل محاولاته إثناءها عن عزمها سدى، وأخيراً هددته بأنها ستذهب بمفردها إن لم يقبل اصطحابها معه فلم يجد بداً من الرضوخ لرغبتها.

واتفقا على الالتقاء في القطار الذي سيغادر من محطة "النسرين" بعد أقل من ساعة.

وحين استقرا بالقطار وجد نفسه مضطراً لإخبارها بالحقيقة، تلك الحقيقة التي دأب "مراد" على إخفائها عن الجميع لا عنها وحدها، فهو ليس رجلاً

متوسط الحال كما يصر دوماً أن يبدو، بل هو من أشرف جزيرته، والمنزل الذي ستذهب إليه ليس منزلاً بالمعنى المفهوم، بل هو قصر منيف يعج بالخدم والحشم.

وقص عليها قصته مع هذه الأسرة وأيديهم البيضاء عليه، لا سيما قبيل خوض امتحاناته النهائية حين تعرف على بعض رفاق السوء الذين كادوا يجرون قدمه معهم إلى الهاوية، فسارع "مراد" بانتشاله من هوة الضياع التي كاد يتردى فيها متعللاً بوفاة والده وحاجته لوجود أنيس معه بالمنزل يقف بجواره ليستطيع عبور محنته، مصراً على قضاء أيام الامتحانات سوياً، وهو الذي لم يكن يهوى الاستذكار إلا منفرداً.

وأطلعها على عطف أم "مراد" البالغ عليه وكذلك أخواته الذين كانوا يعاملونه كأنه أخو "مراد" لا صديقه فحسب.

وحين وصلا قصر آل "الشريف" قوبلاً بحفاوة وترحاب من الخدم الذين يعرفون "رفيق" جيداً، وقادها الأخير إلى غرفة والدة "مراد" مباشرة حيث دخل على الحشد المجتمع بينما توارت هي خلف الباب.

وسار بين "مراد" وأخواته المتحلقين حول فراش الأم ليجثو بجوار فراشها ويتناول يدها فيغمرها بالقبلات سائلاً عن حالها.

ربتت على يده بوهن بينما سمع "مراد" يقول:- يبدو أن اليوم يوم تجمع الأحبة.

استدار نحوه قائلاً:- إنه حقاً يوم تجمع الأحبة، فقد أتت بصحبتي من أبت إلا الاطمئنان على أمانا بنفسها.

وقبل أن يفهم "مراد" مقصده واصل قائلاً بصوت مرتفع:- تفضلي.

ظهرت أمام الباب تمسح بعينيها المكان متجاوزة جميع الواقفين، غير عابئة إلا بالبحث عن وجه المرأة المتمددة على الفراش لتعرف رد فعلها، وقد فهمت المرأة ذلك منها فتبسمت لها ابتسامة الرضا، بينما كان “مراد” يقول لـ “رفيق” وقد أصابته صدمة:- “أجنت يا “رفيق”؟ كيف تحضرها إلى هنا؟

- لا تلمني يا أخي؛ فقد حاولت منعها بكل طاقتي، لكنها أصرت على الحضور بنفسها حين علمت بمرض أمنا.

قالت الفتاة بعدما أمدتها ابتسامة الأم بالشجاعة:- وهل أتيت من أجلك؟ لقد أتيت من أجل أمي التي أحببتها لكثرة حديثك لي عنها.

قالت الأم بصوت متهاك:- ما خطبك يا “مراد”؟ أهذا إكرام الضيف؟ تعالي يا بنيتي إلى حضن أمك.

احتضنتها الأم على أعيائها الشديد ثم قالت وهي تستجلي ملامح وجهها:- لقد صدقت حين قلت أن المرء لا يملك إلا أن يحبها من أول وهلة، فها هو صدري ينشرح لها منذ رأيتها.

قالت “جنة” وهي تقبل يدها بحرارة بينما تنهمر الدموع من عينيها غزراً:- إنك أمي التي لم يُقدَّر لي رؤيتها.. لقد اشتقت لرؤيتك لطول حديث ولدك عنك، ثم زادني “رفيق” شوقاً إليك بما حكى لي عن جميل صنعك به.

تدخل “مراد” الذي لا زال مندهشاً:- ولكن كيف ستبررين لهم غيابك عن المنزل طوال هذه المدة؟

- لا تشغل بالك، فستتولى “مشيرة” هذا الأمر.

قال مستسلماً للأمر الواقع:- لقد بدأت أكتشف فوائد المرض؛ فهو مجمع للأحباب، مزيل للخلاف، قاطع للبغضاء، كاشف عن معادن الناس.

نكزته أخته الصغرى بكوعها قائلة:- أهذه التي عذبتك وأبيت أن تقص علي قصتها؟

وقبل أن يرد عليها طالباً تأجيل الحديث إلى وقت آخر سمعا أمهما تقول:- اتركوني مع ابنتي الجديدة.

80- الوداع الأخير

طال انتظارهم أمام باب الغرفة المغلق إلى أن سمعوا صوت "جنة" تجهش باكية ثم تنادي على "مراد" بصوت مكتوم ففتح الباب على الفور، فإذا به يرى علامات دنو الأجل واضحة على وجه أمه.

هرعوا إليها متحلقين حولها بينما أكب "مراد" عليها يقبلها فقالت له بصوت متحرج:- عليك بها يا بُني، إياك أن تتركها مهما لاقيت، إنها من أجهدت نفسك بحثاً عنها، ولو كان في العمر بقية ما آليت جهداً في الجمع بينكما، ولكن حان الوداع ووافى الأجل المحتوم.. إياك أن تضيعها من يديك ولو اضطررت لمحاربة الدنيا كلها من أجلها.

ثم سكن جسدها فبكى الحضور جميعاً عدا "جنة" التي كانت تنظر إليها ذاهلة غير قادرة على تصديق ما سمعته أذناها للتو.. كيف تقول تلك المرأة عنها ذلك بعد كل ما أطلعته عليه من أسرارها؟! كيف تقول عنها

ذلك بعد كل ما صارحتها به؟!

وكان أول سؤال توجهه إليه بعد عودته لمستشفاه:- لم أخفيت عني حقيقةك؟

- أخبرتك أن والدي كرّسا حياتهما لأولادهما، أما الأبهة والثراء فلست آبه بشيء من ذلك.

- ألا زلت مصرّاً على أنك لم تجد الحب في بلدك؟

- لقد أعجبت بي الكثيرات لكن أياً منهن لم تحبني لشخصي، وإنما ربما لما رأيت وعلمت.

- لم تقل من قدر نفسك مدعيّاً أنك لست أهلاً للحب في ذاتك؟

- بل أنت أول من أحببتي لذاتي.

81- بكاء بلا دموع

تغيبت لئلا تزيد بالرؤية آلامه وآلامها، وحين علم بتغيّبها أخبر "مشيرة" أنها إن لم تات فسيُفعل أي شيء ليرأها ولو اقتضى الأمر الذهاب إليها في منزلها. وبعد قليل عادت إليه "مشيرة" لتخبره أنها آتية مساءً.

لم يُطق انتظارها بمكتبه فهبط إلى فناء المستشفى ليقف بجوار البوابة كي يراها فور وصولها.

وبعد طول انتظار رآها قادمة فطار نحوها هاتفاً باسمها.

أثار المشهد انتباه الحاضرين؛ فرغم علمهم بالقصة وتهامسهم بها ليل نهار، إلا أنهم لم يروه يفقد رزائته المعهودة قط، أما هو فلم ير في المكان سواها.. سألها عن سبب إعياءها البادي على وجهها فأجابته بنظرة ترجو صمته، عاد يسألها غير آبه:- لم تتهربين مني؟! إن كان أي منهم قد أساء إليك بكلمة أو حتى بنظرة فأخبريني به وأعدك بأن أجعله عبرة لمن يعتبر.

- لم يُسء إلي أحد.

- فهل أخبرك أيهم عني ما أغضبك؟ لو كان الأمر كذلك فأرجوك ألا تتسرعي بإصدار الحكم عليّ قبل منحي فرصة للدفاع عن نفسي.. ما أظلم النطق بالحكم قبل منح المتهم الفرصة للدفاع عن نفسه.

- أرجوك ألا تكمل حديثنا هنا.. فالجميع ينظرون إلينا.

وأمام إلحاحها تركها تتوجه للعنبر لتبديل ملابسها ثم تعود إليه في مكتبه، وحين عادت إليه قال لها:- ما يحزنك؟ إن كان قدرنا أن نبقى لسويغاتٍ قليلة فلنحيها في سعادةٍ وحبور طاردين شبح الأحزان عنا.. إن العمر لحظات، قد يعيش المرء عمره كله في لحظة، وقد يضيع عمره كله دون أن يحيا منه لحظة، ما علينا إذا حيننا ما تبقى لنا من لحظات في سرور؟ لا تجعلني تفكيرك في المستقبل ينغص علينا التلذذ بحاضرنا؛ فنحن لا نعلم عنه شيئاً، وحتى لو علمنا فإننا لا نملك منه شيئاً.. ليس بوسعنا إلا أن نحرص على لحظتنا الحالية، هكذا كما هي، بلا ماض ولا مستقبل.. ليس لدينا إلا الحاضر.. أفنضيعه فنضيع كل ما تبقى لنا؟ إني ما تمنيت إلا قربك وها أنا ذا قريب منك فحسبي هذا.

82- ما أبعد الكأس عن الشفتين

تركته قاصدة البحر تبثه شكوها، وهناك جلست على صخرة وتركت خيالها يُسافر حيث يشاء، وفي ذروة شرودها رأيته أمامها، وحين أدركت أنه يقف أمامها واقعاً لا خيالاً قالت له:- لا تدع أن لقاءنا هذا محض صدفة.

- إنه حقاً ليس مصادفة؛ فقد سرت ورائك منذ مغادرتك المستشفى حتى رأيته تقصدين البحر.. لا تخفي أنك وحدك من قصده.. لكم قصده قبلك بعدما لملت أحزاني وجئت ألقياها بين أمواجه المتلاطمة فوجدت أحزاني أشد تلاطماً منها فرجعت عنه.. كنت كلما قصده رأيته الأحبة يسيرون على شاطئه فأغبطهم وأتمنى لو صرنا مثلهم، جالسين على شاطئه ناسين المكان والزمان والدنيا والناس لا يرى أحداً إلا حبيبته، فلا يفيقني من خيالي إلا اصطدامي بواقعي الأليم.

قالت وهي تنتظر إلى البحر:- إنما أتيت لأستشيره في أمري.

- وهل هداك لحل؟

ومد يده لوجهها يديره نحوه، فأجابت وهي تتجنب اللقاء الأعين:- لو فعل لما وقعت في الحيرة التي أنا فيها.

وحين التقت الأعين - رغماً عنها - رأى قلبها يتمزق بين جوانحها فأكل الشعور بالندم قلبه، لم يشعر بالندم يوماً كما شعر به اليوم؛ فقد رآها تعاني الحيرة التي سبقها إلى معاناتها وتمنى في تلك اللحظة لو لم يخبرها بمشاعره قط، ما كان يضيره لو أغلق على قلبه حتى يحترق بناره؟! أما

آلامه فقد عود قلبه على تحملها، لكن كيف سيتحمل الآلام التي سببها لها بيديه؟ كيف يستطيع تحمل رؤيتها تكابد نفس همومه بسببه ثم يقف مكتوف الأيدي؟

83 - اشتر علي يا رفيقي

عاد إلى مستشفى باحثاً عن رفيقه يسأله رأيه، فوجده يجلس واجماً، سأله عن سبب حزنه فأخبره أن والد خطيبته عَنَّفَه على طول أمد الخطبة طالباً منه وضع نهاية لها إما باتمام الزواج أو تركها، وختم حديثه قائلاً:- إنني ما شعرت بصدق كلماتك، ولا ندمت على تضييع عمري وإتلافه إلا البارحة.

- إنك ما أتلقت عمرك ولا ضيعته يا “رفيق”، لقد أنفقت في الحب وأجمل به من إنفاق.. لا تبتئس فلدي الحل لمشكلتك.. إن لدي الكثير من المال الذي ادخرته لزواجي وما عاد له الآن فائدة، خذ منه ما يكفيك لإتمام زواجك.

- كلا.. كفاني ما صنعتم بي طوال الأعوام السابقة.

- اعتبره قرضاً تعيده الي متى تحسنت أحوالك.

ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتيه وهو يواصل قائلاً:- ليت مشكلتي كانت مادية أيضاً.

قال “رفيق”:- لقد جئت تبحث عني .. أليس كذلك؟

قص عليه “مراد” ما دار بينه وبين “جنة” فقال له:- لقد حارت وحقاً لها أن تحار.. لقد حيرتها إذ خيرتها ما بين طبيب لامع، مطمح قريناتها يُحبها حتى النُخاع، يملئ على مسامعها كلمات الحب ليل نهار، وما بين نكرة إمعة لا يعلم حتى كيف يشعرها بحبه لها.

- لو كانت تحبه لما ارتضت سواه بديلاً.. لقد أحببتي يا “رفيق”.. لقد رأيت ذلك اليوم في عينيها.

- وما عساها تفعل وقد تيقنت من استحالة ارتباطكما؟

- ما لي أحدثك حديث الحب فتأبى إلا أن تحدثني حديث الزواج؟

- فماذا تريد منها؟

- لقد عشقتها يا “رفيق”.. عشقتها روحاً فما عاد لي فيما دون ذلك رغبة ولا مأرب.

ضحك “رفيق” طويلاً ثم قال:- لقد برهنت لي على صحة نتيجة توصلت إليها منذ زمن، مفادها أن النفس الإنسانية لا تختلف كثيراً عن العناصر الكيميائية، فهي تعطي نفس النتائج في كل مرة توضع فيها في نفس ظروف التفاعل.

- تريد القول أن نفس الإنسان لا تتغير؟

- إنك أوضح مثال على ذلك؛ فما أنت لم تتخلص من مثاليته بعد، أما المرأة فلا تعرف مثاليته هذه ولا تطيقها؛ فلا فرق لديها بين الحب والزواج، إنهما عندها وجهان لعملة واحدة.. وحين تحدثك إحداهن عن

الحب فهي لا تعني إلا الزواج، وعندما تتيقن ألا سبيل لتكليل ذاك الحب
بالزواج فإنها تقتل حب قلبها بيدها.

- لو رأيت ما رأيتُ لعرفت ما عرفتُ.

- لا تحقرن خبرتي.. إن المرأة بطبيعتها غير قادرة على إدراك المعاني
المجردة إلا إن اكتست بالواقع الملموس، لذا لا تراهن ينبغي كثيراً في
العلوم النظرية أو في فنون الشعر والموسيقى، وما ذاك إلا لطبيعتها التي
تميل نحو الواقعية أكثر من الرجل.

- لكن ما تلمح إليه لم يحدث بيننا قط، إن كل جلسائنا بريئة.. إنني لم أفكر
فيها تفكير رجل بامرأة ولو على مستوى الخيال.

- وهذا ما يزيد الأمر تعقيداً.. أتعلم؟ أحياناً تطلب المرأة بعينها ما تأباه
بلسانها.

وباغتت ذاكرته مواقف عدة تنطبق عليها هذه الكلمات أيما انطباق، وهو
ما جعله يطلب من صديقه أن يعيره مفاتيح مسكنه بجزيرة "النسرين" فترة
من الزمن.

84- برج المراقبة

وظهيرة اليوم التالي وجد "بهاء" ينهي اجراءات مغادرته المستشفى ولم
يتبق له سوى توقيع المدير على أوراقه، فاصطحبه إلى مكتب المدير الذي

قال له بعد الانتهاء من التوقيع:- وددت لو أطلعنتي على سر اهتمامك بهذا الطبيب الناشئ.

- إن العلم رسالة متواصلة ولولا تعليم السابقين للاحقين لانقطع العلم.
نظر إليه المدير محاولاً سبر أغواره وقال له:- أظن الأمر أعمق من هذا.

صمت برهة ثم قال وكأنه يدلي باعتراف خطير:- إنه حقاً كذلك يا سيدي؛ فقد رأيت فيه نفسي حين كنت في مثل سنه.

وتوجهها إلى الاستراحة ليجلسا معاً قبل ترك "بهاء" المستشفى، وهناك قال له "مراد":- أشعر أنك لست حزيناً مثلي لافتراقنا!

- ربما لأن تعودنا على الألم يزيدينا قدرة على تحمله، لقد أخبرتك من قبل أنني أقضي كل فترة من فترات تدريبي بمستشفى مختلف، فقابلت الكثير وفارقت الكثير، فتعود قلبي ألا يحزن لفراق.

- لكني لا أظنك صادقت أحداً بقوة مثلما حدث معي.

- لا أستطيع إنكار ذلك، ولكن توقع الفراق يهون الفراق.. كنت أعلم منذ بدء لقائنا أننا مفترقون في النهاية.

وكان كلماته هذه لمست جرحاً غائراً بقلب "مراد" يأبى أن يندمل، فقال محادثاً نفسه:- حقاً.. إن توقع الفراق يهون الفراق، لكن تمنيه يهونه أكثر.

وسأل صديقه الصغير عما ينوي فعله حيال "زهرة" فأجابه بصراحة أنه لا يستطيع الارتباط بها، فقال له:- إنها تحبك يا "بهاء".. إن عينيها تفيضان بحبك؛ فعينا المحب فاحضتاه، إنهما لا تقويان على إخفاء

مشاعره.. ما يمنعك من التفكير الجدي في الارتباط بها؟

- يقيني بكم العقبات التي ستواجه هذا الارتباط.

- إن كنت وجدت سعادتك بين يديها فلا تأبه باعتراض.. أطع صوت قلبك ولا تعباً بلومة لائم.

تطلع “بهاء” إلى صديقه بعدما زال من قلبه كل شك سائلاً إياه:- هل آمنت بالحب يا صديقي؟!

- ما أشبه الحب بالسراب الذي نسمع عنه من حكايا المسافرين في الصحراء فَيُصَدِّقُ بعضنا وَيُكَذِّبُ البعض الآخر.. لكننا لا نؤمن بوجوده إلا إن جربناه واكتوينا بلذاه وقطعنا الأشواط في الصحراء تحت لهيب الشمس المحرقة نطارده خداعه.

- إذاً فقد وقعت في الحب.

- لقد جريت وراء السراب الذي طالما كنت منه أحاذر.

لكن “بهاء” لم يستطع التماذي في مناقشة الأمر مع صديقه بعدما رأى أمارات الألم ترتسم على وجهه بوضوح، فقال مغيراً موضوع الحديث:- لكم وددت لو كشفت لي عن سر قدرتك العجيبة على كشف أسرار الشخصيات بتلك السرعة التي طالما بهرتنا بها.

وأخيراً بدا عليه أنه بدأ يفارق ذهوله الذي صار ملازماً له عائداً للواقع، فقال لصديقه مداعباً:- فأنت إذاً تريد الصعود إلى برج المراقبة!

- برج المراقبة؟!

- إنه البرج الذي حبست فيه نفسي حتى طال حبسها فقبعت بداخله أرصد تحركات من حولي وسكناتهم منفقاً أحدى ساعات عمري به.. بل إنني توحدت به حتى صرنا شيئاً واحداً.

قال “بهاء” ضاحكاً: - لم أفهم شيئاً.

قال وقد عاد ينتبه مجدداً: - لقد سألت عزيزاً وما هو عليك بعزير.. أنصت إلي جيداً فسأعطيك خبرة عمري وخلاصة تجربتي.. إن تحليلي النفسي مجموع عدة أشياء تنبؤك عن حقيقة الشخصية التي أمامك، إذ لا يمكننا الحكم على شخصية المرء من خلال فعل واحد بمعزل عن مجمل أفعاله، كما أنه لا توجد وسيلة شاملة أو جامعة لجمع المعلومات وإنما وسائل جمع المعلومات يكمل بعضها بعضاً ويؤكد بعضها البعض، ولتعلم أن الكاشف الحقيقي عن شخصية المرء ليس التعرض للمواقف العظيمة، وإنما طريقة تعامل المرء تجاه المواقف الحياتية اليومية؛ فالمواقف الجسيمة تستدعي جهود النفس الخارقة وصفاتها الكامنة، أما التعامل اليومي فيتم على المستوى الحقيقي للشخصية الطبيعية.

بادئ ذي بدء، حين ترى الشخص لأول مرة انظر إليه مدققاً محاولاً ملاحظة كل ما تستطيع غير تارك أدنى الملاحظات تفر من بين يديك، فأنت تستطيع اكتشاف جزء هام من شخصية من أمامك عن طريق تفحص كل ما يخصه، كطريقة تصفيف شعره وملابسه وطريقة ارتدائها وألوانها مركزاً انتباهك على ذوق هذه الأشياء وتناسبها مع بعضها البعض غير عابئ بغلو ثمنها أو رخصه.

- وما علاقة هذه الأشياء بشخصية صاحبها؟!

- عادة ما يؤثر في اختيار المرء لأغراضه روح واحدة هي حقيقة نفسه

وطبيعة شخصيته، وبتمحيصك لكل هذا فسيتكشف لك جزء غير هين من الشخصية.

- حسناً، وماذا بعد؟

- الخطوة التالية هي النظر للمكونات الجسمية للشخص فهي من أهم مكونات الشخصية على أساس أنها أظهر المكونات وأسهلها وأدقها مقياساً ووصفاً، ولذا تعد بمثابة الواجهة الرئيسية للشخصية، وأهم ما في هذه المكونات في رأيي ملامح الوجه لا سيما العينين؛ فبقليل من الخبرة ستتكشف لك العلاقة الوثيقة بين ملامح الوجه وسمات الشخصية.

- أتريد القول أن الإنسان أسير ملامح وجهه؟!

- بل أريد القول أن الوجه مرآة الروح والعين نافذتها، ألا ترى أنك تستطيع التعرف على الحالة النفسية لمن أمامك بمجرد النظر لوجهه، فتعرف إن كان حزيناً أم مسروراً.. راضياً أم غاضباً؛ فالروح البشرية تصبغ الوجه بصبغتها أو بمعنى آخر: الوجه هو المرأة التي تشف عما بالروح من خصائص، وهو الواجهة التي تتمثل فيها سمات الشخصية؛ فما تزخر به نفس المرء من صفات مرتسم بالضرورة على صفحات وجهه ولكن في شكل رموز، وما عليك إلا أن تُجيد فك هذه الرموز لتجيد فن استكشاف الشخصيات.. وعلى كل لم لا نفترض أن هناك علاقة جينية بين سمات المرء ولامح وجهه؟

- أظنك تعني شيئاً يشبه قراءة الوجه!

- وأي عجب في هذا؟ فالوجه هو الشيء المميز لصاحبه، فإن فُصِّل الرأس عن الجسد لما استطعنا معرفة لأي شخص ينتمي الجسد، وعلى العكس من ذلك فأنت تستطيع التعرف على الشخص بنظرة واحدة منك

إلى وجهه.

كان "بهاء" قد قرأ عن هذه النظرية، ولم يعتقد أن صديقه أحد المؤمنين بها؛ فقد قامت اعتراضات عدة في وجهها، لكنه لم يشأ الاعتراض، مؤثراً الاستماع لبقية الحديث المشوق فأوماً برأسه دلالة على الموافقة فواصل "مراد" قائلاً:- وبجمع كل ما سبق تستطيع الخروج بفكرة مبدئية عن أملك قبل نطقه بكلمة واحدة.

تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة والمتمثلة في مراقبة الشخص مراقبة جيدة مع تركيز الاهتمام على أسلوب الحديث وطريقة الضحك وحتى طريقة تناول الطعام وبذا سيتكشف لك جزء أكبر.

ثم تحدث معه حتى تراه، فلسان الإنسان خير فاضح لما يجيش بنفسه.. إن رؤيتنا للحياة مرآة صادقة لطباع نفوسنا وما يعتمل بها من مشاعر؛ فالمتشائم مثلاً يرى كل ما حوله سواداً حالكاً وظلاماً دامساً، أما المتفائل فيرى كل شيء وردياً وجميلاً، بل إن نظرة المرء للحياة تتغير تبعاً لتغير حالته النفسية.

تأتي بعد ذلك بعض الأمور التي أضفتها بعد طول خبرتي الشخصية.

- وهل الشطرنج أحدها؟

- أحسنت، فهذه اللعبة العجيبة تكشف عن الكثير من سمات لاعبيها؛ فهي لعبة نفسية في المقام الأول.

- وكيف تكشف لعبة مثل هذه عن طباع الناس؟!

- إن أهم ما يميز الشطرنج عن غيرها من بقية الألعاب هو تطلبها قدراً

كبيراً من الانتباه والتركيز، فلا يجدي معها الانفعال المصاحب للألعاب الأخرى، كما أنها اللعبة الوحيدة التي لا يلعب الحظ فيها أي دور وإنما كلها من تحكم لاعبيها.

- وما علاقة ذلك باكتشاف الشخصية؟

- إن كل طباع اللاعب تتجلى واضحة أثناء لعبه إياها بشرط أن يجيدها؛ فصفات كالتردد والإقدام والتهور والخيانة والتأني والطمع وحب المغامرة والنبل والفروسية كلها تبدو جليلة أثناء اللعب؛ فالأمر لا يكلفني أكثر من ثلاثة أدوار منها حتى أستطيع الخروج بفكرة جيدة عن شخصية من يلعبني أضيفها للرصيد السابق حتى تزداد الصورة وضوحاً.

- إذا سأحاول إجادتها.

- لا يتبقى بعد ذلك سوى بعض الأمور البسيطة التي اكتسبتها جراء ممارستي الطويلة لهذا الأمر كطريقة التحية والتحدث وثمة حركات لا إرادية تصدر عن المرء رغماً عنه وبعض فلتات السان التي تغالب المرء أحياناً.

- لكن على أي أساس بنيت ملاحظتك هذه؟

- لقد أعاننتني قوة الملاحظة التي أزعم أنني أوتيتها، كما أنني قد أدمنت المراقبة حتى عودت نفسي ألا أترك ملاحظة مهما بلغت ضآلتها حتى أحاول التوصل لتفسير لها، فإن لم أجد لها تفسيراً ظلت تلح على ذهني حتى أتوصل لتفسير مقبول لها، ثم أخذ في الربط بين ملاحظاتي هذه وشخصية صاحبها إلى أن توصلت إلى هذه القدرة على اكتشاف الشخصيات.

لكن لا يفوتني أن أنبهك إلى أمور أخرى على درجة من الأهمية البالغة، فالنفس الإنسانية لا تزال كهفاً مغلقاً وسرداباً غامضاً.. أنها أشبه بعمود من الخرسانة المسلحة المصقول صقلاً جيداً والذي ربما يعجبك إن نظرت إليه من الخارج، أما ما بداخله فلا يعلمه سوى صانعه، كما أنه لا توجد نفسان متشابهتان تمام الشبه، وهو ما يعني أن جميع ما ذكرته لك لا ينطبق بالضرورة على كل الأشخاص، فكم من نظريات ثبت لي خطأها بعد طول اعتقادي فيها؛ فلطالما اعتقدت - مثلاً - أن مزاج الإنسان يتغير تبعاً لتغير الأحوال المحيطة به، فأحوال تسعده وأخرى تشقيه، لكنني اكتشفت مؤخراً أن مزاج الإنسان متقلب من حال إلى حال دونما سبب واضح، ودون أن يعلم حتى صاحبه سبب هذا التغير، كما أن الناس ليسوا بحاجة لسبب كي يشعروا بما يشعروا به؛ فمشاعرهم جزء من شخصياتهم.

85 - من سماء المتاليات إلى أرض الواقع

أصر "مراد" على توديع "بهاء" حتى باب المستشفى، مخالفاً بذلك عاداته في عدم توديع أحبائه، كما أن "بهاء" أيضاً لم يرد ذلك فهو يشبه صديقه في كراهيته لحظات الوداع.

وفي طريقهما نحو بوابة الخروج التقيا مريض الإدمان السابق وهو يهم أيضاً بالمغادرة، والذي أقبل على "مراد" حين رآه قائلاً:- سيدي الطبيب.. لقد بحثت عنك لأشكرك على كل ما فعلت من أجلي فلم أجدك.. إنني أشكر لك وقوفك بجواري وتحملك لي.. إنني ما نجوت مما كنت فيه إلا بفضل

معونتك لي.

- بل كانت إردتك الصلبة التي لا تلين سبب نجاتك.. ليت كل مدمن يمتلك عزيمة مثل عزيمةك.

- ما منحني إرادة النجاة إلا ما كنت فيه من شدة الحبس، لقد أتت علي لحظات كنت مستعداً فيها للتضحية بكل شيء أو التنازل عن أي شيء لأحصل على ما أدمنت، لكن لا فائدة من الشرح والتوضيح؛ فمهما فعلت فلن أستطيع أن أوضح لك قدر معاناتي.

- بل إنني أعلم الناس بمعاناتك.

نظر الرجل إليه متعجباً وقال له:- عفواً سيدي، لكن علم ذلك لا يتأتى إلا لمن ذاق مرارة الإدمان.

- مخطئ إن ظننت الإدمان ليس إلا مادة تُمضغ أو تُشَمَّ.. إن الإدمان هو اعتيادك على شيء إلى حد يعجزك عن الاستغناء عنه أو مفارقتة أياً كان هذا الشيء الذي أدمنت.

86- محاولة للسلوى

وبعد مغادرة "بهاء" قرر الذهاب إلى مبنى "العلاج بالفن".. كان يريد الاختلاء بنفسه بحثاً عن طريقة ينفذ بها الفكرة التي ألهمه بها "بهاء".. لا بد أن يدفعها لتمنى فراقه، وهناك جلس إلى البيانو يعزف على أوتار

حزنه.

وظل يعزف ويعزف بلا انقطاع.. لم يدر كم من الوقت مر عليه، وما توقف عن العزف إلا حين رآها أمامه.. قالت له في تردد:- لقد انتهى يوم العمل ولم أراك في مكتبك منذ الصباح، وبحثت عنك فلم أجذك في أي من أماكن تواجدك المعتادة، وكنت أتفقد المستشفى الآن فسمعت صوت عزف على البيانو فدخلت لأعرف من الذي يعزف الموسيقى في مثل هذا الوقت.

وبدلاً من أن يجيبها واصل عزف لحنه الحزين فقالت له وهي تقترب منه:- إن جميع من هنا يستكثرون على حبك الجارف لي.

توقف عن العزف مجدداً ثم قال لها:- لا تبالي باللام يا فتاتي؛ فلا يلوم على قلب العاشق إلا قلب لم ينبض بحب أو قلب لم ينبض له قلبٌ بحب.

- لن أبالي بهم؛ فحبنا أقوى من لوم اللوام.

لا عاد للعزف ولا تكلم، بل ظل مطرقاً نحو الأرض وكأنه يخشى التقاء عينيه بعينيها فسألتة:- مالي أراك اليوم صامتاً؟

- أتريدين مزيداً من الكلام يحملك مزيداً من الآلام؟!

وعاد إلى صمته حتى قطعه بعد قليل بقوله:- منذ أيام كنت أصبر مريضة على فراق حبيبها فتأملت حالي فرأيتني كمن يحذر الناس من مخاطر التدخين والسيجارة لا تفارق فمه.

وأخيراً توصل للفكرة التي ظل يبحث عنها فرفع بصره نحوها قائلاً:- لقد تفكرت في أمرنا ملياً فرأيت أن افتراقنا أفضل لكلينا، فلو كنا ارتبطنا لتكشفت لك عيوبى الجسيمة.

- أي عيوب تعني؟

- كفاني فضحاً لنفسي أمامك.

- ألا ترى أن الأفضل أن تخبرني بها لعلني أتوصل لنفس النتيجة التي توصلت إليها فأصبر نفسي على فراقك؟

قال وقد شعر أن حيلته بدأت تنطلي عليها بعدما ابتلعت الطعم:- إنني حقاً ما عدت قادراً على كتمان سر أمام جبروت عينيك.. أول ما أعرف من عيوبي شدة الغيرة.

- أتسمي الغيرة عيباً؟ وما قد تريد المرأة أكثر من أن يغار قلب الرجل الذي اختاره قلبها عليها؟ بل ما أتعس تلك المرأة التي لا تشعر بغيرة حبيبها عليها!

- ولكنها غيرة خائفة.. غيرة إلى حد الجنون.

- فهو الشك إذاً؟

- إنني لا أعرف الشك ولا أطيعه، فكيف أشعر به نحوك؟ كل ما هنالك أنني لا أَرْضَى أن يشاركني في قلب من أحب إنسان.

- إن الغيرة شعور طبيعي.. شعور إنساني لا يعرف فرقاً بين رجل وامرأة ولا حتى بين إنسان وآخر، فأنا أيضاً أغار عليك من الهواء الذي تتنفسه.. إن الغيرة - في رأيي - أحد أهم طبائع الإنسان التي أدت إلى تقدم البشرية ورقبها.

- دعينا إذاً من الجدل حول هذا الأمر ولننتقل إلى العيب الأخطر، والذي لن نستطيعي إنكار كونه عيباً.

- لا تصدر رأيي قبل إسماعي.

- ثاني عيوبي حدة مشاعري؛ فمشاعري متأججة.. حين أحب أحب بشدة وأكره حين أكره بعنف، وهكذا حالي في فرحي وحزني وغضبي.

- أتسمي شدة حبك لي عيباً؟! ما أجمل ها العيب وأحلاه!

- هناك ما هو أخطر من كل ما سبق.. الحساسية المفرطة، فأنا حساسٌ لأي شيء ومن كل شيء، قد أثور لأتفه الأسباب وقد أغضب مما لا يستحق الغضب.

- ما شدة حساسيتك إلا دليل صفاء قلبك ونقاؤه، ما أبغض الرجل المتبلد المشاعر إلى قلبي.

- كما أنني لا أجيد تحسين الكلام ولا تجميله، وإنما أتحدث على سجيتي بلا تكلف.

- ليس هذا إلا دليل صدقك، وما كان قلبي ليهواك لحظة لو شعر أنك تظهر خلاف ما تبطن.

قال وعيناه تقران بفشل محاولته:- أتدعين كوني بلا عيوب؟

قالت له عيناها:- لقد فضحت محاولتك ادعاء ما ليس فيك لتجعلني أكرهك.

أما لسانها فقال:- بل إن فيك عيباً خطيراً.

سألها بلهفة:- وما هو؟

- إنكارك أنك جدير بالحب.

صمتت قليلاً ثم واصلت قائلة:- إن العيوب والمزايا أمور نسبية تختلف باختلاف الزاوية التي ننظر بها إليها، فعدم الإنفاق مثلاً قد يراه البعض بخلاً، وهذه نظرة سلبية، بينما يراه آخرون اقتصاداً، وهذه نظرة إيجابية، وما أنت إلا الرجل الذي ظلت أحلم به مُد شبيت عن الطوق.

وفي تلك اللحظة، وفي تلك اللحظة فقط آمن بصدق جملة "رفيق" الرائعة: "أحياناً تطلب المرأة بعينها ما يأباه لسانها"؛ فها هو يرى بعينها الطلب الواضح للبرهان على حبه، وأدرك أنه رأى هذا الطلب مرات من قبل فلم يفهمه، أو ربما فهمه لكن منعه تواجد الآخرين، أو منعه أنه لم يفعل ذلك من قبل ولا حاوله، أو ربما منعه أخيراً بقية من مبادئ لا زالت تحيا بداخله.

واستطاع أخيراً التغلب على كل الموانع والعوائق مانحاً إياها البرهان القاطع على حبه لها وشدة شوقه إليها.

لم يعلم أي منهما ما حدث بالضبط.. كل ما شعر به أنه غادر مقعده ليقترّب منها رويداً رويداً أما هي فظلت صامتة لا تبتعد عنه مهما اقترب، بل إنها أغمضت عينيها حين تلامس جسدها وأرخت رأسها للوراء وكأنها تُسلم إليه نفسها ليفعل بها ما يشاء، وسرعان ما التحما في جحيم من القبلات، وشعر بذراعيها تطوقانه لتزيده اقتراباً منها وكأنها تريد الاختفاء بداخله.

لم يعلما كم من الوقت مر عليهما وهما على هذا الحال، فلا حساب للوقت في لحظات السعادة، ولم يخرجها مما هما فيه سوى سماع النداء الداخلي يطلب منه التوجه لمكتبه، وشعر على الفور بجسدها يُفارق حضنه لينظر كلاهما إلى صاحبه غير مصدقين أن ما تمنياه طويلاً قد حدث أخيراً بينهما.

سألته وهو يهم بالمغادرة:- هناك سؤال يشغلني منذ زيارتي لكم.

- ما هو؟

- كيف ارتضت أمك فراقك رغم حبها الشديد لك؟

- إنها ما فارقتني إلا لأنها تحبني؟

- وكيف يرضي الحب عن الفراق؟!

- لقد آثرت صالحى فى البعد عنها على عدم استفادتي بالقرب منها.

صمتت طويلاً ثم قالت له:- نعم الأم أمك يا “مراد”.. ليت كل امرأة تمتلك قلباً قوياً كما كان قلبها.

87- العلاج بالدب

وفى مكتبه وجد فتى وفتاة بانتظاره.

بادرته الفتاة سائلة وعلامات السرور تكاد تقفز من وجهها:- أألم تعرفنى يا سيدى الطبيب؟

لم يعرفها “مراد” حقاً، لكنه حين دقق فى ملامحها بدأ يتعرفها، إنها ذات المريضة التى حجزها قبل أيام لأنها حاولت الانتحار بعد هجر حبيبها لها، لكن ما أبعد صورتها اليوم عن صورتها بالأمس؛ فقد تبدلت ملامحها تماماً بعدما كست وجهها ابتسامة عريضة حلت محل العبوس الذى لازمها

طيلة الأيام السابقة.

قدم الشاب إليه نفسه شارحاً ما حدث، فهو حبيبها الذي هجرها بعدما أخبرته إحدى صديقاتها أنها على علاقة بشاب آخر، لكنه سرعان ما اكتشف كذب تلك المدعية وإخلاص محبوبته له، فسارع بالحضور لإصلاح ما أفسده.

وطلبت الفتاة من "مراد" الإذن لها بمغادرة المستشفى فوافق على الفور، فما عادت هناك حاجة لبقائها، كان السبب الوحيد لحجزها هو إقدامها على الانتحار بعد هجر حبيبها لها، فما الذي سيدفعها لذلك الآن وحبيبها بين يديها؟

واكتشف في تلك اللحظة أقوى أنواع مضادات الاكتئاب، إنه - بلا ريب - الحب.

88 - إعجاب لا حب

كان "مراد" جالساً بمكتبه ينتظر قدومها حين دخل عليه "شهاب" وأخذ يجاذبه أطراف الحديث، وبينما هما يتحادثان إذا بأصوات ضحكات مجلجلة تصك المسامع، تيقن عقل "مراد" أنها ضحكاتهما بينما أنكر قلبه ذلك، وكنتيجة حتمية نشب صراع حامي الوطيس ما بين القلب المكذب والعقل المصدق حتى انتهى بانتهزام القلب حين مرت أمام مكتبه.

أجل، إنها هي.. لم تعد إلى ضحكاتهما السابقة فقط، بل عادت في أوج

زينتها وكامل بهرجها، وحين رأتهما أَلقت عليهما تحية مقتضبة، نظر إليه “شهاب” نظرة المنتصر في معركة طال أمدّها حتى يُئس من الفوز فيها، ثم ترك المكتب وذهب خلفها ليقول لها بصوت يُسمع الجميع:- ما كل هذا الجمال الذي تبدين عليه الليلة؟! ها قد عدت تسطعين مرة أخرى لتبهري أعيننا كما كنت دوماً.

عاودت ضحكها وقالت:- لن يحتجب عنكم نوري بعد اليوم.

لم يهتد لسبب يعلل به لقلبه تحولها المفاجئ هذا فقرر التّأني واعطائها فرصة للشرح.. وبعد قليل نادى “سميرة” ليسألها عن ملف المريضة التي خرجت البارحة لإنهاء إجراءات خروجها، فأجابته قائلة:- لا أعلم، لم لا تسأل “جنة”؟ فهي مشرفة اليوم، وربما احتاجت إحداهن للملف فأخذته.

خرج من مكتبها باحثاً عنها ففوجئ بها خارج العنبر تحدثت نفس الشاب الذي طلب منها عدم التحدث إليه.. وحين ناداها ودعت الشاب ثم أقبلت عليه تسأله بجفاء:- ماذا هنالك؟

أجابها محاولاً إخفاء ضيقه:- أردت الإطلاع على ملف المريضة التي غادرت المستشفى أمس وحين طلبت من “سميرة” إحضاره لي قالت أنها لا تعلم، واقترحت علي أن أسألك.

زفرت زفرة حارة وقالت:- ألا بد للمشفرة أن تعلم كل صغيرة وكبيرة؟

مال عليها هامساً:- ما الذي غيرك هكذا؟! أغضبتك دون أن أدري؟

لكنها واصلت بنفس نبرتها الحادة:- لن أظل مجالاً للتهامس بين كل متهامسين هنا؛ فجميعهم يحسبون علي كل حركاتي وسكناتي.

واصل بلهجة مستعطفة:- ألم تقولي أن حبنا أقوى من لوم اللائمين؟

قالت وهي تنظر في عينيه مباشرة بينما انخفضت حدة صوتها قليلاً:-
حب؟ أي حب؟ أعتقد أننا بالغنا كثيراً.. إنه لم يكن أكثر من مجرد إعجاب
المرمضة بالطبيب المتميز.

شعر بكلماتها خنجراً تغلغل في قلبه رويداً رويداً حتى مزقه تمزيقاً..
وتوالت أمام عينيه صور الأيام والليالي التي سهرها مفكراً فيها، وشعر
بندم قاتل على تلك الأيام والليالي.. قال لها:- ما كنت أصدق أن قلب
إنسان قد يحمل كل هذه القسوة.. لقد أيقنت أن عشقك كان خطيئتي
الكبرى، فلم أدر أظلمت قلبي بهواك أم أن قلبي هو الذي ظلمني بحبك،
فما كان حديثك الدائم عن النسيان إلا بحثاً عن مبرر لنسياني.. لقد صدقت
حين قلت أنه لا دواء لي إلا النسيان، لكني أراك الآن أهون من أن اشغل
قلبي بنسيانك.. كم كنت غيباً حين فسرت - بحماقتي - عدم تمسكك بدبلة
خطبتك بافتقاده الحب في رجلك، فما كان ذلك إلا بحثاً عن الفرصة
الأفضل، وحين تيقنت أنني لست الفرصة التي طال انتظارك لها - إذ لم
اعطك الميثاق على الارتباط بك إن تركته - تركتني بعد ضياع أملك في
اقتناص الفرصة الأفضل، ولكن لا عتب لي عليك وإنما عتبي على قلبي..
الآن أقولها لك مؤمناً بكل حرف فيها:- ليتني لم أرك.. ليتني لم أرك.

وحين استدار مغادراً رأى "مشيرة" قادمة، أتت بعد سماع نشيج
صديقتها، فسألته:- ماذا حدث؟ وما يبكيها؟

فأجابها:- دعيها.. لعل دموعها تغسل آثامها.

89- وتوالت الازمات

وبلا أدنى تردد اتخذ قراره بترك المستشفى، فأخذ يعد حقائبه ليعود لبلدته باكراً.

حاول قلبه نقاشه فانتهره، ونهاه أن يتحدث إليه قائلاً:- أنت السبب في كل ما حدث، لولا استماعي لك ما كنت لأصل إلى هذه النهاية.

ورغم ذلك ظل قلبه معلناً العصيان حتى أنه صاح به:- لست قلبي.

ولم تترك له صور الذكريات التي توالى على خاطره مجالاً للنوم طوال الليل، وفور أن بدأت حركة العمل بالمستشفى توجه إلى المدير وقد أعد طلب نقله وطلباً آخر لإجازة مفتوحة حتى يحين موعد النقل، فرصيد إجازاته لم ينقص يوماً واحداً منذ بدء علمه.

حاول المدير إثناؤه عن عزمه طالباً إليه إعادة التفكير في الأمر، فأياً كان الدافع وراء ذلك فإنه لا يستحق التضحية بمستقبله العلمي.

كما أخبره مديره بأمر آخر إذ قال له:- لقد حُجز بالأمس مريض تقول زوجته أنه حاول الانتحار، وقد أتت إلى مكنتي اليوم شاكية، تقول أنها قد أحضرت زوجها إليك الأسبوع الماضي فأخبرتها أنه ليس مريضاً ووصف له "رفيق" بعض الأدوية.. وقد أحلت الأمر للتحقيق، لكن لا تغلق، فكثيراً ما واجهنا مثل هذه الأمور من قبل، ومن جهتي لا زلت غير مصدق بالطبع؛ فهذا خطأ لا يخطئه غر ساذج لا يحسن مبادئ الطب النفسي لا جهبذ من جهاذة هذا العلم.

وقرر “مراد” تأجيل الحديث عن طلب النقل إلى أن يتضح هذا الأمر لنلا يعطي أعدائه الفرصة للإدعاء بأنه يريد التهرب من مشكلاته.

90- لم يكذبني قلبي

وحين عاد لغرفته سمع هاتف الاستراحة يدق بلا انقطاع، كانت المتحدثه “مشيرة” التي سألته الحضور إليها دقائق للتحدث، حاول التنصل من لقائها متعللاً بالإعياء فقالت له:- لدي دواؤك.

وحين التقيا أخبرها أنه عازم على الرحيل عن المستشفى فلم تصدق، قال لها:- أما كفاني ما رأيت ببلدكم؟ أليس عجيباً أن آتي للبلد الذي يقصده الناس استشفاءاً ثم لا يصيبني مذ أتيت إلا السقم والوجع؟!

- يبدو أنها نجحت في خداعك.

- أجل، خدعتني، ولأول مرة في حياتي أخدع.

- بل هي أول مرة يخونك فيها شعورك الصادق.

- ذريني لآلامي؛ فالجروح قد تُشفى بمرور الزمن إلا جرحي.. إنه لن يندمل مهما طال الزمن.. كم كذبت عيني من أجلها وكذبت كلام الناس فما عدت إلا بالملام وكانت النتيجة أن خانت حبي لها.

- إنها لم تخنك؛ فهي لا تعرف الخيانة وتتفر من مجرد ذكرها، وأغلب ظني أنها ما فعلت كل ذلك إلا لتبعدك عنها بعد تيقنها من حتمية فراقكما.

ضحك سخرية وقال:- وما الجديد في ذلك؟ كلانا كان يعلمه من قبل، لكنها تغيرت ما بين عشية وضحاها.

- لا أعلم لسؤالك هذا إجابة، لكني أعرف صديقتي جيداً وليست هذه طبيعتها، حتى أنها لم تنم البارحة جيداً كعادتها حين نعمل معاً ليلاً، وكانت تتمتع بكلمات أثناء نومها لم أفهم لها معنى.

ولأول مرة يتغير أسلوب حديثه ليسألها بانتباه:- ماذا كانت تقول؟

- كانت تردد جملة مثل “إنها فارقتني لأنها تحبني” أو شيئاً من هذا القبيل.

عاد الضياء يسطع مجدداً أمام عينيهِ ليجلو الظلمات.. إنها لم تكن سوى كلماته التي سببت لها ذاك الانقلاب المفاجئ.

- لكن ماذا عن معاودتها الحديث مع ذلك الشاب بعدما نهيتها عنه؟

- لقد سمعتها تهاتفه طالبة منه الصعود للحديث معه.. أظن أنها فعلت ذلك عامدة لتريك أنها عادت لمحادثة.. لكن لا تسلني عن سبب ذلك فلست أعلمه.

لم يكن بحاجة لسؤالها عن السبب بعد فهمه كل شيء.. لم يكذب قلبه هذه المرة أيضاً، ولا حتى “مشيرة” حين وعدته أن يجد دواءه لديها فقد أعطته الدواء، وكان الدواء الناجع حقاً.

وطلب منها إخبار “جنة” أنه سينتظرها بغرفة الموسيقى في نفس موعد الأمس.

91 - فراقه بلا ألم

وفي غرفة البيانو جلس ينتظرها.. أتت متأخرة عن موعد المرة السابقة.. وقفت أمامه سائلة:- ألا زالت لديك إهاناتٌ أخرى لم توجهها إلي بعد؟

ابتسم لها وقال:- ألا زلت غاضبة من خلاف البارحة البسيط؟

اتسعت عيناها ذهولاً وصاحت فيه:- خلاف البارحة البسيط؟

- أجل، فما هو إلا مجرد خلاف وحسب؛ فمذ عرفتك تركت لك مطلق الحرية في فعل ما تشائين، فتخليتِ عن زينتك بكامل إرادتك وتركتِ محادثة الآخرين بمحض اختيارك، لذا فإن عُدتِ لما أفلعتِ عنه فهذه أيضاً حريتك.

- عجبت لرجل كان يصف نفسه بالغيرة الشديدة كيف يقول ذلك!

قال لها وهو يقترب منها:- إذاً فهذا ما دفعك لفعل ما فعلتِ، فكرت في إيهامي - بعد إخباري لك بشدة غيرتي - أنك قد عدت لسابق عهدك حتى أكرهك فأفارقك فراقاً لا ألم فيه.. فراقاً يجبر قلبي علي نسيانك، طانة أنك إن خيلت إلي أنك عدت لما أفلعت عنه هَوْنٌ هذا على قلبي نسيانك.. إنك لم تقدرني للآن مدى حبي لك، فأنت إن فعلتِ قدر ما فعلتِ عشرين مرة ما كان قلبي ليكرهك، فقد أحبك وما تحدث لحظة عن تغييرك.

أجابته باندفاع:- وأنا لا أستطيع حب رجل لا يغار علي.

- إنني حقاً غيور، لكني أجيد تقدير قيمة من أُمامي.. فأنت لست خائنة، بل

ولا تعلمين عن الخيانة شيئاً، ليتك كنت كذلك فما كان أهون على قلبي حينئذ من نسيانك، إن من تأصلت الخيانة بدمها تَحْن ولو وُضِعَ على بابها عشرون سوراً وعلى كل سور عشرون حارساً، فإن لم تجد من تخنه خانت نفسها، أما من عفت نفسها عن الخيانة فما أصعب ذلك عليها ولو أتاحت أمامها كل الفرص.. أتظنين الخيانة أمراً يسيراً؟ ما أشقها على نفس من لا تعرفها، حتى تلك المرأة التي تخون فإنها لا تفعل ذلك إلا مع رجل يميل إليه قلبها لا مع كل عابر سبيل، بل إن أولئك اللواتي احترفن الجنس مهنة لو كُنَّ وجدن قلوباً تميل إليهن لأقلعن عن ذاك الطريق.

صمت قليلاً ثم واصل قائلاً:- لكنها فضحتك فوشت إلي بكل أسرارك.

- "من هي؟" سألته في دعر.

- دموعك.

حاولت تذكر متى رآها تبكي أمامه فلم تتذكر حدوث ذلك إلا أمس، لكن حتى ليلة أمس لم يرها تبكي وإنما سمع صوت نشيجها فقط لأنها أدارت وجهها بعيداً عنه حين داهمتها الرغبة الجارفة في البكاء، وحين رأى حيرتها قال لها:- لقد بكى قلبك وإن لم تدمع عيناك؛ فبكاء القلوب أشد وأنكى من بكاء العينين.

- متى كان ذلك؟

- على الشاطئ.. حين كنت تحدثيني عن الحيرة التي وقعت مثلي فيها فما وجدت منها خلاصاً.

وأطلقت هذه المرة العنان لدموعها بينما واصل هو قائلاً:- أما حذرتك من حدة أحاسيسي وفوران مشاعري؟ ما حملني على فعل ما فعلت سوى

حبي الجارف لك؛ فما كان قلبي ليتحمل فراقك مرتين، قبل أن تحاولي اقتلاعك من قلبي عليك أن تقلعيني من قلبك، قبل أن تتركيني أعيدي إلي قلبي الذي سلبته مني.

ولم يستطع مقاومة رغبته العارمة في ضمها إلى صدره، كما أنها أيضاً لم تقاومه، بل أراحت رأسها على كتفه وهو يقول لها:- لقد أحبيتك هكذا، أحبيتك بكل عيوبك ومتناقضاتك.. أحبيتك كما أنت فتغيري إن شئت أو لا تتغيري؛ فما عاد يعنيني.

92 - حقائق جديدة

عاد لمكتبه متظاهراً بالعمل بينما عقله لا يكف عن التفكير في أمره، وبعد قليل أتت إليه "سميرة" وأمارات السرور بادية على وجهها، فقال لها:- لعل خلافك مع خطيبك قد زال.

فقالت وقد انقلب وجهها من السرور الشديد إلى الضيق الشديد دفعة واحدة؟

- لم تصر دوماً على التحدث عنه؟

ثم قالت بتخابث شديد:- لم لا نتحدث عن "جنة" مثلاً؟

- ولم اخترت "جنة" دون سواها؟

- لأنها صديقتنا المشتركة؛ فهي جارتي وصديقتي، وفي نفس الوقت تعمل

معك هنا.

واصلت دون انتظار رده:- أتعلم أن خطبتها مثلت مفاجأة لنا جميعاً؟ لكم عارضنا ارتباطها بخطيبها الحالي، فما هو إلا شاب عابث لا هم له سوى الجلوس على المقاهي والمقامرة، فلا احترف حرفة ولا امتهن مهنة يتكسب منها قوته بعدما أفسده تدليل أمه الزائد له.. لكنها فاجأتنا جميعاً بموافقتها على خطبتها له، ثم رأيناها بعد ذلك تصر على الزواج به، بل وإتمام الزواج بأسرع ما يمكن، وزادتنا اندهاشاً بأفعالها التي لا نجد لها تفسيراً، إذ نراها على إثر كل خلاف بينهما - وهو الذي كثيراً ما يحدث - تسارع بالاعتذار له مهما كان خطؤه فيها بادياً للعيان.

ولمح في عينيها نظرة مأكرة لم يفهم لها معنى، لكنه قرر الا يشغل باله بها، فالأهم الآن هو التأكد من صحة المعلومات الجديدة المثيرة، ولم يجد خيراً من "مشيرة"؛ فهي صديقتها المقربة ولا بد أنها مستودع أسرارها.. حاورها طويلاً مستخدماً أقصى قدرة له على المناورة حتى أخبرته بكل ما لديها، فأكدت كلام "سميرة" عن ذلك الشاب، فرأى أنها شاب تافه لا يمكن لأحد أن يحبه، لا سيما صديقتها الطموحة، فقال لها محاوراً:- أتعلمين؟ إنها على العكس منك تماماً؛ فقد خُطبتِ إلى من تحبين - أو على الأقل ترضين - فبدا أثر ذلك واضحاً عليك، أما هي فلا أحبته ولا حتى ارتضته، فأثر ذلك سلباً على نفسيته.

- كيف عرفت أنها لا تحبه ولا ترضاه؟

- هل تذكرين أول لقاء لنا؟ ألا تذكرين أنك فور شعورك أنني أعاملك بودٍ زائد تعمدت التحدث عن خطيبك أمامي بلا سبب وكأنك تنبهيني أو تحذريني، أما هي فأصرت على ترك دبله خطبتها، ناهيك عن عدم ذكره أمامي مطلقاً، بل إنها كانت تتلذذ بلهفتي عليها حين تيقنت من مشاعري

نحوها وأبت إخباري بأمره حتى يدوم لها فيضان مشاعري، ورغم كل ذلك فقد وافقت عليه.

- كم نبهناها لميله الشديد إليها فلم تأبه لنا قائلة أنها لا تفكر فيه، فضلاً عن ارتضائه زوجاً، لكنها فجأة وبلا مُقدمات وجدناها تخبرنا أن خطبتها إليه تمت الليلة السابقة دون حتى إقامة حفل لخطبتها كما فعلنا جميعاً، وكما كانت هي نفسها دوماً تحلم.. حتى أخوها الأصغر الذي لا يحب هذا الشاب ولا أمه وكان سندها في رفض تسلط أخيهما الأكبر كاد يُصعق، فهي لم تكتف بالموافقة على خطبته بل وجدناها تتعجل الزواج منه بأسرع ما يمكن وما وجدنا لذلك أيما تفسير.

زادته كلماتها يقيناً من صدق ظنونه؛ فهي قد أخفت سرها عن صديقة عمرها، فأني سر ذاك الذي تخفيه الفتاة عن صديقة عمرها؟ ووجد الفرصة مناسبة ليوجه إليها ذاك السؤال الذي طالما حيره:- أنت أيضاً لم تحاولي إطلاعي على أمر خطبتها ولو تلميحاً أو حتى إشارة، رغم أن ذلك كان بإمكانك، ورغم علمك بمشاعري نحوها منذ البداية.

- كنت أنتظر إخبارها لك بنفسها؛ فقد رأيت حبك لها يدخل على قلبها الفرح الذي لم تعرفه منذ خطبتها.. فهي منذئذ لم تعرف إلا الهم والحزن وكانت قبله أكثرنا ابتساماً وحبوراً.

93 - فراقه مبكر

ذاع خبر عزمه ترك المستشفى حتى وصلها، فأنتت إليه سائلة:- أحقاً ستغادر؟

فاوماً برأسه إيجاباً ولم ينطق، فعادت تسأله:- أنتوي العودة لموطنك الأصلي؟

- منذ توطن قلبي بقلبك ارتضاه وطناً فما عاد يبحث له عن وطن جديد.

- لو كانت رؤيتي تجدد أحزانك فبإمكانني ألا آتي حتى تذهب.

- إن ارتضى قلبك ذبح قلبي بسكين بارد فافعلي.. إني منذ عرفتك ما عاد لي هم سوى معرفة مواعيد مجيئك وذهابك وانتظار هذه الساعات الجميلة المؤلمة بكل لهفة وترقب، حتى حرت أيهما على قلبي أشد، أجنة بعدك أم نار قربك؛ ففي بعدك أفرح لمضي الدقائق والثواني التي تبشرني بقرب رؤياك، أما حين أكون معك فيتملكني الحزن لانفلات الساعات من بين يدي رغماً عني معلنة قرب افتراقنا.

- على أي حال سأغيب عن المستشفى بعد أسبوعين استعداداً للزواج.

- إذاً فلم يتبق من عمر سعادتي سوى أسبوعين.

- كما أنني سأذهب لدورة تدريبية جديدة طوال الأسبوع القادم.

- إذاً فهو أسبوع واحد فقط.

- أحقاً؟

- ما هذا السؤال المتشكك؟ أتشعرين أنني أخدعك؟
- إنك لا تعرف الخداع.
- أو أنني ألهو بك؟
- ولا هذا أيضاً.
- فما سر قسوتك هذه؟ لو كان بقلبك معشار ما بقلبي لطرت شوقاً للقائي ولما هان عليك فراقي لحظة واحدة.
- ما ظننت أن سؤالي هذا سيجرحك هكذا.
- لا يمكنك جرحي ولو غرست بقلبي ألف سكين، حتى إن كنت سبب جرحي فما أحلى جرح الحبيب.
- كان يقينه أنها ستفارقه يكاد يقتله، فهو ما ذاق طعم الحياة إلا منذ عرفها، فأدرك أنه ما علم من الدنيا إلا قشورها وترك جوهرها.
- بدت على وجهها أمارات من اتخذ قراراً صعباً على نفسه وهي تسأله:-
لم كفت عن طلبني لقائك خارج المستشفى؟
- ما عادت بي حاجة للقائك.
- لماذا؟ سألته في دهشة ممزوجة بالفرع.
- فأجابها وهو يغوص في بحور عينيها:- لأنني ألك وأجلس إليك وأخرج معك للتنزه وأفعل بك ما أشاء.
- سألته ودهشتها تتزايد:- كيف يحدث هذا ولا أعلم به؟

- وكيف لك أن تعرفي وهو يحدث في أحلامي؟

- وفي أحلامي أنا أيضاً.. انطلقت الكلمات منها رغماً عنها.

لكنها أصرت على أن يلتقيا حقيقة وألا يكتفيا بلقاء الأحلام، وبعد النقاش حول أنسب مكان يلتقيا فيه بعيداً عن أعين الناس، اتفقا على أن يلتقيا بالمسكن الذي استعاره من "رفيق".

94 - الكبوط من برج المراقبة

وفي الموعد المحدد جلس ينتظرها نافذ الصبر، وفور سماعه طرقات على الباب هرع إليه.. كانت هي.. أتت إليه متوترة الأعصاب زائغة العينين كما لم يرها من قبل قط.

دخلت سريعاً ثم أحكمت إغلاق الباب خلفها.. مضت برهة من الوقت وكل منهما ينظر إلى صاحبه غير مصدق، هل هما حقاً الآن بمفردهما بعيداً عن عيون المتربصين وكلام المتقولين؟ هل أخيراً وبعد طول اشتياق يجمعهما مكان مغلق عليهما؟

وفي أقل من لحظة كان كل منهما في حضن الآخر يذوب قبلاً وعناقاً، وكأنهما يطفئان بتلك القبلات وذاك العناق لهيب الأشواق التي تأججت بقلبيهما منذ اللحظة الأولى.

وشعرت بضلوعها تكاد تتحطم بين ذراعيه القويتين وبشفثيها المكتنزتين

تلتهمهما شفتاه، وإن هي إلا لحظات حتى تلاشت الحدود بينهما فما عاد أحدهما يعرف فاصلاً بين جسده وجسد الآخر.

لكن فجأة، وكما ينقطع التيار الكهربائي دون سابق إنذار ليترك المكان في ظلام دامس، انطفأ جسده وفارقتة رغبته المحمومة التي تملكته منذ بدء لقائهما، وشعر بجسده ينتزع من جسدها انتزاع السيف من غمده.. أحقاً صدق توقعه؟!

ورغم كل الدلائل والمؤشرات التي اجتهد في البحث عنها، ورغم أنه كان منذ لحظات - قبل لقائهما - شبه متيقن من ذلك، إلا أنه لم يصدق إلا الآن.. حين تيقن بما لا يدع مجالاً للشك أنها.. ليست عذراء.

ورأها تتخرط في بكاء عميق لم تحاول كبحه.. كل ما حاولت فعله هو لملمة ما تبقى من أنقاض نفسها وجسدها.

وبعد فترة بدت وكأنها دهر بأكمله استطاعت أخيراً أن تقول له من بين بكائها ودموعها:- ها قد عرفت بنفسك ما لم يطاوعني على إخبارك به قلبي.

كان ينظر إليها محدقاً وكأنه شارد في عالم آخر.. بدت عيناه كأنهما تنظران فيما وراءها وكأنهما تسترجعان شريط الذكريات التي مرت به منذ دفع بها حظه العائر إلى طريقه.

95- هذا سرّي

قالت وهي تلملم أشلائها:- من قبلك لم يعرف الحبّ قلبي، لكم أحبني الرجال فلم يشعر قلبي بأيّ منهم، حتى حينما كنت أرسم قلباً كما تفعل الفتيات كنت أكتب في أحد الطرفين اسمي وفي الطرف الآخر أكتب "المجهول".

إني ما رضيت به إلا لما علمت الآن، لا أستطيع التماس العذر لنفسي.. لكنني أقسم لك أنني لا أعلم كيف أسلمت إليه نفسي وهو أبغض الناس إلى قلبي!

صمتت طويلاً فاحترم صمتها حتى عادت تقول له:- ظللت من بعدها نادمة على ما اقترفت يداي وأصررت على دفع ثمن خطيئتي، ورغم أنني لم أسمح له أن يقربني بعدها إلا أنني لم أسامح نفسي على ذلك الخطأ أبداً.. نعم أحببتك وأقسم لك على صدق كل كلمة قلتها لك، ولكن أكنت ترضى بامرأة أسلمت جسدها لرجل قبلك؟

وما أن تحركت شفاته ليرد عليها حتى وضعت يدها على فمه وقالت له:- أرجوك ألا تتسرع بقول كلمات تواسيني بها. أعلم أن مشقة اعترافي هذا على قلبك لا تقل عن مشقته على قلبي، لكنها الحقيقة.

رفع يدها من على فمه بحنان وقال لها:- لن أتسرع بقول شيء.. لقد شغلني أمرك الأيام والليالي حتى توصلت لنتيجة مقاربة لاعتراك هذا لكن منعني السؤال عنها رفضي جرح مشاعرك.

اتسعت حدقتها دهشة وسألته:- كيف توصلت إلى ذلك؟

- أظننت خلعتك الدائم لدبلة خطبتك قد مر علي هكذا دون أن أتوقف أمامه؟ إن دبلة الخطبة رمز لارتباط الفتاة برجلها، فكرهت مجرد الرمز الذي يربطك به، وأبيت إلا خلعه من يدك وفكرت على الدوام، كما أنك كنت تتهريين من ذكره حين كنت أسألك عنه رغم إصرارك عليه وتمسكك العجيب به.

- كل هذا لا يكفي ليؤدي بك لاستنتاج هذا الأمر بالذات.

- ليس هذا وحده طبعاً؛ فهناك العديد من الأمور التي ساقنتي للتفكير في هذا الاحتمال.. بدأ الأمر حين تناولت شخصيتك بالتحليل، وهو ما لا مجال للإفاضة في شرحه الآن، كل ما يمكنني قوله لك أنني تيقنت من كون شخصيتك لا تتناسب والمظهر الذي حاولت الاكتساء به من حرص على الحديث مع العديد من الرجال ومحاولات دائبة للفت الأنظار ونيل الإعجاب، ثم أنت مراقبتي الدقيقة لك مبرهنة على صدق تحليلي.. إذ كان وجهك يكفهر فور تحولك عمن تحادثينه متحولاً من التظاهر بالضحك إلى العبوس والوجوم دفعة واحدة معلناً رفضك لما تفعلين.

أتى بعد ذلك أمر ديوان الشعر الذي أقرضتني إياه ليزيديني يقيناً من صدق فكرتي عنك، فعادة المرء حين يطالع كتاباً أن يضع خطأ تحت الكلمات ذات الوقع الخاص في نفسه، فرأيتك تظللين بهالات سوداء - وليس مجرد خطوط فحسب - كلمات بعينها مثل "الخطيئة" و"الندم" و"الخيانة" فعلمت أن لهذه الكلمات أثراً بالغاً في نفسك.

ثم أخبرتني بأمر دبلة خطبتك وكيف صارت أوسع بكثير من إصبعك حتى صارت تسقط منه بسهولة وهو ما يعني فقدانك المستمر لوزنك، وهذا مناقض لما يحدث لأغلب الفتيات حال خطبتهن إذ تزداد أوزانهن نظراً لشعورهن بالراحة النفسية.. على الأقل فإنهن لا يفقدن أوزانهن.

ثم علمت بتغييرات كثيرة طرأت عليك متزامنة مع خطبتك، إذ صرت بعدها تتعمدين لفت الأنظار وجذب الانتباه ولم تكن تلك سجيّتك قبل الخطبة، فقد كنت فتاة عادية، بل كنت تتهربين من طالبي ودك - وما كان أكثرهم - غير معيرة إياهم اهتمامك.. وأتى هذا مرة أخرى على عكس المتوقع من الفتاة حال خطبتها؛ فهي تهجر من ألقت محادثتهم من قبل نتيجة لشعورها بالانتماء لرجلها الذي ما عاد يملأ عينها سواه.

كما أن نوبة الأزمة صارت تهاجمك أكثر لابتة بجسمك زمناً أطول، ولا يعني هذا إلا أنك لم ترتضيه خطيباً، فمرض الأزمة الربوية أحد أهم الأمراض المشتركة ما بين النفس والجسد، فرغم أن ظهور المرض يعزى لأسباب وراثية وعوامل حساسية تختلف من شخص لآخر إلا أن أحد أهم عوامل معاودة الأزمة للمريض اضطراب نفسه، ويفسر البعض ذلك بأن لكل منا عضو ضعيف بجسده تنعكس عليه آثار اضطراب نفسه فيتأثر عضوه هذا كلما أصابه فرح أو ترح، وبالنسبة لك فإن عضوك الضعيف هو جهازك التنفسي الذي يتحول من الصحة للمرض فور وقوعك تحت طائلة الضغوط النفسية.

كما أن فلتات اللسان تظهر بواطن القلوب، فقد قلت لي ذات مرة أثناء حديثنا: قل لقلبك أن المرأة ربما تسلم جسدها مُجَبَّرة، لكن ما من قوة في الأرض تستطيع إجبار المرأة على تسليم قلبها لمن لا تحب، ولقّنت انتباهي كلمتك هذه فما كان لها أدنى علاقة بحديثنا.

ثم شارف بي على اليقين علمي بتحولك المفاجئ من رفضك التام له إلى قبولك غير المشروط له، أما ما جعلني متيقناً تماماً هو علمي برفضك المطلق للإفصاح عن سر تغييرك المفاجئ في موقفك نحوه حتى لصديقة عمرك، فرأيت أن الفتاة لا تخفي عن صديقة عمرها سرّاً إلا أن كان

يجرح كبرياءها أمامها.

لبثت وقتاً طويلاً لا تدري ما تقول، فهي ما كانت تتوقع أنه كان يكشفها بمثل تلك السهولة واليسر، وأخيراً نجحت في مسح دموعها وقالت له بصوت مختنق:- أرجو ألا يغير هذا من احترامي في عينيك.

ضمها إلى صدره في حنان قائلاً:- ما زادني ما علمت إلا تشبثاً برأيي فيك.. إنك أنت من أضعت عمري بحثاً عنها.

انترعت نفسها من بين يديه صائحة:- أنا؟

- أجل، أنت، لقد أخطأت مرة واحدة ثم ظللت نادمة على خطئك طيلة الوقت فلم تعودى إليه بعدها، إنك لا تشبهين من قريب ولا بعيد أولئك اللواتي يتعمدن الخطيئة، لقد أبى ضميرك اليقظان معاودة الذنب رغم امتلاكك كلاً من الفرصة والمبرر.. كم من مدعية للشرف تبحث عن الخطيئة ولو سُدَّ أمامها كل سبيل إليها، بل كم من زوجة تتظاهر أنها السيدة الفاضلة وهي التي تلوث شرف زوجها ليل نهار وهو لا يدري.

- ولكن.. ماذا عما حدث؟!

- حسبي أن قلبك لم يملكه سواي، فلا يضيرني إن امتلك أحدهم جسدك ساعة من ليل أو نهار، أفرأيت إن تزوجتِه فَبِتَ في أحضانه كل يوم وليلة، أكان ذلك مغيراً من أمر عشقي لك شيئاً؟

- وماذا عما رأيت من علاقاتي ومهاتراتي؟

- لقد هانت عليك نفسك بعد أن حدث ما حدث.

96 - صورة طبق الأصل

وفي الليلة التالية تغيبت، وحين سأل "مشيرة" عن السبب أخبرته أن الأزمة الربوية قد عاودتها فنصحها طبيبها بملازمة الفراش فقال لها:- أبلغها أنها إن لم تأت فسأذهب لرؤيتها ولو كلفتني هذه الرؤية حياتي، لن أقف مكتوف الأيدي وأنا أعلم أنها مريضة، فلا أنا قادر على رؤيتها ولا حتى الاطمئنان عليها.

وبعد قليل عادت إليه "مشيرة" لتخبره بإصرارها على موقفها فطلب منها إعطائه عنوانها، وحين رأت "مشيرة" صدق عزمه على الذهاب إليها أخبرته أنها ستذهب معه، لعل ذلك يخفف من الكارثة التي ستحدث حين يذهب إلى هناك، واتفقا على أن يلتقيا خارج الجزيرة بعد نهاية دوامها.

وبعد غروب الشمس بقليل وصلا منزلها الواقع في الحي الشعبي على الطرف البعيد من جزيرة "النسرين"، وهو منزل من طابقين تبدو آثار السنين واضحة عليه.

دخلا من الباب المفتوح، وما أن مرا أمام باب المسكن الأرضي حتى سمعا صوتاً من خلفهما يسأل:- من هذا؟

استدارا معاً نحو مصدر الصوت، فإذا بها امرأة جاوزت الستين خريفاً جامدة الملامح، متجهمة الوجه عابسة.

قدمته "مشيرة" إليها وأخبرتها أنه أتى لزيارة "جنة" حين علم بمرضها، وأخبرته أثناء صعودهما إلى الطابق العلوي حيث تسكن "جنة" أن هذه أرملة أبيها.

طرقت "مشيرة" الباب فَفُتِحَ بعد أمد غير قصير، ومن خلفه بدت "جنة" في ملابس المنزل والإعياء واضح على وجهها لكنها حين رآته غطت أمارات الهول على ملامح الإعياء، ولبثت برهة تحديق فيه غير مصدقة أنه فعلها آتياً إليها في عقر دارها، وأخيراً تمالكت نفسها وقالت له:- آخر ما كنت أتخيل أنك ستنفذ تهديدك حقاً.

- ما كانت قوة على ظهر الأرض لتمنعني من رؤيتك والاطمئنان عليك.

سعلت "مشيرة" سعلة مفتعلة لتذكرهما بوجودها الذي بدا وكأنهما نسياء، ثم سألت صديقتها:- هل ستتركيننا واقفين بالباب؟

تراجعت لتفصح لهما الطريق وعيناها لا زالتا معلقتين به.. كانت تريد التأكد أن حضوره إلى منزلها هذه الليلة أتى بقرار من عقله الواعي وليس نتيجة لوثة جنون مفاجئة، وتساءلت إن كان هذا الرجل يقدر حجم الخطر الذي يعرض له نفسه بهذه الزيارة!

سألها عن حالها فأجابته:- لم أك يوماً بحال أحسن من اليوم.

بنفس القدر من الاستغراب كان الشعور بالفرح يغمرها حتى أن السعادة كادت تقفز من عينيها وهي تنظر إليه، فإنها - رغم كل شيء - قد أدركت الليلة فقط كم يحبها.

قالت له:- أتذكر حديثك عن المرض وأنه مجمع للأحباب مزيل للخلاف قاطع للبغضاء كاشف عن معادن الناس؟

سألها مستعظفاً:- وهل ستصرين على الغياب؟

ضاعت ملامح فرحتها وكأنما ذكرها ببؤسها ثم قالت له:- بل سأحضر

إليكم غداً لأوزع دعوات حفل الزفاف.

لم ينتبه لإجابتها كثيراً إذ استرعت انتباهه في تلك اللحظة صورة كبيرة معلقة على الحائط، وكان ما جذبته إليها غرابتها؛ فقد بدت وكأنها صورة “جنة” وهي أكبر سناً أو أن الإرهاق قد انتابها إلى حد كبير.

وحين رأت تعلق بصره بالصورة قالت موضحة:- إنها صورة أمي، فأنا - كما ترى - صورة طبق الأصل منها، قيل لي أن والدي كان يحبها حباً جنونياً، حتى أن شيئاً لم يؤثر فيه مثل موتها، على كل ما لاقى من صعب ومحن، لكنه رأى فيّ العوض عنها، لذا كان يؤثرني بمنزلة خاصة دون إخوتي.

صمتت قليلاً ثم واصلت بكثير من الشجن:- مأتت بعد ولادتي بقليل فحملني بين يديه وقال:- ذهبت “جنة” وأنت “جنة”، فسماني باسمها.

وفي تلك اللحظة دخل شابان إلى المسكن وتوجها مباشرة نحو “مراد” وكأنهما يعرفان مسبقاً بوجوده ليسأله أحدهما بغضب:- من أنت؟

نظرت “مشيرة” نحوه ففهم معنى نظرتها، فهذا إذاً خطيبها.

أجابه “مراد” وهو ينهض ماداً يده بالتحية:- أنا طبيب بالمستشفى التي تعمل بها الآنسة “جنة” و..

تجاهل الشاب اليد الممدودة إليه واندفع يقول والشرر يتطاير من عينيه:- وهل يصرح لك طبعك بانتهاك حرمت المنازل؟

كان الشاب يحافظ على اتزانه بصعوبة وبدأ “مراد” يشم رائحة الكحول - التي يعرفها جيداً بحكم عمله - تفوح من فمه، وأدرك في الوقت ذاته أن

هذا الشاب من ذلك النوع الذي لا يجدي معه الحديث المذهب، وأنه لن يردعه إلا الإجابة بغلظة، فقال له مغيراً لهجته إلى الخشونة:- أي منزل ذاك الذي انتهكت حرمة؟ لقد أتينا لزيارة زميلتنا المريضة، وقد دخلنا من باب المنزل الرئيسي لا من النافذة، ورأنا الجميع أثناء دخولنا لا سيما أمك التي سارعت بطلبك من المقهى الذي كنت تجلس فيه وها قد أتيت لتجدنا بحجرة الجلوس وباب المسكن مفتوح.

أثمرت كلماته ثمرتها المرجوة، فقد أخذ الشاب بجرأة هذا الضيف الذي بدا وكأنه يعرف كل شيء عن أفراد المنزل، لكنه سرعان ما عاد يقول له:- انتظر.. أين رأيته قبل الآن؟ أين؟ أين؟

اجتهد الشاب في اعتصار ذاكرته ليتذكر أين رآه من قبل، وساور "مراد" الشعور بالقلق؛ فقد سبق لهذا الشاب أن رآه حقاً حين دخل غرفة "جنة" بمستشفى "النسرين"، لكن فشل الشاب التام في تذكر أين رآه أعاد إلى نفسه بعض الاطمئنان، وعاد الشاب يسأل:- على أي حال.. لم أتيت وحدكما دون جميع من بالمستشفى؟

ضحك سخرية وقال:- وهل علي إجبار الناس على زيارة زملائهم حين يمرضون؟

وألقى على "جنة" نظرة وقحة ثم سأل متهمكاً:- وهل هذا دأبك مع جميع من بالمستشفى أم.. .

ولأول مرة يتدخل الشاب الآخر قائلاً:- حسبك.. أنسيت أنها أختي؟ إياك أن تتحدث عنها هكذا وإلا أريتك ما تندم عليه طيلة عمرك.

ثم توجه نحو "مراد" ليقول له بأدب جم:- مرحباً بك حضرة الطبيب، تفضل بالجلوس، فأنت ضيفنا وفي منزلنا، إنك رجل فاضل أجهدت نفسك

لتزور زميلتك فور علمك بمرضها، وما هذا إلا دليل حسن خلقك وهو ما يوجب علينا إكرامك.

ونظر بطرف عينه نحو خطيبها وهو يقول:- لا أن نمطرك بوابل من الأسئلة السخيفة.

ثم توجه إلى أخته سائلاً:- أديت واجب الضيافة نحو ضيفينا يا "جنة" أم لا زلت بخيلة كعادتك؟

فقال خطيبها وهو يتميز غيظاً:- سأذهب الآن.. لكن سيكون لي معك شأن آخر عند عودة أخيك.

وأخيراً تنفس "مراد" الصعداء بعد ذهاب الشاب، وفور تناولهما القهوة - التي أصرت "مشيرة" على إعدادها نيابة عن "جنة" - سارع بالذهاب.

97- وهل يخشى الغريق البلى؟!

وفي اليوم التالي جلس ينتظرها، وبعدما طال انتظاره سمع أخيراً صوتها تتحدث إلى زميلاتها فنهض متعجلاً ليقف أمام باب مكتبه، وحين رآته ذهبت إليه وأعطته دعوة حضور حفل زفافها ولم تنبس ببنت شفة، فقال لها:- إنهم أرحم منك بكثير.

- من هم؟!

- من ينفذون الحكم بالإعدام؛ فهم يسألون المحكوم عليه عن رغبته

الأخيرة قبل تنفيذ الحكم عليه.

- وما رغبتك الأخيرة؟

- لن أخبرك حتى تعطيني بتنفيذها.

كانت موقنة أنه لن يطلب منها ما يجرح مشاعرها أو يضايقها، وعلى أي حال ماذا قد يطلب منها أكثر مما حدث بينهما؟ بل إنها كانت تتمنى من كل قلبها لو طلب منها ذلك، فهي تتمنى إقامة علاقة كاملة معه ولو لمرة واحدة؛ فعلاقتها السابقة لم تكتمل.. لكم تتمنى أن ترتمي في أحضانه قبل أن تلقي بنفسها إلى الجحيم.. جحيم الحياة مع أبغض الرجال طراً إلى قلبها، ولذا هزت رأسها إيجاباً وقالت بتسليم:- أعدك.

وأنت رغبته تماماً كما توقعت، وكما تمننت، لا بأس ما دامت هذه المرة الأخيرة التي ستسلم نفسها إليه قبل أن تواجه مصيرها المحتوم.

وأنت إليه في مواعدها، بل ربما مبكراً قليلاً، وفور أن رأته ارتمت في أحضانه، تركها تفعل ما تشاء، لكنه لم يبادلها أشواقها ولا حتى ضمها نحوه بذراعيه القويتين كما فعل في لقائهما السابق.

أرخت ذراعيها ثم تباعدت عنه وهي تنظر إليه مستفهمة فقال لها:- ما لهذا طلبت لقائك.

فسألته بصوت مختنق:- فلم إذأ؟!

- أريد أمراً آخر، ربما بدا لك سخيلاً أو محرراً لكنه بالنسبة لي مسألة حياة أو موت.

- ما هو؟

- أريدك أن تقصي علي أحداث تلك الليلة بالتفصيل، وشدد على حروف كلمته الأخيرة.

نظرت إليه غير مصدقة أنه طلب لقائها هنا لمثل هذا السبب، قالت له في غيظ:- لم تصر دوماً على تقليب النار كلما ظننت أنني نجحت في إخمادها؟

- ليس أمامك سوى عبور النار لتخرجي منها.

صمتت طويلاً وأخذت تقلب الأمر في عقلها.. حاولت التحدث فلم يطاوعها لسانها، ثم قالت له:- لو كنت أعلم أنك تريد ذلك لما وافقت.

قال وكأنما كان ينتظر إجابتها هذه:- فما رأيك أن تخضعي للتتويم الإيحائي؟

ورافت لها الفكرة؛ فهي على الأقل لن تضطر لمواجهته، فأومأت برأسها إيجاباً.

قال لها:- وأنا أيضاً أفضل هذه الطريقة؛ فهي ستتيح لي الحصول على معلومات ربما أنت نفسك لا تعرفينها.

وقرب إليها مقعداً وطلب منها الجلوس في استرخاء تام ثم قال لها:- لضمان نجاح هذا الأمر عليك بالاستسلام التام لأوامري وعدم مقاومة ما سأفعل.. عليك تنفيذ أوامري بأقصى ما تستطيعين.

طلب منها بصوت هادئ جداً الاسترخاء التام.. عقلياً وجسدياً، وأعطاه حبة دواء زاعماً لها أنها ستساعدها على النوم، ولم تكن في واقع الأمر أكثر من قرص مسكن، وعدل الإضاءة لتصير خافتة تماماً، وبعد أن شغل

جهاز التسجيل أخذ يوحى إليها بصوت منظم.. بطئ ومتكرر أنها ستنام، وأن أطرافها سترتخي جميعاً وأنها ستشعر بالخدر وأن جفونها ستغلق وأخذ يكرر ذلك في تأكيد وثقة تامين.

كان على يقين من نجاحه حتى قبل أن يبدأ؛ فكل مقومات نجاح هذه الجلسة متوافرة؛ فهي ما زالت تكن له الاحترام - على كل ما حدث بينهما - كما أنها ستقبل إحياء لها فوراً، وسرعان ما تتأقلت جفونها فقال لها:- سأعد من عشرة إلى واحد، وستنامين قبل الوصول إلى واحد، وستستلمين لي تماماً، كما أنك لن تقاومي أوامري.

بدأ العد التنازلي وقبل أن يصل للرقم واحد كانت قد راحت في نوم عميق، فوخزها بمفتاح معه فلم تعبر عن الألم، فعلم أنه تمكن من تنويمها تماماً.

وبعدما تأكد أنها غطت في نوم عميق، طلب منها استرجاع أحداث تلك الليلة، فبدأت بسرد قصتها بصوت خافت ورتيب:- كانت الليلة ليلة عرس إحدى قريباتنا، وقررنا جميعاً الذهاب إلى هناك، وكنت قد خرجت لتوي من إحدى نوبات الأزمة الربوية، ففوجئت بزوجة أبي تصر على عدم ذهابي معهم واستسلامي للراحة التامة هذه الليلة.

وأمام إصرارها العجيب هذا غادر الجميع غرفتي عداها وأعدت لي كأساً من عصير الليمون وناولتني علاجي بنفسها، وحين بدأت تناول عصير الليمون وجدته شديد المرارة، فسارعت بإحضار عليه السكر لتضع لي ملعقتين إضافيتين منه وقالت أن سبب مرارة العصير أنها زادت تركيز الليمون ليصير أكثر فائدة لي.

وظل أخواي يستعجلانها بعد تأخرها عليهم لكنها لم تغادر غرفتي إلا

بعد تأكدها من شربي الكوب بأكمله.

وبعد ذهابها فتحت التلفاز ثم استلقيت في فراشي محاولة النوم، فلم يكن لدي ما أفعله، لكنني فوجئت بشعور من السعادة ينتابني، بل شعرت بعد لحظات كأني أغرق في بحر من السعادة وأن آلامي زالت تماماً وأني شفيت مما بي، ثم شعرت بدقات قلبي تصبح أكثر وضوحاً وجسدي يصير أكثر خفة ونشاطاً بل شعرت أنني كالريشة في مهب الريح وأني قادرة على الطيران والتحليق في الفضاء الرحيب.

ثم شعرت بكائنات جميلة تحلق من حولي وبالغرفة تزداد اتساعاً ووضوحاً ورأيت مذيع التلفاز واقفاً أمامي يحادثني.

ثم أخذت فكرة قدرتي على الطيران تسيطر على عقلي فغادرت فراشي نحو النافذة، وأحسست بحواسي تعمل بأكثر من طاقتها العادية بكثير، كنت أحس بالأشياء إحساساً مضاعفاً، فالروائح صارت أقوى والألوان صارت أعمق وأزهى، بل إن الأشكال لم تعد نفس الأشكال السابقة.

وحين وصلت إلى النافذة فتحتها فإذا بلحن موسيقي قادم من الطريق يتناهى إلى مسامعي، لكم استمعت لذلك اللحن من قبل لكنه لم يكن بنفس تلك العذوبة حتى أنني كدت أبكي لفرط تأثري به، نظرت إلى الطريق فإذا الأضواء أكثر لمعاناً والأشياء أشد وضوحاً، بل إنني شعرت أنني أرى الأنغام وأسمع الألوان، كما صارت رائحة الشواء القادمة من الشارع ألذ وأطعم، ولم أعد أعرف الزمان ولا المكان، وقررت الطيران.

وضعت يدي على حافة النافذة لأطير.. وفجأة...

- ماذا حدث؟

- رأيته يمسك بي قبل أن أقفز من النافذة.. نعم كان هو.. ابن زوجة أبي..
وحينها لم أشعر نحوه بأي كراهية أو اشمئزاز كعادتي دوما حين أراه،
وكأن السعادة التي غمرت قلبي لم تترك به مكاناً لكراهية ولا ضغينة، كل
ما فعلته أني سألته:- ماذا تفعل هنا؟!!

وبدلاً من أن يجيبني.. جذبني بعيداً عن النافذة، وضمني إلى حضنه..
العجيب أني لم أبدأ أي نوع من المقاومة، لا أدري لماذا، لكن هذا ما
حدث.

وأخذ يهمس في أذني قائلاً:- أنا أحبك، وأنت أيضاً تحبينني.. تحبينني
بشدة.

فقلت وأنا أتأمله وكأنني أشعر به أجمل رجل في الدنيا:- أجل، إنني
أحبك.. أحبك جداً، أحبك منذ زمن بعيد، وانتظرت هذه اللحظة طويلاً..
إن الفتيات يغرن مني لأنك تحبني، وأنا لن أتركك لهن، أنت لي أنا.. أنا
وحي.

وبدأ إدراكي لنفسيتي يتغير، وبدأت أرى تاريخ حياتي يمر أمام عيني
فرأيت كأني أولد من جديد ثم أرى نفسي في طفولتي ثم صباي في تسارع
مثير للأحداث.. ثم شعرت كأني صرت أنا والعالم وحدة واحدة وأنني جزء
من الجبال المحيطة والوديان والأرض والكواكب والنجوم.

وتطور الأمر بيني وبينه إلى علاقة حميمة، لكنني كنت أشعر كأني
خارج جسدي، أو أنني أنظر إلى ما يحدث وكأنه يحدث مع شخص آخر،
وما هي إلا لحظات حتى فقدت عذريتي.

وبعد ذلك بدأت حالة السعادة الغريبة التي انتابتنني تقل تدريجياً حتى
شعرت أني رجعت لعالمي الحقيقي وأنني عدت "جنة" التي كانت من قبل،

لكني - للأسف - لم أعد قط كما كنت من قبل، فما عدت عذراء.

وحينئذ أدركت أي جريمة ارتكبت في حق نفسي وحق أهلي، ولم أجد حلاً لخطيئتي إلا إتمام زواجي به بأسرع ما يمكن، حتى أنني بدأت أتوسل إليه بذلك، فوعدني بإنهاء الأمر، لكنه قال أن الأمر يحتاج تجهيزات وإعدادات.

ظل "مراد" مبهوراً مما سمع، فهو لم يعتقد يوماً أن العالم ينوء بكل هذا القدر من الشر، ها هو يستمع بأذنيه للجريمة الشنعاء التي ارتكبت في حق هذه البريئة، لكن كان لا بد له أن يتوصل للدليل الدامغ.. الدليل الذي يثبت الأداة قطعياً.. سألها بلهجته التي اجتهد في الحفاظ عليها رتيبة هادئة:- ما منعك من الذهاب معهم للعرس؟ لقد خَرَجْتَ لتوك من الأزمة الربوية، أما كان الأفضل لك الخروج لاستنشاق الهواء العليل بعد نقاهتك من المرض بدلاً من البقاء بالمنزل؟

- كنت لا أزال منهكة من المرض، ورغم ذلك جاهدت نفسي للذهاب معهم، إذ كان بالعرس كل صديقاتي اللاتي وددت لقائهن، إلا أنني لم أستطع التغلب على إصرار زوجة أبي على إبقائي بالمنزل وعدم خروجي إطلاقاً إلا بعد شفائي التام وإلا انتكس المرض من جديد.

- وهل كانت تهتم بك هكذا دوماً؟

- كلا، بل كان شعورها غريباً، بل إنني لم أرها حنونة أبداً إلا تلك الليلة، حتى أنها أصرت على إعداد عصير الليمون لي بنفسها وهو ما لم تفعله قط طوال النوبات السابقة.

- وهل استمرت على حنانها هذا بعد ذلك أم أنها عادت كما كانت؟

- لقد عادت أشد وأقسى، حتى أنني كنت أشعر أنها تُعَيِّرُنِي بفعلتي بنظراتها الجارحة وإن لم ينطق لسانها بذلك قط.

- وكيف دخل هذا الشاب إلى مسكنك؟

- لا أدري؛ فقد أغلقت الباب بنفسي بعد ذهاب زوجة أبي.

- ألم يفقد أي منكم مفاتيحه في الأيام السابقة لتلك الليلة؟

صمتت قليلاً ثم قالت:- لقد تذكرت، فقد افقدت مفتاحي الخاص فعلاً لكنني وجدته بعد يومين أعلى جهاز التلفاز، رغم أنني بحثت عنه كثيراً في نفس هذا المكان ولم أجده.

- وما كان سبب بقائه هو أيضاً بالمنزل وعدم ذهابه للعرس معهم؟

- كان أخي قد سأل أمه عن سبب تغيبه حين لم يره معهم قبل الذهاب للعرس فأجابته بأن لديه عملاً يريد إنجازه.

- وهل كانت عادته العمل ليلاً؟

- إنه لا يعمل شيئاً، وخاصة في المساء، حيث لا يفعل أكثر من الجلوس على المقهى مع رفاقه ليلها ويسكروا؛ فقد رأيتهم مراراً أثناء ذهابي للعمل ورجوعي منه.

واكتفى بهذا القدر من الأسئلة بعدما اتضحت معالم الصورة أمامه، ولم يتبق له سوى أن يفيقها.

ولأنها نامت نوماً عميقاً فكان لا بد له من إيقاظها تدريجياً لإنهاء حالة النوم، بل إنه اضطر أن يربت على وجنتها ربتات خفيفة ليفيقها.

وفور أن أفاقت قال لها:- ما كنت مجرمة.

وأعاد شريط التسجيل إلى البداية ثم شغله ليسمعهما جميع ما دار بينهما.

98- ما كنت مجرمة

غطت وجهها بكفيها أثناء سماعها للتسجيل حياءً مما فعلت، وفور أن انتهى انخرطت في بكاء عميق فسألها:- ألم تفهمي بعد؟!

لم تجبه مواصلة بكاءها فمد يديه ليرفع يديها عن وجهها وهو يقول:- أنزلي عن عاتقك نير الذنب الذي حملتيه حتى أثقل كاهلك يا “جنة”، إنه ما كان ذنبك ولا خطأك، لقد أفلت الجاني من العقاب ودفع المجني عليه ثمن جريمة الجاني.

نظرت إليه وأمارات التعجب تحل بوجهها محل الحزن فواصل قائلاً:- ألم تخبريني من قبل أنك عملت بجميع أقسام المستشفى؟ فلا شك إذاً أنك عملت بقسم علاج الإدمان.. ألم تسمعي من قبل عن عقارات الهلوسة؟ وعقار “إل إس دي LSD” على وجه الخصوص؟ فالحالة التي حدثت لك لا يفسرها سوى تناولك هذا العقار؟

- لكني أعالج من الأزمة الربوية وليس لأدوية هذا المرض أية علاقة بهذا العقار.

- كلا يا حبيبتي، لقد أعطيت هذا العقار عن غير علم منك، وأغلب ظني

أنه قد وُضِعَ لك في عصير الليمون الذي ناولتك إياه زوجة أبيك.

نظرت إليه تستزيده إيضاحاً فجلس قبالتها وبدأ يتحدث بهدوء أكثر قائلاً:- أظننت زيارتي لك البارحة كانت بغرض الاطمئنان عليك وحسب؟ كلا، فقد رأيت تلك الزيارة كفيلة بالاجابة على العديد من تساؤلاتي الحائرة، كما أنها قد تمكنني من رؤية أولئك الأشخاص الذين كانت رؤيتي لهم كفيلة بتفسير العديد من الأمور الغامضة عَلَيَّ ولا سيما أرملة أبيك.. التي تيقنت حين رأيتها أنها من ذاك الصنف من الناس الذي لا يتورع عن فعل شيء وصولاً لبغيته.

إنها هي من دبرت كل ذلك عامدة متعمدة واتفقت عليه مع ابنها.. لقد رأت في ذلك العرس فرصة مواتية لتنفيذ مخططها الشرير، فأخذت جميع من بالمنزل وتركتك.. أما لفت نظرك إصرارها على تركك أنت بالذات دونهم متعلقة بأنك لم تشفي بعد من أزمة الربو؟ إنها ما فعلت ذلك إلا لتبقى وحدك بالمنزل لتعطي الفرصة لابنها الوغد ليصعد بعد ذهاب الجميع ويفعل فعلته الآثمة.

لم يكلفها الأمر أكثر من الصعود تلك الليلة إلى مسكنك والتظاهر بالعطف عليك لتضع لك في عصير الليمون قليلاً من هذا العقار، وهو ما سبب تغير طعم عصير الليمون حين تذوقته، لا لأنها زادت تركيز الليمون كما ادعت كذباً، ولم تتركك إلا بعد تأكدها من تناولك له بأكمله.

كان دخوله المنزل بعد ذلك أمراً طبيعياً وغير ذي شك، وربما لم يغادر المسكن أصلاً، ليصعد إلى مسكنك بعدها ويفتح الباب عن طريق نسخة تم صنعها من مفتاحك الذي اختفى ثم ظهر فجأة بعد يومين، ثم أخذ يراقبك عن بعد كي يحدد أنسب موعد لدخوله غرفتك لإكمال مخطط الشر، وحين رآك تهمين بالقفز من النافذة علم أنها أنسب اللحظات لإكمال المخطط،

ولأن متناول هذا العقار يسهل الإيحاء إليه؛ فقد أوحى إليك أنك تحببته وبدأ علاقة حميمة معك فوراً قبل استردادك وعيك؛ فمن المعروف أن تأثير هذا العقار لا يدوم فترة طويلة، يعود بعدها المرء إلى سابق طبيعته، لذا وجب إنهاء الأمر بأسرع ما يمكن، وكانت النتيجة أن حدث بينكما ما حدث رغم كرهك الشديد له.. لقد كنت الضحية يا "جنة" ولم تكوني الجانية.

- ماذا تقول؟! لو كان كلامك صحيحاً أما كان الأولى أن تعطيني ما يفقدني الوعي تماماً؟

- أين ذهب عقلك؟ لو فعلت كذلك لاتضح الأمر جلياً أمام الجميع ولثارت مئات الأسئلة عن كيفية دخوله وسببه، ولَفَتَكَ به أخواك فور إخبارك لهم، وهو ما كنت ستفعلينه بالطبع فور اكتشافك الأمر، لكنها كانت تريد إذلالك. كانت تريد إرغام أنفك لدفعك للزواج به طائفة أنك فعلت ما فعلت بملء إرادتك.

- لم؟ ما الذي يدفعها لكل ذلك؟!

- لقد ألمها كثيراً رفضك المتكرر لابنها المدلل الذي لم تكن ترفض له طلباً بعد شعورها أنه منبوذ بينكم؛ فهو الوحيد الذي لا ينتمي لأبيك.

- أمن أجل ابنها تدمرني؟!

- في الحقيقة لم يكن الأمر خالصاً لابنها وحده بل كان لها منه نصيب، لقد كرهتك لأنها كانت تطالع فيك دوماً صورة غريمتها واسمها.. تلك المرأة التي انتصرت عليها حين أخذت منها الرجل الذي أحكمت شباكه حوله وذلك قبل قليل من اتمام ارتباطهما.. واشتد مقتها لك حين رأت أباك ينزلك منزلة خاصة دون بقية إخوتك، وهو ما جدد أحرانها التي ظنت

عهدها ولى وراح، ثم أتى رفضك لابنها ليكرر مأساة رفض أبيك لها من قبل، وهكذا رأت فيك فرصة مواتية للانتقام من ماضيها، من أمك التي لم يمهلها القدر لتنتقم منها. أما سألت نفسك عن سر إصرارها على إلحاقك بمدرسة التمريض رغم نبوغك في صغرك؟!

- لماذا؟ سألته بطريقة آلية.

- لقد أراذك ممرضة مثلها لكيلا ترى صورة أمك أفضل منها من جديد.

ساد الصمت قليلاً ثم واصل قائلاً:- ما كان أسهل حصوله على ذلك العقار، فلا شك عندي أنه قد جربه هو ورفاقه، لكن ما أثق فيه أكثر أن هذا الأمر كان بإرشادها، ولا تنسي أنها كانت ممرضة مما جعلها على علم بتلك الأمور .

ظلت جامدة كأنها تمثال من الشمع لا يتحرك، وأخيراً تحرك التمثال لتمد يديها إلى عينيها مجففة عنهما دموعهما التي هطلت غزيراً، ثم قالت بصوت كأنه آتٍ من بعيد:- حسبي أنه ما دفعه لذلك إلا حبي.

- إنه لا يحبك.. كل ما هنالك أنه تعود ألا يرد له أحد طلباً.

- ستولد الألفة الحب بين قلوبنا.

صاح فيها وقد أدرك ما تعنيه:- كذب.. هراء.. إن لم تحدث الألفة من أول نظرة.. إن لم يلتق القلبان من أول لحظة فلن يجمعهما دهر بأكمله.. استمعي إلي يا “جنة” ولا تهلكي قلبك بيديك.. لا تلقي به في أتون جحيم يصلى سعيه كل يوم وليلة.. إنني أمنعك أن تفعل ذلك بقلبك.

- تمنعني.. بأي سلطان؟

- سلطان الحب.. صرخ بها بصوت غاضب ثم عاد إلى هدوئه وقال لها:-
أجل، سلطان الحب الذي جمع بين قلوبنا من أول لحظة.. أقسم بروح أمي
أنك لن تكوني لرجل غيري ولو دفعت حياتي ثمناً لذلك.. إنك قدرتي الذي
طالما تمنيته وحلمت به.

- لم تريد دفع ثمن خطأ غيرك؟

- لقد سامحتك على نفس خطئك هذا حين ظننتك أتيتيه بكامل إرادتك، أفلا
أسامحك عليه الآن وقد تيقنت أنك كنت مرغمة؟ سأطلع إخوتك على الأمر
برمته، وسأخذك رغباً عنه، وعنهم، بل وعنك أنت نفسك إن أبييت.

رفعت وجهها لتتنظر إليه في تحد سافر وقد بدا عليها تصميم من حسم
أمره وقالت له:- وأنا أقسم بروح أبي أنه لن يدفع ثمن خطيئتي أحد
سواي.

وحين تيقن من عزمها قال لها بلهجة من أنهكت قواه:- لكني لا أستحق
منك كل هذه القسوة.

- وأنا لن أقبل بتضحيتك هذه، لا بد لكل مخطئ أن يتحمل تبعات خطيئته.

- وما ذنب قلبي الذي أحبك؟

- ذنبه أنه أحب المرأة الخطأ.

- ثم تغضبين بعد كل هذا إن وصفتك بقسوة القلب.

- صفني بما تشاء، فليس ذلك بمغير من الأمر شيئاً.

- أبعدما تكشف لك الحقيقة، وبشاعة الجرم الذي ارتكبه ذلك الآثم في

حقك تصرين على الزواج به والغدر بي؟ الآن يقولها صادقاً قلبي: ليتني لم أرك.. ليتني لم أرك.

- بل إنني أحق منك بقول ذلك، فما إن بدأت ترويض نفسي على الرضا به وتقبل الأمر الواقع إلا وأتيت لتبصرني بما لم أكن أعلم فتعيدني إلى سابق بغضي له وأشد.. ليتني لم أرك.. ليتني لم أرك.

99- رقصة الذبيح

ولم تأت في اليوم التالي، كما توقع تماماً فقال ل "مشيرة":- إنني راحل في الغد وما عادت لي أمنية سوى أن يكون وجهها آخر ما أراه قبل رحيلي.. سأنتظرها على الشاطئ عند الصخرة التي التقينا عليها من قبل.

وجلس على الصخرة ينتظرها، وأتت إليه بعد انتصاف النهار، وحين رآته وجدته مبتسماً على غير عادته طيلة الأيام الماضية، سألته عن سر ابتسامته فقال لها:- كيف لا أفرح وقد بلغ قلبي السعادة بعدما ذاق طعم الحب الذي لم يعرفه من قبل؟

- ياله من ضحك خير منه البكاء.

- إنها رقصة الطير الذبيح إذ تحشرجت روحه في الحلقوم.

- إنك تحاول بابتساماتك هذه إخفاء آلام أشد من أن تبكيك.

- إنني أشبه الناس بذلك الأسير الذي اشتكى لسجانه شدة عطشه فأحضر له

الماء ثم إذا به يسكبه على الأرض أمام ناظريه، جاعلاً عذابه عذابين، عذاب العطش وعذاب فقدان أمله بعد تجدد.

رأى الشمس تبكي وهي تودع المكان حين سمع “جنة” تسأله:- ألن تنساني؟

- بل سأرحل تاركاً قلبي بين يديك؛ فقد وجد راحته بين يديك أكثر مما وجدها بين جوانحي.

- ألا زلت مصراً على الرحيل؟

- وما بقائي بمكان ضاع مني أجمل ما فيه؟ كل شيء هنا سيذكرني بك.. كل مكان أنا معاً سيسألني عنك.. إني مشتاق إليك وأنت بين يدي وملء عيني، فكيف يكون حالي حين تأخذيني مني رغماً عني؟

- لو كنت أعلم أي سأسبب لك كل هذا العذاب لأخبرتك بكل شيء من أول لحظة.

- ياله من عذاب جميل.. بل هو أعذب عذاب عرفته في حياتي.. أرجوك ألا تمدي يديك إلي لتنفيذيني مما أنا فيه.

- ولم لا تنساني وتبحث عن محل بقلبك محلي؟

- تصفين لي كأس النسيان وياله من سم زعاف أشد فتكاً من المرض الذي وُصِفَ له علاجاً.. حتى إن لم يكن لي إلا هذا الكأس دواءً فلن أترعرع، فلن أحيأ بقلب أعياء حبك أحب الي من الحياة بقلب صحيح لست فيه.. إن موتي في حبك خير عندي من العيش بدونه، حتى إن مِتُّ في هواك فربما يكون ذلك خيراً لي، فسأصير روحاً هائمة في الفضاء تحلق حولك لا

يمنعها عنك مانع.. حسب قلوبنا يا "جنة" أن قصة حبنا ستخد مثلما خلدت قصص العشاق السابقين، فلتكن قصة "مراد" و"جنة" قصة للحب الذي بقى على مر الدهور والأيام.

دقت ساعة الميدان بخفوت حين كانت تعلن العاشرة لئلا تزعجه وهو يقول لها:- لا بد لنا من التسليم بقدرنا دون أدنى اعتراض.. أريدك أن تخلصي لزوجك معتبرة إياه قدرك الذي تعجزين عن تغييره نفس عجزك عن تغيير أبيك أو أخيك.. بل وأن تحبيه.

- أما الإخلاص فسأحاوله، أما الحب فلا؛ فقد أغلق قلبي على الحب من بعدك.

سمعهما القمر وهو يصعد في سمائه حين كانت تسأله:- ماذا ستفعل من بعدي؟

- لقد مات الأمس ولا زال الغد جنيئاً في رحم الغيب، وما تبقى لي إلا هذه اللحظة فلا تشغلي بالي بغيرها.

وهذه المرة دقت ساعة الميدان بقوة لتنبههما أنه لم يتبق على منتصف الليل أكثر من ساعة ففهمتها "جنة" وبدأ القلق يساورها فقال لها:- إن خوف المرء من فراق لذته يدفعه لإمعان التلذذ بها.. أرجوك ألا تبخلي علي بالبقاء معي هذه الساعة فإنما هي ثمالة كأسى.

ثم قال لها وهو يتأمل القمر:- أترين كيف بدا القمر الليلة أوضح وأجمل من سائر لياليه؟ ها هو يبعث إلينا بأشعته الفضية الساحرة ليداعبنا قائلاً:- لقد سهرت الليلة من أجلكما.. أترين كيف توارت النجوم حين تلالاً القمر؟ إن هذا المشهد يذكرني بك؛ فحين تسطعين تتوارى الأخريات وتبهرين عيني كل من يراك، تماماً كما يفعل القمر الليلة بعيون الساهرين.

أسندت رأسها إلى كتفه وسألته:- أتحبه؟

- كان القمر معشوقي السابق، لطالما سامرني وشاركني ليالي جدي واجتهادي، أما الآن فلم يترك عشقك مكاناً له.

رأى دمعتين رقرقتين تتحدران من عينيها، فمد يديه ليمسحهما قائلاً:-
إن كان فراقنا قدراً فلا تجعلني آخر ذكرياتنا دمعاً وأحزاناً، أريد أن يكون
فراقنا فراقاً جميلاً كما كان لقاؤنا.

وكإنذار أخير دقت ساعة الميدان اثنتي عشرة دقة معلنة انتصاف الليل
فقال لها:- هذه عادة الأوقات الرائعة، فعمرها كعمر الزهور التي لا تكاد
تتفتح حتى تذبل، هيا فلا أريدك أن تتأخري أكثر من ذلك.

- دعني أبق معك قليلاً.

- لا مفر من الفراق.. إنه قدرنا المحتم، لكنه لن يكون فراقاً مطلقاً ولا
أبدياً بل سنفترق مظنة التلاقي.. تذكرني دوماً قلبي الساكن بحضن قلبك.

- ألن تنساني؟

- بل سأعيش على ذكراك، وسأحيا ما دمت تحيين بقلبي.

100 - الحبيب المجهول

قضى ليلته ما بين ذكرياته وأحزانه، وفور أن أرسل الصباح أولى خيوطه بدأ يللم أغراضه وذكرياته وأحزانه استعداداً لمغادرة المستشفى، وأمام باب مبنى استراحته رأى "سميرة" التي طارت نحوه فور أن رآته سائلة:- أكنت تريد مفارقتنا دون وداع؟

- لا أحب لحظات الوداع.

وهم بالتحرك فقالت له وقد رأت أنه لا جدوى للمقدمات:- أكل ذلك من أجلها؟ أبعد كل ما فعلته لأبعدها عنك تصر على أن تشعر بها وتتركني؟!

وسطعت الحقيقة جليلة أمام عيني، ورأى عدوه الذي أعياه البحث عنه.. دقق النظر فيها وهو يقول لها:- إذا فأنت من أخبرت امي.

لمعت عيناها ببريق عجيب وهي تقول له:- لم يك بد من إبعادها عن طريقي بأي ثمن.

- أمي كانت الثمن.

- لقد حاولت إبعادها عن طريقي فما وجدت وسيلة إلا هذه.

- ولم كل هذا؟

- أكل ذلك ولم تشعر بي؟

وحين التقت عيناها بعينيها رأهما غارقتين بالحب الذي أضى خبيراً في

اكتشافه.

ورغم تشوقه الشديد لمعرفة الفاعلة لينتقم منها إلا أنه لم يعد يجد في نفسه أية رغبة للانتقام، بل إنه وجد نفسه يسامحها فوراً دون أن تطلب منه ذلك ودون حتى أن تبدي أي ندم على ما فعلت، ربما لأن حب "جنة" استولى على كل قلبه فلم يترك به مساحة لشعور آخر ولو كان الكراهية أو البغض أو الانتقام، أو ربما لأنه - بعد أن ذاق الحب - صار أكثر قدرة على العفو عن أخطاء المحبين.

واصلت قائلة:- كان شعورك صادقاً حين قلت أننا التقينا من قبل؛ فقد عملت بعد تخرجي بالمستشفى الجامعي بجزيرة "السنابل"، المستشفى الذي كنت تعمل به.. لم أكن أعمل معك بنفس القسم وإنما بقسم التجميل، وكنت أراك حين تأتي لتباشر فحص الحالات نفسياً، ورأيت النتائج المبهرة التي تحققت على يديك، والتي جعلت رئيس القسم يصر على عرض الحالات عليك شخصياً، ومنذ ذلك الوقت أحببتك، لكني رأيته نجماً بعيداً لا أستطيع إليه وصولاً.

وحين رأيته هنا لم أصدق عيني، وساعتها تجددت أحلامي بعدما ظننتها ماتت، لكني - للأسف - كنت قد خُطبت فعلمت أن بعدك عني ازداد أكثر وأكثر، وحين علمت بقصتك معها أدركت إمكان الوصول لقلبك، فقد أحببت زميلتي.

- لكنك مخطوبة.

ضحكت سخرية وقالت:- أليست هي أيضاً مخطوبة؟ بم تفوقني كي تحبها وتتركني؟ إنها لا تفوقني جمالاً ولا حباً لك!

- لقد شعرت بك صديقة ولم أشعر بك حبيبة، ما أجمل أن يصادق المرء

حبيبته وما أصعب أن يحب صديقه.

- أنا ما طلبت منك صداقة.. لم تركتني وأحببتها وأنا التي ذبت فيك عشقاً وهو منذ زمن بعيد؟

- وكيف حصلت على هاتف منزلي؟

- أنسيت أننا جميعاً ندون بياناتنا كلها في أوراق تسلم العمل؟ لم يكلفني الأمر سوى مبلغ زهيد في يد موظفة الملفات للاطلاع على كافة بياناتك.

- كان رأيك دوماً أن أي شيء يمكن شراؤه بالمال.

- كنت مستعدة للتضحية بأي شيء لأبعدها عن طريقي الى قلبك، لكنك عدت بعدها أكثر تمسكاً بها، وأنا التي ظننتهم سيجبرونك على تركها فور علمهم بقصتك معها.

- أكانوا يرفضونها ثم يرتضونك بعدها؟

- فقدانك من كلتيما كان أهون على نفسي من فوزها بك دوني.

- إن هي إلا الأنانية المطلقة.

- ما الحب إلا أنانية، أليست غاية المحب وأسمى أمانيه امتلاك من يحب ليخلص له من دون الناس؟

- كم تظلمينه بكلماتك هذه، هذا حب ضعاف النفوس، أما الحب في صورته الأسمى فهو إثارة المحب لصالح حبيبته ولو اضطر للتضحية بقلبه من أجله، لقد جهلت ذلك وأدركته من تلوميني على حبها.. أدركت أن جوهر الحب تضحية وليس امتلاكاً، عطاء لا أخذ، فارتضت بذبح قلبها

على نُصَبِ الحب من أجلي.. أما أنتِ فارتكبت ذات الخطأ الذي طالما منه فررت.

- أكانت خطيئتي أني أحببتك؟

- ما كان الحب يوماً ذنباً ولا خطيئة، فهو أمر خارج عن إرادتنا، كانت خطيئتك محاولتك امتلاكِ باسم الحب.. إني ما هجرت بلدي ومستشفاي إلا فراراً من ذلك، فررت من أُمي حين حاصرته بحبها حتى كادت تخنقني بحبها الدءوب لي على الزواج، وفررت من مديرة مستشفى حين بدأت تمارس نفس دور أُمي معي فتركت هذه وتلك فراراً من حصار الحب.

101 - ليتني لم أرك

تركها مسرعاً ليلحق بالقطار الموشك على المغادرة، فما عاد يتحمل البقاء بهذه البلدة أكثر من ذلك.

إن من كان يراه قبل ثلاثة أشهر حين وصل في نفس هذا القطار إلى نفس هذه المحطة يفيض حيوية ونشاطاً ما كان ليصدق أنه نفس هذا الشخص المعتل المهدم الأركان اليائس البائس الذي يسارع ليغادر البلدة التي بذل جهداً فائقاً للحضور إليها.

أطلق القطار صفارته إيذاناً بالرحيل، وقبل أن تطأ قدمه عربة القطار سمع صوتاً لاهتاً يهتف باسمه.. التفت تلقائياً نحو مصدر الصوت المؤلف

فإذا هي “مشيرة”.. جرى نحوها تاركاً القطار الذي شرع في التحرك،
وحين وصل إليها قالت له قبل أن تلتقط أنفاسها:- تعال معي.. لا بد أن
تري “جنة”.

وبعد التقاطها أنفاسها أخبرته بما حدث، فأثناء عودتها البارحة من لقائها
معه خرج عليها بعض الأشقياء المخمورين وحاولوا الاعتداء عليها، لكن
الناس هرعوا إليها فور صراخها طلباً للنجدة، وطاردوا أولئك الأوغاد
بينما خرت هي مغشياً عليها فأخذوها للمستشفى، وحاولت “مشيرة”
مهاتفته فأخبروها أنه غادر المستشفى ومعه حقائبه فاستنتجت أنه توجه
إلى محطة القطار للسفر.

سألها:- أخبريني.. أصابها مكروه؟

- أجمع الشهود أن أياً من أولئك الأوغاد لم يمسها بسوء؛ فقد هرعوا إليها
فور طلبها النجدة، كما أقر أولئك السفلة جميعاً أنهم لم يمسوا شعرة واحدة
منها.

وحين وصل غرفتها توقف لدى الباب.. رأى الغرفة مكتظة بأهلها..
وبالكاد رأى من بينهم “جنة” على فراشها وقد بدأت تفيق لتوها والشحوب
الشديد بادٍ على وجهها، وفور أن رآها خطيبها تفتح عينيها توجه إليها
سائلاً - بلا أدنى مراعاة للموقف:- ما الذي أخرجك حتى تلك الساعة
المتأخرة من الليل وأنت تعلمين بانتشار المجرمين وقطاع الطرق من
حولنا؟ أجيبني أيتها العفيفة.. لقد تحملتك طويلاً رجاء عودتك إلى صوابك،
لكن أن تعودي للمنزل بعد منتصف الليل ولما يتبق على زواجك أسبوع
واحد فهو ما لا يمكن لي أن أتحملة.. حقاً إن من أخطأت مرة هان عليها
الخطأ كل مرة.

نظر الجميع إليه في اندهاش وصمّت من كان يتحدث، عن أي خطأ يتحدث هذا المأفون؟ فالقليل جداً من الموجودين هم من فهموا معنى جملته الأخيرة، وحتى أولئك القلة ما كانوا ليتوقعوا أن يبادرها بهذه الكلمات في مثل هذا الظرف العصيب، أما هي فانخرطت في بكاء حاد حين بدأت تتذكر ما حدث.

لم يعلم الشاب أن "مراد" قد دخل الغرفة في تلك اللحظة ليكون الوحيد الذي يجيب على سفاخته قائلاً:- كيف تسمعها هذه الكلمات وهي على هذا الحال؟

استدار إليه الشاب وقد بوغت بذلك الصوت الذي بدا مألوفاً له.. نظر إلى "مراد" نظرة تفيض احتقاراً واستدار إليه وهو يقول:- ومن ذاك الفارس الجديد الذي أتى متطوعاً للدفاع عنها؟ العشيق الجديد؟

وقبل أن يعاجله "مراد" بالإجابة حلق الشاب فيه ثم قال:- لقد تذكرتك الآن، ألسنت أنت الطبيب الذي أتى إليها في مستشفى "النسرين"؟ وأنت أيضاً من أتى لزيارتها بمنزلنا؟ من الواضح أنك متابع جيد لأخبارها، واضح أيضاً أنك لا تتحمل إصابتها بأي أذى، حسناً.. لقد حضرت في أنسب وقت، ها هي ذي أمامك، خذ ما تبقى منها بعدما نهشتها الذئاب، فما عادت لي رغبة فيها.. كيف سأواجه رفاقي إن تزوجتها بعد كل ما حدث؟

كان الشرر يتطاير من عيني "مراد"، وبصوت حمله كل ما اعتمل صدره من غيظ طوال ما مضى قال له:- لا ذئب سواك أنت وأمك؛ فلو لا مؤامرتكما الدنيئة لما وصَلْتُ إلى هذا الحال.. هيا.. اخرج من هنا.

زاغت نظرات الشاب وبدا أشبه بفأر أصابه الهلع بعدما سمع صوت باب المصيدة يُغلق عليه.. هل افتضح أمره حقاً؟ كيف عرف هذا الغريب

أمر المؤامرة التي دبرت بليل ولم يعرف بها أهل البيت ولا حتى الضحية نفسها؟ وسيطر الشعور بالخوف عليه حتى خشي أن يفتك به أخاها إن فضح لهم هذا الغريب الأمر، وهو ما جعله يخرج من المكان مسرعاً حتى أنه اصطدم باثنين من الواقفين فأفقدتهما التوازن، وخلال ثوان كانت أمه قد لحقت به.

وأتى رد فعلهما هذا - الذي لم يتوقعه "مراد" نفسه - خير دليل على صدق استنتاجاته، وليزيل أثارةً من شك كانت لا تزال تساوره، وفور خروجه سارع "مراد" يخاطب الجمع الذي لم يعد يفهم شيئاً مما يدور:-
إني أطلب منكم خطبتها الآن وفوراً.

ولم ينتظر سماع إجابة، بل هرع إليها قائلاً:- حبيبتي.. ها قد أتيت إليك، ما عاد شيء يفرق قلوبنا، لن يمنعا عن هوانا مانع.. إياك أن يحزنك ما قال ذاك التافه، إنك لا تعلمين مدى سعادتي بتركه إياك.

قالت في وهن بالغ:- لم أتيت؟

ثم أنشجت تبكي فقال لها:- أكنت تريدين ألا آتي وأنا السبب في كل ما حدث؟

صرخت فيه:- ولذا تريد الزواج مني؟

- أقسم لك أن سبب رغبتني في الارتباط بك ما تغير ولا تبدل.. إني أحبك يا "جنة"، أحبك.

- لا زلت مصراً على دفع ثمن خطأ غيرك.

- إنه خطأي وحدي.. أنا وحدي المسئول عن تأخيرك.. ألم أوافقك حين

أصررت على دفع ثمن خطئك، لم تريدني منعي الآن حين أتى دوري؟
ضمها إلى صدره بقوة وهو يقول:- سنلتقي يا حبيبتي.. سنلتقي بعد
الشوق وطول الانتظار.. سنلتقي بعدما عز اللقاء.
لكنه شعر بجسدها يتراخي بين يديه.. أبعداها عن حضنه قليلاً لينظر
إليها فإذا بها لا تحرك ساكناً.. عاد يضمها إلى صدره بقوة أكبر وهو
يصرخ بأعلى صوته:- لا.. لا.. ليتني لم أرك.. ليتني لم أرك.